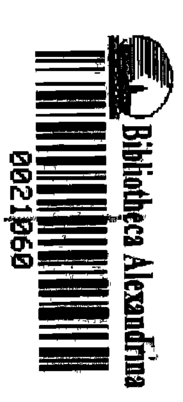
دراسات في

جغرافية شبه جزيرة العرب

الأستاذ الدكتور
فتحي محمد أبو عيانه
أستاذ الجغرافيا البشرية
وعميد كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



١٩٩٤

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣







دراسات في

جغرافية شبه جزيرة العرب

الأستاذ الدكتور
فتحي محمد أبو عيانه
أستاذ الجغرافيا البشرية
وعميد كلية الآداب - جامعة الإسكندرية

١٩٩٤

دار المعرفة الجامعية
٤٠ ش سوتير - إسكندرية
ت : ٤٨٣٠١٦٣



الباب الأول
شبه جزيرة العرب
ودولة الإسلام
(من العصر النبوي حتي القرن الثالث الهجري)

الفصل الأول
شبه جزيرة العرب قبل الإسلام

تقع شبه جزيرة العرب في جنوب غرب آسيا ، وهى تمثل قلب المشرق العربى واتصلت بالأقاليم المجاورة له منذ القدم ، وأدت ظروف المناخ الصحراوى وشبه الصحراوى بها إلى دفع كثير من جماعاتها البشرية للاتجاه نحو هذه الأقاليم عبر الطرق البرية والبحرية فى آن واحد .

وكانت بلاد العرب فى موقع مثالى له منافذه التى تطل عل كل اتجاه وله مسالكه التى تسمح بعبور كل شيء مادى أو معنوى ، وله سكانه الذين عرفوا شعوب الأرض وما وراء البحار وألفوا التجارة والتبادل منذ قديم، بل ألفوا العطاء والأخذ دون شعور بالخصاصة أو الأثرة حين العطاء ، أو بالحرج حين الأخذ عن غيرهم من الشعوب ، وبذلك أحس سكان المشرق العربى دائما أنهم أصحاب رسالة لأنهم فى واقع الأمر كانوا مؤهلين بحكم موقع وطنهم وطبيعته لأن يحملوا تلك الرسالة بين الأمم والشعوب (١) .

وكانت البيئة فى جزيرة العرب بيئة تحدى ، فهى بيئة صحراوية قاسية تدعو السكان إلى العمل الذى يتحدى الظروف الطبيعية ، وإن كانت فى الوقت ذاته توحى لهم بالأمل فى قهر الصعاب، فالصحراء تتحدى من يحاول أن يقطعها لكنها تضم الواحات الطبيعية التى يعرف عابر الصحراء أنه يستطيع أن يفيء إليها كمراحل على الطريق ، ولئن كان الارتحال بالبر والبحر فى أقطار المشرق العربى قد انطوى على شيء من المشقة أو

---

(١) سليمان حزين: المشرق العربى بين الماضى والحاضر – المجلة الجغرافية العربية السنة الأولى – العدد الأول – القاهرة – ١٩٦٨ – ص ١٥.

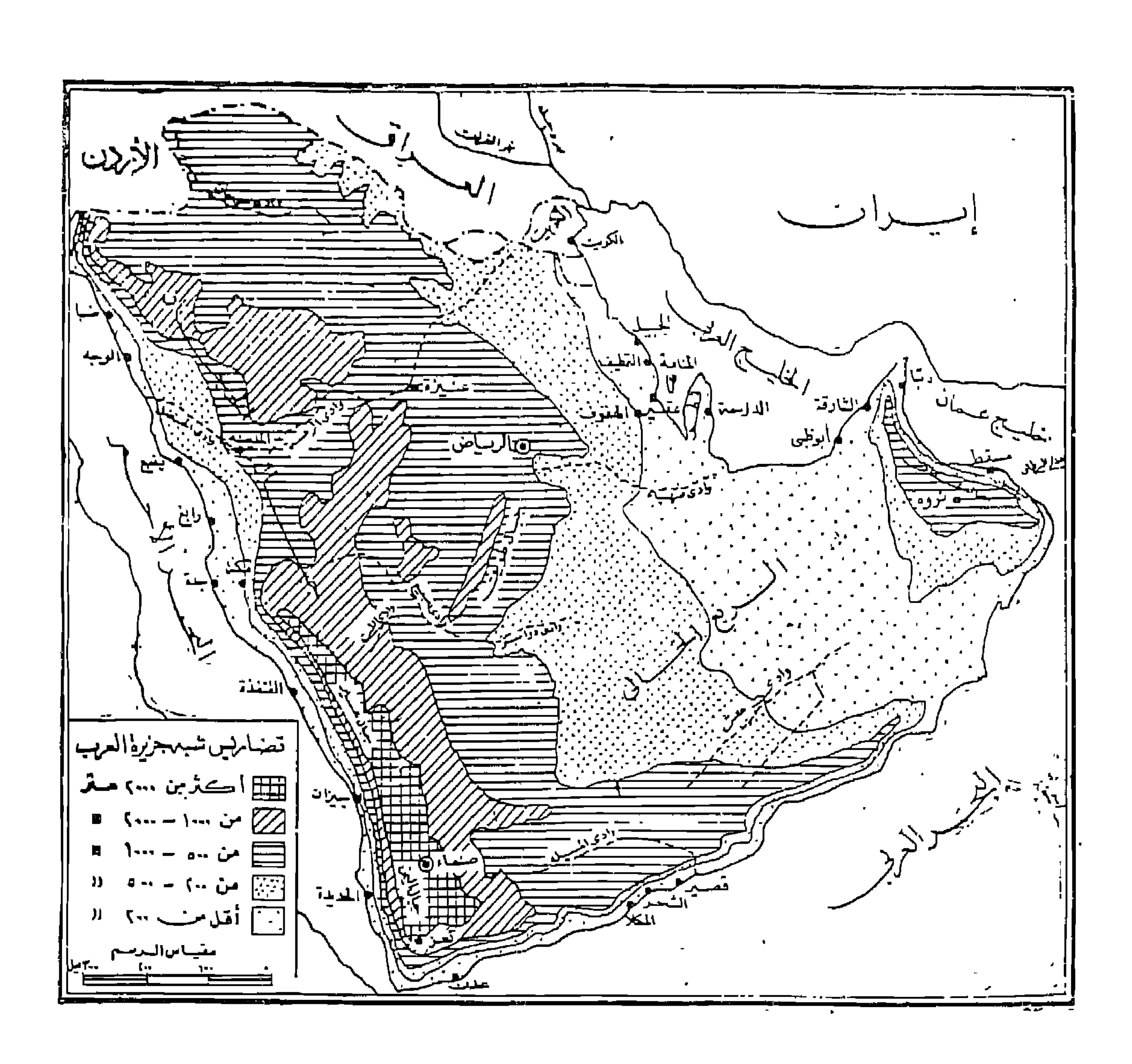
المغامرة بالنهار فإن الليل ونجومه الثوابت فى سمائه الصافية كان دليل كل مرتحل على ظهير بعير أو ظهر سفينة .

وفى تلك البلاد العربية التى تحدها البحار من الشرق والجنوب والغرب كان من الضرورى لعبور السلع خلال أراضيها بين الشمال والجنوب أو بين الشرق والغرب أن تكون الإبل (سفن الصحراء منذ القدم) وسيلة النقل والسفر ، وأصبحت قوافلها ملائمة لظروف البيئة كل الملاءمة ، ولنا أن نتصور حال بلاد العرب لو أن صحاريها كانت كمناطق السهوب الآسيوية التى تمرح فيها جحافل الخيول ـ لما كان العرب حداة إبل فى معظمهم بل لأصبح الطابع الغالب على حياتهم وحركتهم طابع الفرسان الذين يستشعرون الاستعلاء على غيرهم ولكانت الجزيرة العربية مصدر هجرات من جحافل المخربين فوق خيولهم (مثل التتار والمغول وغيرهم) لا حداة إبل يسعون بالتجارة والفكر والفن بين جيرانهم على الشواطىء وفى مواقع الحضارة المستقرة من حول الجزيرة [١] . (شكل رقم ١) .

وقد أدت صفات الموقع الجغرافى إلى الانفتاح الحضارى منذ وقت طويل كما أدت إلى نتيجة مثلى تمثلت فى أن التحركات البشرية التى اتجهت نحو الشمال استطاعت أن تعايش أنماطاً من حضارة البحر المتوسط وتستوعبها ، كما أن التحركات التى اتجهت نحو الجنوب والشرق اشتركت فى صياغة أنماط حضارية فى جنوب آسيا ، ومن ثم تحولت شبه جزيرة العرب إلى ملتقى حضارى خاصة على الأطراف ـ ولعل فى رحلة الشتاء والصيف من مكة المكرمة وإليها خير دليل على ذلك ، ومن هنا كانت مكة وأرض الحجاز من حولها بؤرة لنمط فريد من أنماط الإلتقاء الحضارى قبل ظهور الإسلام وبعده .

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٩ .


تضاريس شبه جزيرة العرب
أكثر من ٢٠٠٠ متر
من ١٠٠٠ — ٢٠٠٠ »
من ٥٠٠ — ١٠٠٠ »
من ٢٠٠ — ٥٠٠ »
أقل من ٢٠٠ »
مقياس الرسم
٠
١٠٠
٢٠٠
٣٠٠ ميل
الأردن
العراق
إيران
الكويت
الرياض
عنيزة
الجبيل
المنامة
القطيف
الدمام
الهفوف
الدوحة
الشارقة
أبوظبي
دبا
مسقط
نزوى
خليج عمان
الخليج
الربع الخالي
المدينة
ينبع
رابغ
مكة
جدة
القنفذة
جيزان
صنعاء
الحديدة
تعز
عدن
المكلا
الشحر
قصير
البحر العربي
الوجه

شكل رقم (١)

وهكذا أكسب الموقع الجغرافى شبه جزيرة العرب قيمة مبكرة ، وقبل ظهور الإسلام واجه عرب شبه الجزيرة منذ وقت بعيد تحدى البيئة الصحراوية المقترة ، وفرضت ظروفها الطبيعية عجزاً فى موارد البيئة بسبب شح الأمطار مما كان دافعاً للحركات السكانية طلباً للرزق والظروف الأنسب، ومن ثم نشط العرب فى التجارة والوساطة فيها وحفزتهم على الحركة وأهلتهم مبكراً لمعايشة غيرهم من الأجناس والأقوام وكان ذلك سبيلا من السبل التى أكسبتهم مقدرة وتفوقاً فى أداء مهمتهم عندما حملوا لواء الإسلام ـ فى مراحله المبكرة ـ وخرجوا من بلادهم لنشره حيث اكتسبوا حنكة ومهارة وانتفاحاً أقنع الناس ودعاهم للقبول بالدين الجديد واعتناقه (١) .

وقد فرضت العوامل الطبيعية ضوابط حددت محاور الهجرات السكانية من شبه جزيرة العرب وخطوط سيرها قبل ظهور الإسلام وبعده ، وتمثلت فى طرق القوافل التى ربطت شبه الجزيرة بالأقاليم المجاورة ، وكذلك فى طرق بحرية ربطتها بالأقاليم البعيدة ، فقد اتجهت التحركات البشرية المبكرة صوب أقاليم الأمطار الشتوية فى ظهير البحر المتوسط ، وسعت نحو الأقطار المطلة على البحر الأحمر والمحيط الهندى فى شرق أفريقيا وجنوب أسيا .

وقد أتاح الموقع الجغرافى لشبه جزيرة العرب فرصة لبعض سكانه على الأطراف الشرقية والجنوبية والغربية أن يركبوا البحر ويبرعوا فى فنون الملاحة منذ وقت بعيد قبل ظهور الإسلام ، وقد سجل التاريخ حركة نشطة لبحرية العرب احتكروا فيها تجارة المحيط الهندى ، وقد بنى هذا الاحتكار

---

(١) صلاح الشامى وزين عبد المقصود ، جغرافية العالم الإسلامى ، الأسكندرية ، ١٩٧٤ ، ص ١٦ .

على مهارات استيعاب دورة الرياح وتحركاتها الموسمية فيما بين صيف تكون اتجاهاتها فيه جنوبية غربية تصل بسفنهم إلى ساحل مليباد الهندى ،وبين شتاء تكون فيه اتجاهات الرياح شمالية شرقية وتعود بسفنهم وقد أثقلت بحمولة من سلع متنوعة إلى ساحل شرق أفريقيا ، ومن ثم كانوا يمارسون من ساحل شرق أفريقيا وإليه رحلة ملاحية ساحلية تمر حول القرن الأفريقى وخليج عدن ، وكانت الرحلات تبدأ فى الغالب من البحر الأحمر وتشق طريقها من خلال باب المندب فى رحلتي الذهاب والإياب (شكل رقم ٢) (١) .

وهكذا يبدو أن شعب شبه الجزيرة العربية كان مفطوراً على حب الرحلة والسفر منذ فجر تكوينه ، فيذكر لنا التاريخ أنباء متواترة عن تنقله وأسفاره فى سبيل البحث عن مصادر رزقه وتجارته، فزار كثير من أبنائه بقاعاً وأقاليم عديدة ،م فبلغ أقاصى بلاد الشام والعراق ومصر ، وتجول كثير من أفراده فى أقطار نائية ، ولعل ذلك يعود للفقر الطبيعى الذى عرفت به جزيرة العرب فى الماضى ، فقد كان للقبائل رحلات ، وللأفراد أسفار ، ذكر بعضها فى الشعر ، فكانت رحلات الشعراء إلى الحيرة حيث المناذرة ، وإلى أطراف دمشق حيث كانت منازل الغساسنة حتي لقد بلغ امرؤ القيس القسطنطينية ، وكان لقريش رحلتان إحداهما فى الصيف والأخرى في الشتاء .

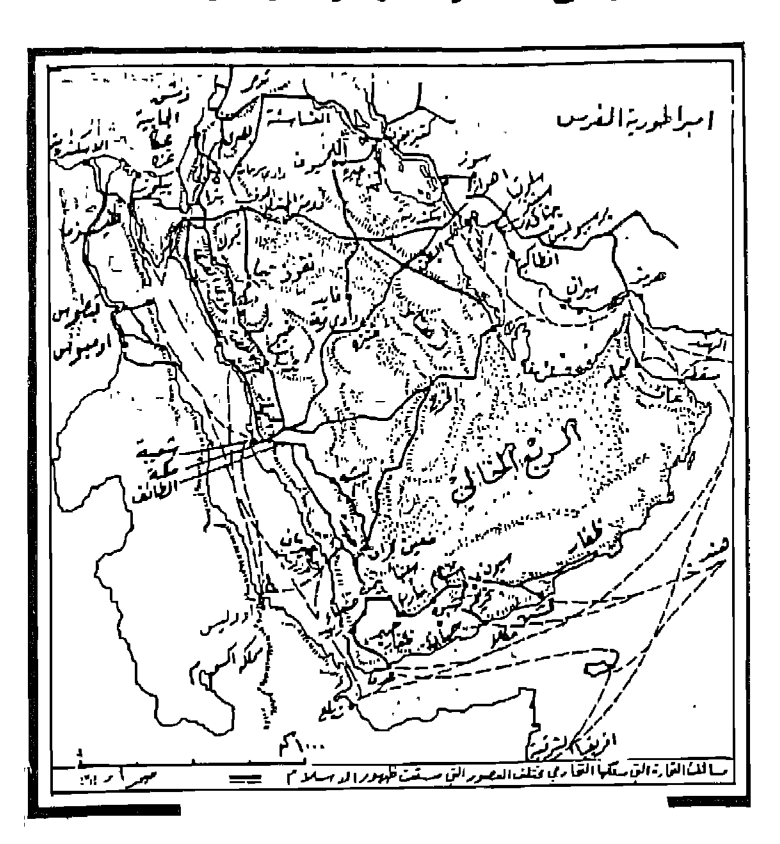
وفى جنوب غرب الجزيرة العربية قامت حضارات زاهرة فى اليمن كان اعتمادها على النشاط التجارى فى البحر العربى والمحيط الهندى، فاتصل اليمنيون بشعوب أفريقيا الشرقية وجزرها وكان لهم بعض النفوذ

---

(١) المرجع السابق ، ص ٣٦ .

فيها ، كما كانوا يتجرون مع أهلها فى الطيوب وغيرها ، كما اتصلوا بالهند وسواحل الخليج العربى وما جاوره من بلاد ، وإلى هؤلاء اليمنيين القدامى يعود الفضل فى معرفة الطرق البحرية فى تلك الجهات [1] ، يقول الشاعر الجاهلى عمرو بن كلثوم :

ملأنا البر حتى ضاق ذرعًا   وظهر البحر نملؤه سفينا



شكل رقم (٢) مسالك التجارة

---

(١) عبد الرحمن حميده ، أعلام الجغرافيين العرب ، دار الفكر ، دمشق ، ١٩٨٤ ، ص ٣٤، وراجع الخريطة التى أوردها فى كتابه ص ٣٣ عن الطرق التجارية لبلاد العرب قبل الإسلام

أهل الجزيرة العربية قبل الإسلام

لم تكن شبه جزيرة العرب قبل الإسلام دولة واحدة ، بل كانت تنقسم إلى وحدات سياسية مستقلة تعرف بالقبائل خاصة فى نجد وأطراف الحجاز ، وكان بالحجاز مدن ذات حياة سياسية خاصة ، كما كان بأطراف شبه الجزيرة فى الجنوب ممالك اليمن ، وفى الشمال الشرقى مملكة الحيرة ، وفى الشمال الغربى دولة الغساسنة . وكانت القبائل العربية فى نجد وأطراف الحجاز تحيا حياة سياسية فطرية وحرص بعضها على أن يكون فى رعاية إحدى الدول الكبرى المعاصرة لها ، فقد دخلت بعض القبائل فى رعاية أمراء الحيرة ، وبعضها الآخر فى رعاية دولة حمير باليمن، كذلك كانت هناك أحلاف بين بعض القبائل العربية وبعض الدول ، فقد تحالف المناذرة مع بعض القبائل للاستعانة بهم على الغساسنة، الذين تحالفوا بدورهم مع قبائل أخرى ضد المناذرة .

وكانت الحروب التى تشهدها بعض مناطق شبه الجزيرة بين بعض القبائل العربية ترجع فى الغالب إلى عوامل مادية كالنزاع على المرعى أو الأخذ بالثأر ، ولم تنقطع الحروب فى نجد وأطراف الحجاز ، ومن بين هذه القبائل ربيعة ومضر اللتان كانتا من أقوى القبائل العدنانية وأكثرها رجالا ، فكانت هذه القبائل تنتقل فى نجد واليمامة والحجاز سعياً وراء الماء والمرعى والغنائم ، وكانت كل منها تغزو أرض الأخرى طمعاً فيما لديها من إبل أو ماشية أو مرعى أو أخذاً بالثأر (١) .

وهكذا كان عرب شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام فى فرقة وعداء ولم يكن لهم كيان واحد بل كانوا فى نزاع مستمر ، ولم يتمسكوا بما

---

(١) جودة حسنين جودة وعلى هارون ، جغرافية الدول الإسلامية ، الأسكندرية ، ١٩٨٤، ص ص ٤٥ ـ ٤٧ .

أنزل الله على موسى وعيسى عليهما السلام ﴿ وقالت اليهود ليست النصارى على شيء ، وقالت النصارى ليست اليهود على شيء﴾ (قرآن كريم ، سورة البقرة ، آية ١١٣) ، أما الوثنيون فقد ظلوا فى ضلالهم يعبدون الأصنام وغيرها مما صنعته أيديهم .

وقد أدى اختلاف القبائل وتعدد المذاهب إلى ضعف وحدة شبه الجزيرة العربية ، كما كانت أطرافها لقمة سائغة فى أفواه المغيرين مما قوى من نفوذ الأكاسرة فى الحيرة وما حولها وظهر سلطان الروم فى الشام وبلاد الغساسنة بل ودخل الفرس اليمن ، وظلت اليمن مسرحاً للنزاع والقتال بين يهود حمير ونصارى الأحباش ومجوس فارس (١) .

ورغم التباين العقائدى الذى شهدته شبه الجزيرة قبل الإسلام ، فقد كان لمكة مكانة هامة لدى العرب جميعاً ، حيث كانت الكعبة ـ بيت الله الحرام ـ يحج إليه الناس من كل صوب كما ظلت مكة مركزاً تجارياً هاما يعمل أهلها بالتجارة وتقام فيها الأسواق خاصة فى موسم الحج، وتحمل إليها القوافل البضائع من بلاد الروم فى الشام ومن العراق خاصة الخمور والرقيق ، ورغم تلك المكانة الدينية التى كانت لمكة فى ذلك الوقت فإنها كانت أيضاً مباءة للفسق والفجور وتجارة الجوارى ولعب الميسر وشرب الخمر ، إضافة إلى عادة العرب القديمة فى وأد البنات وتعدد الزوجات دون شروط أو قيود .

أديان شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام :

شهدت شبه جزيرة العرب قبل الإسلام تباينا دينيا كبيراً بين قبائلها وسادت بها الوثنية واليهودية والمسيحية والزرادشتية وارتبطت هذه الأديان بقبيلة أو أكثر فى وسط الجزيرة وأطرافها .

---

(١) المرجع السابق – ص ٤٦.

(١) الوثنية :

كانت معظم قبائل شبه الجزيرة العربية وثنية قبل الإسلام تعبد أصناماً تسميها بنات الله وتتخذها زلفى إليه، وقد ادعى العرب أنهم على دين إبراهيم الخليل، وأنهم يعبدون هذه الأصنام للتقرب إلى الله، والواقع أنه لم يكن للعرب من ديانة إبراهيم الخليل غير بعض مناسك الحج، كما كانت عبادة الأصنام تتسم بطابع قبلي، حيث كان لكل قبيلة أو فخذ من قبيلة صنمها الخاص تأخذه معها في حلها وترحالها، كما كان معظم هذه الأصنام ممثلة في الكعبة بمكة، وقد وجد الرسول ﷺ يوم الفتح في مكة أكثر من ٣٦٠ صنماً . ومن هذه الأصنام اللات التي تعبدها قبيلة ثقيف والعزى التي تقدسها قريش وبعض القبائل الحجازية، وذو الكعبان وتعبده ديار بكر وتغلب، ومناة وكان يعبدها الكثيرون بين الأوس والخزرج وسكان المدينة وسعد وتعبده قبيلة جهينة، وهبل وتعبده بني بكر بن عبد مناف ومالك وملكان وسائر بطون كنانة، كما كانت كنانة تعبد اللات والعزى أيضا وهما إلهان من ألهة قريش، والواقع أن عرب الجاهلية كانوا يعظمون هذه المجموعة من الأصنام التي كانت قائمة في مكة، كما كان هبل يعتبر كبيراً لآلهة قريش وبقية العرب [١] .

وتدل هذه الأصنام على إنقسام سكان شبه جيزرة العرب إلى قبائل مستقلة الواحدة عن الأخرى، وكانت كل قبيلة تعتز بصنمها وتعتبره رمزاً لكرامتها وعزتها، كما لم تكن هذه القبائل على وفاق فيما بينها، فالبعض مستقر في القرى ومدن الواحات ويعمل بالزراعة، والبعض الآخر يشتغل بالرعي متنقلا وراء الكلأ والماء ، وكانت الخصومات تمزق الروابط بين

(١) راجع خريطة توزيع الأصنام في : حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للأعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧ ، خريطة رقم ٣٧ .

الحضر والبدو، كما كان البدو الرحل أنفسهم تنشأ بينهم نزاعات وخلافات شديدة تؤدى بهم إلى الاقتتال والحرب بسبب إغارة القبائل القوية على القبائل الضعيفة لاغتصاب ما لديهم من متاع .

(٢) الديانة اليهودية :

كانت الديانة اليهودية سائدة عند كثير من القبائل فى الحجاز واليمن وقد بلغ عددهم أكثر من ٢٠ قبيلة [١]، وأهم هذه القبائل خيبر والنضير والمصطلق وقريظة وقينقاع، وأشهر من اعتنق اليهودية من العرب ذو نواس الحميرى ملك اليمن والذى عمل على نشر اليهودية بين العرب فى اليمن .

(٣) الديانة المسيحية :

انتشرت المسيحية بين قبائل العرب التى سكنت بلاد الشام وشمال شبه جزيرة العرب ومن أكبرها كلب وبكر وتغلب وطيئ وبعض فروع قضاعة مثل جذام وبلى وبلقين . وأكبر القبائل المسيحية قبل الإسلام كانت غسان ومن تبعها من القبائل العربية التى كانت تسمى نصارى العرب أو عرب الروم .

وبالإضافة إلى ما سبق فقد انتشرت المسيحية فى بعض جهات الحجاز واليمن، وكان أكثر انتشارها فى بلاد نجران، ولم تخل مكة من معتنقى المسيحية، كما انتشرت فى بعض جهات إقليم الإحساء فى شرق شبه جزيرة العرب وبعض مناطقها الوسطى، ومما ساعد على انتشار المسيحية فى اليمن اتصالها بالحبشة المسيحية عن طريق باب المندب . [٢]

(١) أ ـ محمود طه أبو العلا، دراسات فى جغرافية العالم الإسلامى، القاهرة، ١٩٦١، ص ١٧ .
ب ـ Bernard Lewis, The Arabs in History, London, 1950, p. 31.
(٢) المرجع السابق، ص ١٧ .

(٤) الزرادشتية :

اعتنق هذه الديانة بعض سكان واحات إقليم الإحساء وخاصة واحة القطيف حيث وجدت آثار لمعابد معتنقى هذه الديانة. ولاشك أن انتشار هذه الديانة فى هذا الإقليم أمر طبيعى بسبب وقوعه تحت تأثير الفرس سياسيا وثقافيا فترة طويلة قبل ظهور الإســـلام وأثناء قوة الإمبراطورية الفارسية (١) .

قبائل شبه جزيرة العرب قبل الإسلام :

لعل من المفيد فى فهم الوضع البشرى لشبه جزيرة العرب قبل الإسلام الوقوف على توزيع القبائل ومنازلها، ويفيد كذلك فى تفسير ظاهرة السهولة النسبية فى فتح الشام وتعريبها بعد ذلك حيث يفسر توزيع قبائل العرب خاصة فى وسط وشمال الجزيرة العربية وبلاد الشام قبل البعثة المحمدية لماذا كان انتقال الخلافة الإسلامية إلى دمشق تطوراً طبيعياً، فقد انتقلت الخلافة بين الحجاز حيث كان السكان العرب قليلى العدد إلى بلاد الشام حيث كانت أعداد العرب أ:بر وموارد العيش والثروة أوسع فازدادت الخلافة قوة من الناحية السياسية والثروة، ولكنها فقدت معظم قوتها الدينية والمعنوية، فقد كان الحجاز بلد الأراضى المقدسة وموطن العرب الذين أقاموا أمة الإسلام، فى حين كان انتقال الخلافة بعد ذلك ـ أى بعد قيام الدولة العباسية إلى العراق عملاً سياسياً لا يتفق مع مستوى انتشار العربية فى ذلك العصر، وكانت النتيجة الإيجابية الواضحة وراء هذا النقل هى إكمال تعريب جنوب العراق ووسطه أما شماله فلم يتم تعريبه

---

(١) المرجع السابق، ص ١٨ .

إلا فى منتصف القرن الرابع الهجرى نتيجة قيام دولة عربية مثل الحمدانيين والمرداسيين والعقيليين (١) .

وقد عاش عرب شبه الجزيرة فى نمطين رئيسيين هما : الحضر والبدو، ويتمثل الحضر فى سكان المدن والقرى المستقرين مثل سكان مكة وسكان يثرب وسكان الطائف فى الحجاز وسكان صنعاء وزبيد فى اليمن واليمامة فى نجد وسكان جرا فى الإحساء . ويقيم هؤلاء الحضر المستقرون فى مساكن ثابتة مشيدة، عكس البدو المتنقلين وراء الكلأ فى هجرة فصلية بين الشتاء والصيف .

ويرتبط التوزيع القبلى لشبه الجزيرة العربية بما درج عليه الرواة من تقسيم أنساب العرب إلى طبقات تبدأ بالجذم أو الأصل، وتتفرع بعد ذلك إلى جماعات وشعوب وقبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وعشائر وفصائل ورهوط . والجذمان ـ أو الأصلان ـ الكبيران للعرب هما عدنان وقحطان، وينقسم جذم عدنان إلى شعبين هما ربيعة ومضر، وجذم قحطان إلى شعبين هما حمير وكهلان، وينقسم كل شعب من هذه الشعوب إلى قبائل عديدة أهمها :

(١) قبائل الحجاز :

وأهمها قبيلة قريش، ومساكنها مكة وما حولها، وسليم شرقى مكة والمدينة، وثقيف بين مكة والطائف (شكل رقم ٣).

(٢) قبائل نجد :

ومنها قبيلة تميم شرق نجد وغطفان فى وادى الرمة غربى نجد وحنيفة وتسكن اليمامة وما حولها، وكلب وتسكن شمال غربى نجد

(١) حسين مؤنس، المرجع السابق، ص ٩٩ .

وشمال الحجاز، وطيء وتسكن في جبلي أجا وسلمى وهوازن في غرب نجد ووسطها، وهذيل في جنوب غرب نجد قرب منازل ثقيف بالحجاز، وأسد جنوب شرق قبيلة طيء وبكر شمال شرق نجد (شكل رقم ٣).

(٣) قبائل الإحساء أو هجر :

وأهمها قبيلة عبد قيس، وتسكن البحرين والإحساء ، وبنو خالد شمال الإحساء، وتنوعح شمال الإحساء كذلك .

(٤) قبائل عسير :

وأبرز قبائلها قبيلة قحطان بين نجران وعسير، ومذحج شرقي عسير، كما يسكن بعض فروعها تهامة عسير، وكنانة في شمال عسير وأنمار في منطقة نجران .

(٥) قبائل اليمن :

ومن أبرزها قبيلة الأزد، وقد هاجرت بعض بطونها إلى عمان وجنوب الحجاز بعد تصدع سد مأرب، وهاجرت بطون أخرى إلى بلاد الشام، ثم قبيلة عسير ومساكنها جنوب وشرق اليمن، وقبيلة كندة وكانت تسكن المرتفعات الجنوبية الشرقية لليمن، وهاجرت بطونها إلى حضرموت، ولا تزال بطونها فيها وهاجرت بطون أخرى إلى نجد وكونوا إمارة لهم هناك، وقبيلة لخم وهاجرت إلى العراق غربي نهر الفرات وكونوا إمارة هناك عاصمتها الحيرة على بعد خمسة كيلو مترات من الكوفة . ثم قبيلة غسان وهي من بطون قبيلة الأزد وقد هاجرت إلى الشام واستقرت قرب نبع ماء اسمه غسان ولهذا أطلق على هؤلاء الأزد اسم هذا النبع، وكونوا لهم إمارة هناك عرفت باسمهم (إمارة الغساسنة) .

(٦) قبائل حضرموت :

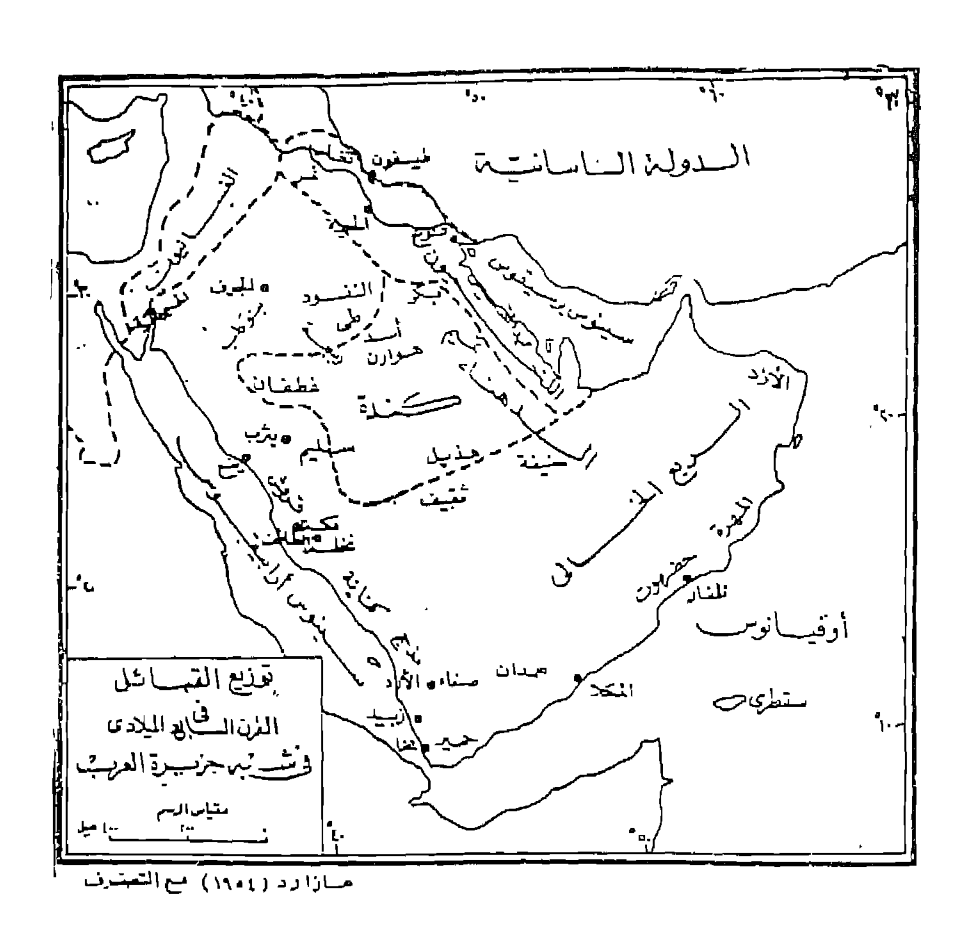
ومن أهمها قبيلة المهرة، وتقطن السهل الساحلي ومرتفعات حضرموت، وقبيلة حضرموت وهي التي أطلق اسمها على الأجزاء الجنوبية من شبه جزيرة العرب والتي تعرف الآن باسم حضرموت (١) .

وكانت القبيلة هي الوحدة السياسية عند العرب في الجاهلية، ذلك لأن القبيلة هي جماعة من الناس ينتمون إلى أصل واحد مشترك تجمعهم وحدة الجماعة وتربطهم رابطة العصبية للأهل والعشيرة، ومن ثم تبدو القبيلة دولة صغيرة باستثناء الأرض الثابتة التي تحدد منطقة نفوذها بسبب تنقلها الدائم وراء مصادر الماء والعشب .

وكانت هذه القبائل العديدة ببطونها وأفخاذها ـ تعيش حياة مستقلة ومتفرقة، كما كانت في صراع دائم أنهكها وأضعفها، إضافة إلى قلة موارد بيئاتهم وفقرها، وربما كان ذلك أحد عوامل ضعف مقاومتهم للإسلام عند ظهوره والذي سطع نوره في مكة والمدينة، وكان فتح مكة وخضوع قبيلة قريش للدعوة الإسلامية ـ بعد محاربتها الطويلة له ـ أثره الأكبر في حمل القبائل العربية الأخرى على الإسراع في قبول الدعوة الإسلامية، وتوالت وفودها إلى المدينة المنورة، ومن هذه القبائل قبيلة كندة وحنيفة وتميم والأزد والمهرة ومذحج وغيرها من القبائل، ولم تأت السنة العاشرة لهجرة المصطفى ﷺ إلا وكل القبائل في شبه جزيرة العرب قد دخلت الإسلام وتحولت لأول مرة في تاريخها إلى وحدة دينية وسياسية أخذت على عاتقها نشر الإسلام خارج حدودها، وبدأت منها الفتوح الإسلامية في آسيا وأفريقيا وأوربا (٢) .

(١) طه أبو العلا، المرجع السابق، ص ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) المرجع السابق، ص ٢٩ .



هازارد (١٩٥٤) مع التصرف

شكل رقم (٣)



الفصل الثانى
شبه جزيرة العرب وانتشار الإسلام

شاءت إرادة الله أن تكون أراضى الحجاز بموقعها الجغرافى المتميز مهداً للإسلام، وأن يختارها الله ليبعث فيها سيدنا محمد ﷺ برسالته التى يختم بها الرسالات والديانات السماوية، ومنها انطلقت الدعوة إلى الإسلام داخل شبه جزيرة العرب ثم إلى خارجها .

وقد أسهم موضع شبه جزيرة العرب فى تأكيد قيمة موقعها لخدمة انتشار الإسلام، فبيئتها صحراوية تتخللها الجبال والأودية، وسماؤها صافية مرصعة بالنجوم، ودعت هذه الظروف الطبيعية إنسان شبه الجزيرة إلى التأمل فى السموات والأرض والتفكر فى الخالق العظيم الذى يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل، والذى رفع السماء بلا عمد وزينها فما لها من فروج، ومدّ الأرض وألقى فيها رواسى وأنبت فيها من كل زوج بهيج، وقد كانت هذه الظروف الصحراوية دافعة لموجات من هجرات القبائل العربية قبل ظهور الإسلام، وهى هجرات توجهت نحو الأراضى الخصبة كثيرة الأمطار فى بلاد الشام والعراق واستقر بها المقام هناك حتى إذا جاء الإسلام كانت تلك القبائل العربية المهاجرة من مواطنها التى نزحت إليها رصيداً لدعوة الإسلام بما لها من علاقات القرب والجوار مع أصولها من قبائل شبه الجزيرة، فأعانت على انتشار الإسلام فى تلك الجهات وسائر الأطراف التى بلغتها والتمكين له فيها ثم الانطلاق منها إلى ما وراء هذه الأطراف .(١)

(١) أ ـ حسن صالح، البلدان الإسلامية، جامعة بن سعود، الرياض، ص ص ٤٨ ـ ٥٢ .
ب ـ جودة رهارون، المرجع السابق، ص ص ١٩ ـ ٤٨ .

وقد كان الموقع المتوسط لشبه جزيرة العرب فى العالم القديم عاملاً هاماً فى ربطها بالإقليم الموسمى فى أقصى الشرق وإقليم البحر المتوسط فى الشمال، وهما إقليمان متباينان فى الإنتاج الاقتصادى، واستغل العرب ذلك فى التجارة مستعينين بالجمل فى النقل خلال طرق القوافل عبر شبه الجزيرة بين الحجاز واليمن والخليج والشام والعراق، وهذه الطرق التى ألفها العرب وطالما سلكوها لنقل التجارة قبل الإسلام، غدت طرق الفتوح أمام دعاة الإسلام بعد ذلك .

وقد تميزت مكة بموقعها الذى ارتبط بطرق القوافل الآتية من اليمن حيث باب البحر الأحمر وبحر العرب وإلى بحر الهند ومن الخليج ومن بلاد الشام . وكانت لها مكانتها الدينية حيث وضع إبراهيم قواعد بيت الله الحرام ومعه اسماعيل جد رسول الإسلام عليهم جميعاً صلوات لله وسلامه، واسماعيل هو جد العرب أيضا، وهكذا تعددت العوامل لتدعيم شأن مكة وأهلها فى شبه الجزيرة، وشاءت إرادة الله أن يبعث خاتم المرسلين منها مما زادها رفعة ومكانة . وفى ضوء موقع مكة الوسط يمكن أن نفهم مسيرة رسالة الإسلام منها إلى شتى أنحاء شبه الجزيرة، وهجرة المسلمين منها إلى الحبشة حين اشتد إيذاء المشركين لهم، وهجرة الرسول ﷺ إلى يثرب حتى يجد ظروفاً أكثر ملائمة لنشر دعوة الإسلام وإقامة قاعدة له فى شبه الجزيرة العربية .

وقد حاول المشركون مواصلة حربهم للإسلام بعد هجرة رسوله إلى يثرب (التى صارت تدعى مدينة الرسول ﷺ أو المدينة) وبخاصة حين أدركوا أن المسلمين ماضون فى نشر دعوة الإسلام منطلقين من قاعدتهم فى المدينة، فدارت معارك بدر وأحد والأحزاب وغيرها حتى كان اتفاق

الحديبية ثم الفتح المبين لمكة، وفى أثناء هذا الصراع كان المسلمون يواصلون تدعيم بنيان دولة الإسلام المبكرة متخذين من هداه نبراساً ومن الإيمان والعدل أساساً، كما يواصلون دعوة غيرهم من القبائل فى شبه الجزيرة إلى الإسلام، أو إلى محالفة المسلمين على الأقل، وبلغت هيبة المسلمين إلى أطراف الشام فى الشمال حيث الدولة البيزنطية وفى الشرق حيث الفرس، وتحالف مع المسلمين قبائل عديدة مثل بنى عبس وبنى مرة وبنى ذبيان، وفزارة وأعقبها بنو سليم وبنو أشجع وغيرهم، حتى غدا المسلمون فى أواخر السنة الثامنة للهجرة أصحاب أكبر قوة سياسية فى المنطقة الممتدة من المدينة فيما يليها شمالاً بل وأكبر قوة فى شبه جزيرة العرب كلها .

وعندما نقضت قريش اتفاق الحديبية قرر الرسول ﷺ فتح مكة، وفى ٢١ من شهر رمضان من العام الثامن للهجرة تحرك جيش المسلمين نحو مكة وتقاسم مداخلها ونصر الله المسلمين وفتحوا مكة وجاء نصر الله والفتح ودخل الناس فى دين الله أفواجاً، وبلغ نور الإسلام فقد انطلقت بعد هجرته إلى وسط شبه الجزيرة العربية وشمالها وجنوبها وشرقها، إلى جانب من بعثهم ﷺ خارج شبه الجزيرة إلى قيصر الروم وكسرى فارس والمقوقس عظيم القبط بمصر ونجاشي الحبشة (١) .

وبعد وفاة الرسول ﷺ تمكن خليفته الأول أبو بكر الصديق ـ بإيمان وعزم ـ أن يثبت دولة الإسلام أمام انتفاضات المرتدين، ثم امتدت فتوح الإسلام إلى شمال شبه الجزيرة العربية فى الحيرة وسواء العراق وبلاد الشام، فى عهد أبى بكر الصديق، ثم واصلت الامتداد شرقاً وغرباً فى

(١) المرجع السابق، ص ٥٢ .

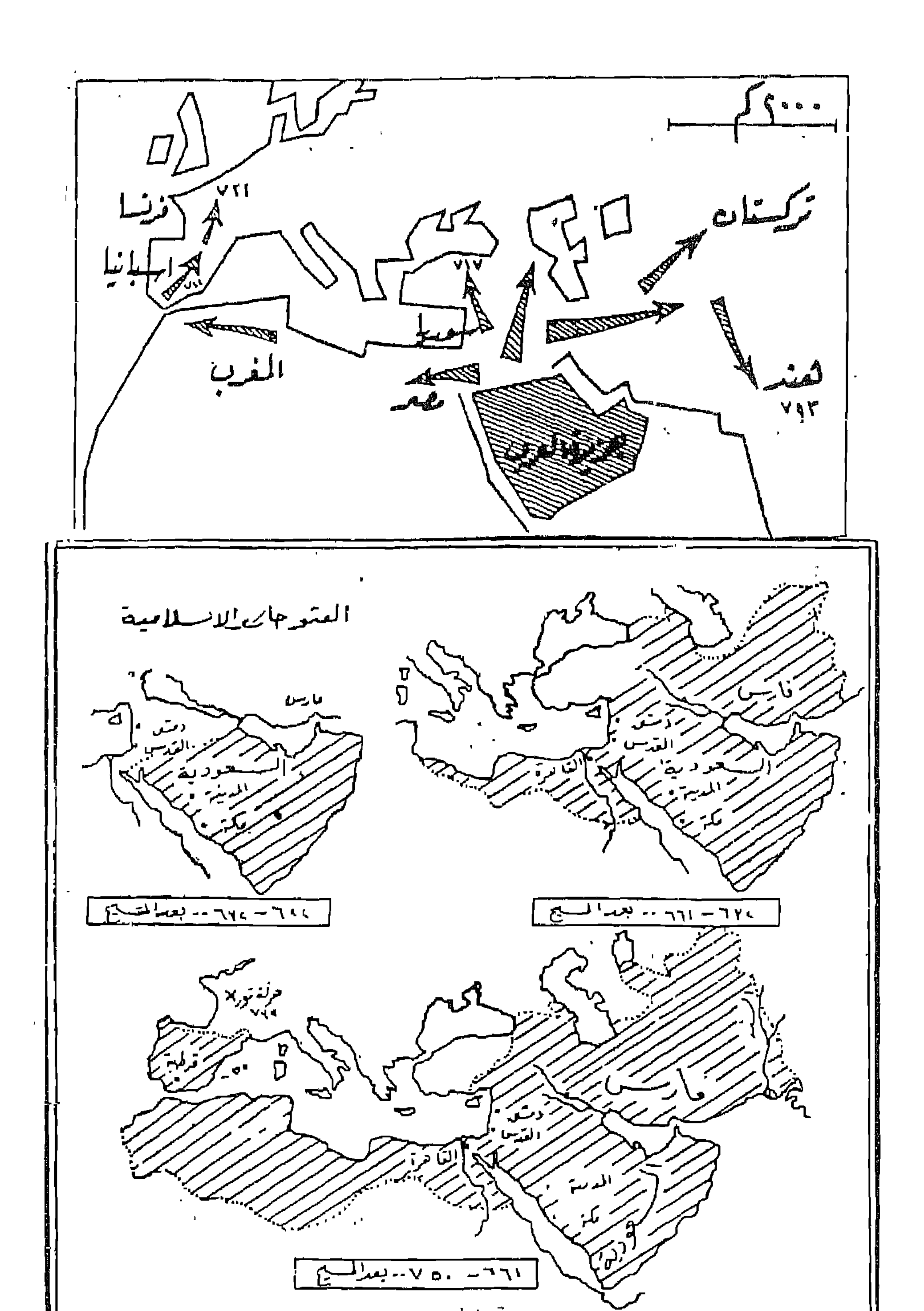
عهود خلفائه حتى قضى المسلمون على دولة الفرس واستولوا على كثير من أراضى دولة الروم وواصلوا فتوحاتهم فى شمال غرب أفريقيا والأندلس.

محاور انتشار الإسلام :

كانت الطرق التى سلكها التجار والوسطاء وتمرسوا عليها قبل ظهور الإسلام خير مساعد أمام المجاهدين والدعاة عند جهادهم فى سبيل الإسلام ورفع رايته، وقد أضاف ظهور الإسلام أبعاداً جديدة لتحركات العرب قبل الإسلام، فلم يعد الدافع لحركتهم اقتصاديا فقط بهدف الربح والنفع المادى، إنما أصبح الدافع دينياً ينبع من إيمان بالله ورسوله ومن منطق روحى تغذيه مثل عليا، وقد أكد هذا الدافع الدينى القيمة العظمى للاتصال بالعالم الخارجى، كما كان له دوره الهام كحافز من خلال طواعية التجمع الكبير من العرب المسلمين الذين حملوا راية الإسلام وسجلوا انتصاراته على الفرس والروم، كما يبدو من خلال الزحف السريع نحو أوربا، وشرق وجنوب شرق آسيا ونحو شمال أفريقيا (شكل رقم٤).

وقد اتجهت الدعوة الإسلامية التى انطلقت من شبه جزيرة العرب فى محاور نحو الشمال والشمال الشرقى والشمال الغربى والغرب، ففى مواجهة الفرس كان اتجاه الإسلام شرقا نحو العراق، ثم اتخذ المسلمون من جنوب العراق قاعدة لغزو السواحل الجنوبية لفارس، كما انطلق المسلمون منها شرقا خلال النصف الأول من القرن السابع الميلادى حتى وصلوا إلى حدود الهند والصين .

أما المحور الشمالى فكان نحو الشام وآسيا الصغرى بل وامتد حتى البلقان لمواجهة الروم كذلك اتجه العرب شمالا بغرب نحو شمال أفريقيا



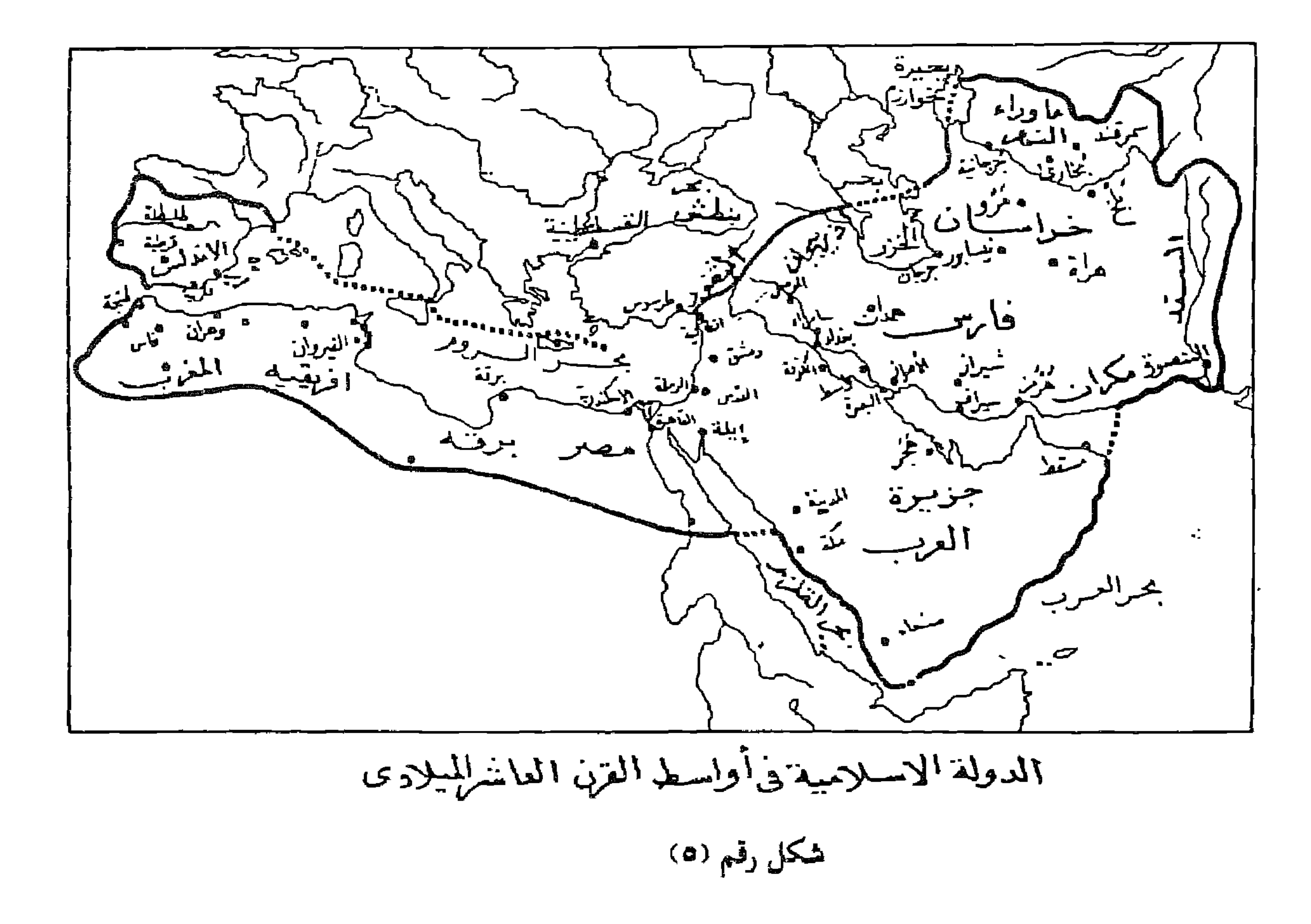
الفتوحات الإسلامية عن دزموند ستيوارت في كتابه العالم العربي « دار لايف ».

شكل رقم (٤)

لفتح مصر ـ المنفذ الرئيسى لهذا المحور والذى أتاح الفرصة لتوسيع قاعدة الدولة الإسلامية، كما مكن الإسلام من الإنتشار فى بقاع جديدة، وامتد هذا المحور نحو الغرب حتى كتب للمسلمين النصر فيه، وقد دعم هذا الفتح دولة الإسلام اقتصادياً وسياسياً، وقد وسع قاعدة الدولة على امتداد الجبهة الأفريقية المطلة على البحر المتوسط، وفتح هذا المحور الطريق أمام الوصول إلى أوربا عن طريق الغرب حيث انتهى بالسيطرة على أسبانيا، بل وانطلق عبر جبال البرانس حتى مشارف فرنسا، وساعد على السيطرة على بعض جزر البحر المتوسط (بحر الروم) .

وقد تميز انتشار الإسلام بسمتين رئيسيتين مختلفتين : إحداهما نتيجة لتحركات نشطة منظمة تحملت أعباءها الجيوش المحاربة فى إطار خطط عسكرية منظمة، وتوجيه مباشر من قبل قيادة الدولة الإسلامية، والأخرى كانت تتمثل فى توسع الإسلم ذاتياً، فهى نتيجة لتحركات تلقائية يحفز إليها السعى لانتشار الإسلام وتحمل مسئوليتها المسلمون من الدعاة والتجار، وهم يمارسون تجارتهم، ولذا كان انتشار الإسلام فى هذه المناطق فى مساحات واسعة وبصورة متفرقة أشبه بجزر صغيرة وسط محيط من غير المسلمين (شكل رقم ٥) .

وهنا يجدر القول أن انتشار الإسلام لم يكن منظما تقوم به جيوش محاربة بل كان من خلال اجتهاد تمليه مسئولية الدعوة التى يتحملها المسلمون جميعاً، وكانت التحركات إذن تلقائية بحافز السعى نحو انتشار الإسلام، ولم تكن من خلال خطط أو تنظيمات أو توجيه مباشر من سلطة أو تنظيم سياسى أو دينى فى الدولة الإسلامية بل نشره المسلمون وهم يحملون تجارتهم، ولذا كان انتشاره فى مساحات واسعة بصورة



الدولة الإسلامية في أواسط القرن العاشر الميلادي

شكل رقم (٥)

متفرقة بين من يعتنقون ديانات غير سماوية . (١)

وقد اجتذبت سواحل البحر المتوسط العرب الفاتحين بنفس القوة التى اجتذبت بها الأغريق والرومان والجرمان، وزادها قوة وحماساً عن هؤلاء تلك الرغبة القوية فى نشر الإسلام لتأمينه ضد الروم الذين كانوا يسيطرون على البحر المتوسط ويمثلون خطراً على الإسلام .

واستمر الاندفاع الإسلامى نحو سواحل البحر المتوسط بنشاط وقوة لم يتوقف إلا أمام العقبات المانعة التى استحال عليهم تخطيها ما يدل أن نشر الإسلام كان دافعاً قويا دفع المسلمين للسيطرة على سواحل البحر المتوسط والقبض على نواصيه من الشرق والغرب . فقد أتم العرب فتح مصر سنة ٦٤٢م باستيلائهم على الأسكندرية واستمروا مع الساحل نحو برقة عابرين صحراء واسعة ومعرضين لكثير من المخاطر حتى استولوا على برقة وتونس (أفريقية) ثم شقوا طريقهم فى صبر واحتمال على مدى سبعين عاماً حتى وصولوا إلى سبته سنة ٧٠٩م، ثم عبروا مضيق جبل طارق إلى الأندلس حتى وصلوا إلى جبال البرانس وساروا بعدها فى حماس وحمية حتى مصب نهر الرون حيث اتخذوا من بلدة ناربونه Narbona مركزاً لهم، ولم يتوقف التدفق الإسلامى إلا بعد هزيمة بلاط الشهداء فيما بين تور وبواتييه (جنوب فرنسا) عام ٧٣٢م. (٢)

والواقع أن محور شمال أفريقيا فتح الطريق إلى أوربا وانتهى بالسيطرة على أسبانيا وانطلق إلى مشارف فرنسا والسيطرة على بعض جزر البحر المتوسط، كما اتجه جنوباً متخذاً من الدروب والمسالك طرقاً فى مواجهة

(١) جوده وهارون، المرجع السابق، ص ٥٠ .

(٢) أ ـ حسين مؤنس : المسلمون فى حوضر البحر المتوسط، المجلة التاريخية، ١٩٥١ .

ب ـ جودة وهارون، المرجع السابق، ص ٥٢ .

الظروف الطبيعية القاسية عبر الصحراء ، واتخذ من وادى النيل طريقا نحو النوبة جنوب مصر، وغطى المسلمون بذلك مساحة كبيرة من الصحراء الكبرى وجبهة عريضة فى جنوبها تمتد من الغرب إلى الشرق، حيث تحققت للمسلمين فرصة العمل بالوساطة التجارية عبر الصحراء ، وتهيأت لهم فرصة استغلال موارد هذه المناطق والاستيطان بها مما ساعد على استمرار وتقوية الصلات بين هذ المناطق وبقية الدول الإسلامية .

وهكذا اندفع العرب من جزيرتهم بقوة خارقة حاملين رسالة الإسلام العالمية والتى لا تختص بمكان ﴿ وما أرسلناك إلا رحمةً للعالمين ﴾ (الأنبياء، الآية /١٠٧) ، وانتشروا فى القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوربا، ففى النصف الأول من القرن السابع الميلادى إلتهب العرب حماسة بالإسلام وبهرهم أمل الفتح فى سبيل الله فاندفعوا من جزيرتهم الجدباء كى ينتشروا من أسبانيا غرباً إلى الصين والهند شرقاً . وهذا الفتح إنما تم على أيدى عدد قليل من الرجال يتفق المؤرخون على أن عددهم لم يتجاوز المائتى ألف رجل بحيث لا يمكن تفسير هذا الفتح بعوامل مادية ودوافع اقتصادية بحتة، لأن هجرات العرب بالماضى لم تكن تتجاوز

نطاق الهلال الخصيب فى أطراف الشام والعراق، وهى الهجرات التى نجمت عن ضعف الموارد الإقتصادية فى جزيرة العرب وسنى القحط، أو تهدم بعض السدود فى اليمن مثل سد مأرب، وكانت دوافع هذه الهجرات مادية فى المقام الأول، أما دوافع الفتح الإسلامى فيما بعد، فقد كان نشر الدين الجديد وهداية البشر هما الرائد الأساسى والرسالة السامية لها .

وهكذا استولى العرب على بلاد الشام والعجم والعراق ومصر بسرعة

مذهلة، وكسبوا معركة (ذات الصوارى) البحرية ضد البيزنطيين سنة ٦٥٤م، وفتحو السند بقيادة محمد بن القاسم سنة ٧١٣م، والأندلس بقيادة طارق بن زياد عام ٧١١م، ووصلوا كاشفر فى التركستان الصينية عام ٧١٥م، وحاصروا القسطنطينية بزعامة الصحابى أبى أيوب الأنصارى سنة ٧١٧م واندفعت موجاتهم حتى بواتييه حيث جرت موقعة بلاط الشهداء سنة ٧٣٢م، وتمت هذه الفتوحات الإسلامية العظيمة كلها خلال قرن واحد من الزمن، كون العرب فى أعقابه دولة ضخمة مترامية الأطراف حدودها تخوم الهند فى الشرق والمحيط الأطلسى وجبال البرانس غرابًا وجبال القوقاز فى الشمال وصحارى أفريقيا والمحيط الهندى جنوبًا (شكل رقم ١) وافتخر بها الشعراء وقال أحدهم :

على أني بحمد الله — فى بيت من المجـــد

باخوانى بنى ساسان — أهل الجد والحـــد

لهم أرض خراســان — فقاشان إلى الهنـــد

إلى الروم إلى الــزنج — إلى البلغار والســـند

وبعد أن انتشر الإسلام فى شبه جزيرة العرب، أخذ نوره يشع خارج شبه الجزيرة وكان يحيط بها قبيل ظهور الإسلام ـ الدولة الفارسية والدولة البيزنطية من الشمال والشمال الشرقى والشمال الغربى، فاندفعت الجيوش العربية تمهد لنشر الإسلام فى البقاع التى تحكمها هاتان الدولتان، وبهذا انتشر الإسلام فى الهلال الخصيب وفى بلاد فارس حتى حدود الهند فى منتصف القرن السابع الميلادى، وفى بداية القرن الثامن دخل العرب فاتحين حوض نهر السند .

بهذا مهد الفتح العربى لانتشار الإسلام فى جنوب غربى أسيا، واستقرت بعض من بطون القبائل العربية فى هذه البلاد واختلطوا بأهلها وتزاوجوا معهم ففتح العرب قلوب الناس لنور الإسلام فأسلموا وآمنوا عن رضا واقتناع وليس عن خوف أو كره بسبب الحرب، لأن الفتح لم يكره الناس على اعتناق الإسلام ولكنه فتح الطريق أمام العرب لينشروا مبرشين بما آمنوا به .

حدود الدولة الإسلامية

ما أن انتصف القرن الثالث الهجرى حتى كانت دولة الإسلام دولة مترامية الأطراف تمتد من المحيط الأطلنطى غرباً حتى بلاد السند وما وراء النهر شرقاً وتشغل أراضى فسيحة من قارات العالم القديم الثلاث، تتباين فى سهولها ووديانها وصحاريها وجبالها، وتتميز بها نقاط محددة تشد إليها الرحال مثل المسجد الحرام بمكة المكرمة ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة والمسجد الأقصى ببيت المقدس الشريف، وكانت فتوح المسلمين فى تلك البقاع لإعلاء كلمة لله ونشر الإسلام، وأصبحت نظرة الدعوة الإسلامية للأرض عالمية تتعاطف مع كل سلالات البشر ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ سبأ / ٢٨ .

والواقع أن المسلمين الأوائل كانوا ينظرون إلى دولة الإسلام على أنها وحدة لا تفرقها حواجز طبيعية أو حدود أقسام سياسية وتجلى ذلك فى المؤلفات الجغرافية التى عبرت عن (وحدة دار الإسلام) كما جاء عن المقدسى الذى كتب فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى (حوالى ٣٧٥هـ/٩٨٥م) كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » .

وقد انقسمت دار الإسلام منذ أمد إلى عدة كيانات سياسية متنازعة

أحياناً أو كتب الاصطخرى المعروف بالكرخى المتوفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى (أواسط القرن ١٠ الميلادى) كتابه « المسالك والممالك » وتحدث فيه عن أطراف أراضى الإسلام فى (ما وراء النهر) فيصور من سماحتهم وكريم ضيافتهم للوافد إليهم ما يبدو خير تعبير عن وحدة الأمة الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها .

وربما تبدو حدود دولة الإسلام واضحة فيما كتبه الاصطخرى الذى يقول فى مقدمة كتابه (ففصلت بلاد الإسلام عشرين إقليماً، وابتدأت بديار العرب فجعلتها إقليما لأن فيها الكعبة ومكة وأم القرى وهى واسطة هذه الأقاليم، ثم اتبعت ديار العرب ببحر فارس (الخليج) لأنه يكتنف أكثر ديار العرب، ثم ذكرت المغرب حتى انتهيت إلى مصر فذكرتها، ثم ذكرت الشام ثم بحر الروم ثم الجزيرة ثم العراق ثم خوزستان ثم فارس ثم كرمان، ثم المنصورة وما يتصل بها من بلاد السند والهند والإسلام، ثم أذربيجان وما يتصل بها، ثم كور الجبال ثم الديلم ثم بحر الخزر ثم المفازة التى بين فارس وخراسان ثم سجستان وما يتصل بها ثم خراسان ثم ما وراء النهر). [١]

وهكذا يبدو أن حدود الدولة الإسلامية فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة هى حدود الأراضى التى فتحها المسلمون سواء فى المشرق أو فى المغرب، ويمكن تحديدها ـ بصورة تقريبية على أنها مناطق تخوم ـ وليست حدوداً صارمة كالحدود السياسية التى نعرفها اليوم وتميزت بعدة صفات أبرزها أن الصحارى والجبال لعبت دوراً كبيراً فى تحديدها سواء فى الأقاليم الإسلامية الأفريقية أو فى أسيا، بالإضافة إلى وجود مناطق حدودية انتقالية أنشأ فيها المسلمون ثغوراً ـ تحصينات) دفاعية لحماية دار الإسلام وأبرزها منطقة الثغور فى جنوب شرق هضبة الأناضول بين المسلمين والروم ومنطقة الثغور فى شمال الأندلس بين المسلمين والقوط (شكل رقم ٦).

---

(١) الاصطخرى ، المسالك والممالك ، ص ١٥ ـ ١٦ .

شكل رقم (٦)



الفصل الثالث
الأقاليم الجغرافية في دولة الإسلام

سبق القول أن دولة الإسلام الموحدة امتدت على خريطة العالم القديم امتداداً كبيراً حتى منتصف القرن الثالث الهجرى، فوصلت حدودها إلى أقصى الشرق حتى نهر السند وتخوم شمال غرب الهند، ونحو الشمال إلى أراضى ما وراء النهر أو صحارى وسط أسيا وشرق الأناضول ونحو المغرب ترامت أطرافها حتى وصلت إلى المحيط الأطلنطى (بحر الظلمات) وضمت الأندلس حتى حدوده الشمالية عند جبال البرانس (البرت).

وقد ضمت دولة الإسلام الموحدة أقاليم جغرافية عديدة فى هذا الامتداد العظيم من الشرق للغرب، واحتوت تباينات جغرافية عديدة، ففيها مساحات ضخمة من الأراضى السهلية والأراضية الجبلية والهضاب، كما أن معظمها صحراوى وعلى أطرافها الشمالية والشمالية الغربية أراضى ذات أمطار شتوية فى نطاق حوض البحر المتوسط إضافة إلى ذلك كله تسود فى أراضى دولة الإسلام أحواض نهرية كبرى مثل حوض الدجلة والفرات وحوض النيل الأدنى فى نطاق القلب الأفرو أسيوى، وسرداريا وأموداريا والسند شرقا وأنهار المغرب والأندلس غرباً.

وقد قسم الجغرافيون المسلمون القدامى دولة الإسلام إلى أقاليم جغرافية شبه متميزة، وربما كان تقسيم المقدسى فى منتصف القرن الرابع الهجرى أحسن التقاسيم فى الوقوف على تلك الأقاليم.[1] وقد وصف دولة الإسلام بقوله: « اعلم أن مملكة الإسلام حرسها الله ليست بمستوية فيمكن أن توصف بتربيع أو طول أوعرض وإنما متشعبة يعرف ذلك من

(١) المقدسى المعروف بالبشارى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، طبع ليدن، ١٩٠٦، ص ٦٢ ـ ٦٣.

تأمل مصالح الشمس ومغاربها...، الشمس تغرب فى حافة بلد المغرب ويرونها تنزل فى البحر المحيط (المحيط الأطلنطى) وكذلك أهل الشام يرونها تغيب فى بحر الروم (البحر المتوسط) وإقليم مصر يأخذ من البحر الرومى طولا إلى بلد النوبة ويقع بين بحر القلزم (البحر الأحمر) وتخوم المغرب، ويمتد المغرب من تخوم مصر إلى البحر المحيط مثل الشريطة يضغطه من قبل الشمال بحر الروم ومن قبل الجنوب بلدان السودان، ويعد إقليم الشام من تخوم مصر نحو الشمال إلى بلد الروم فيقع بين بحر الروم وبادية العرب، ويتصل البادل وبعض الشام بجزيرة العرب، ويدور على الجزيرة بحر الصين إلى عبادان من أرض مصر، ويتصل أرض العراق بالبادية وبعض الجزيرة، ويتصل بتخوم العراق الشمالية إقليم أقور فيمتد إلى بلد الروم وقد تقوس عليه الفرات من نحو الغرب ووقع خلف الفترات بقية البادية وطرف من الشام فهذه أقاليم العرب. ووقعت خوزستان والجبال على تخوم العراق الشرقية، وطائفة من الجبال وإقليم الرحاب على تخوم أقور الشرقية، ووقعت فارس وكرمان والسند خلف خوزستان على صف واحد البحر كنويها والمفازة وخراسان شماليها. وتاخمت السند وخراسان من قبل الشرق بلدان الكفر وتاخمت الرحاب بلد الروم من قبل الغرب والشمال، ووقع إقليم الديلم بين الرحاب والجبال والمفازة وخراسان... فهذه مملكة الإسلام فتدبرها..» (١)

وقد اقتصر المقدسى فى تقسيمه لأقاليم دولة الإسلام على البلاد التى زارها وهى الأقاليم الأربعة عشر، العربية منها ستة هى : جزيرة العرب، والعراق، وأقور، والشام، ومصر، والمغرب، والباقية أقاليم العجم وهى المشرق، والديلم، والرحاب، والجبال، وخوزستان، وفارس، وكرمان،

---

(١) المقدسى، المرجع السابق، ص ٤٧ .

والسند، ولم يعرض للأندلس لأنه لم يزرها (١).

وقد يكون من المفيد أن نورد وصفا موجزاً لخصائص الأقاليم عند المقدسى الذى يقول : « أظرف الأقاليم العراق وهو أخف على القلب وأحد للذهن وبها تكون النفس أطيب والخاطر أدق إذا كانت كافية. وأجلها وأوسعها فواكه وأكثرها علماً وأجله وبرداً المشرق. وأكثرها صوفاً وقزاً ودخلا على قدره الديلم. وأجودها ألباناً وأعسالاً وألذها أخبازاً وأمكنها زعفرانا الجبال. وأكثرها ثماراً وأرخصها أسعاراً ولحوماً وأثقلها قوماً الرحاب. وأسفلها قوماً وأشرهم أصلا وفصلا خوزستان. وأحلاها تموراً وأوطأها قوما كرمان. وأكثرها فانيذا وأرزازاً ومسكا وكفاراً السند. وأكيسها قوماً وتجاراً وأكثرها فسقاً فارس. وأشدها حراً وقحطا ونخيلا جزيرة العرب. وأكثرها بركات وصالحين وزهاداً ومشاهد الشام. وأكثرها عباداً وقراءاً وأموالا ومتجراً وخصائص وحبوبا مصر. وأخوفها سبيلا وأجودها خيلا وأوسطها قوة أقور. وأجفاها وأثقلها وأغشها قوما وأكثرها مدنا وأوسعها أرضاً المغرب » . (٢)

وعلى أية حال فإنه يمكن تقسيم دولة الإسلام إلى تسعة أقاليم جغرافية بدءاً من منطقة القلب نحو الأطراف وهى : شبه جزيرة العرب، والعراق، وفارس، والسند وخراسان، وإقليم ما وراء النهر، وبلاد الشام، ومصر، والمغرب، والأندلس، (شكل رقم ٦) .

أولا ـ إقليم شبه جزيرة العرب :

تكون شبه جزيرة العرب وحدة جغرافية متجانسة فى جنوب غرب أسيا، وتقع بين البحر الأحمر غرباً والبحر العربى وخليج عدن جنوباً،

(١) المقدسى، المصدر السابق، ص ص ٣٢ ـ ٣٣.

وخليج عمان والخليج العربي شرقا، وقد عرفها الجغرافيون العرب القدامى باسم « جزيرة العرب» ووصلوا بحدودها شمالاً حتى نهر الفرات فيقول الهمداني في كتابه « صفة جزيرة العرب » :

« وإنما سميت جزيرة لإحاطة الأنهار والبحار بها من جميع أقطارها وأطرافها، فصاروا منها في مثل الجزيرة من جزائر البحر[1] .

وقد أدى موقع شبه جزيرة العرب إلى سهولة اتصالها بالأقاليم المجاورة، فقد اتصلت بشمال أفريقيا عن طريق شبه جزيرة سيناء، وبشرق إفريقيا عن طريق باب المندب (اتساعه حوالي ٢٢ كيلو متراً)، وبالدول الواقعة إلى الشرق منها عن طريق البحر، إضافة إلى اتصالها الأرضي المباشر بأراضي الرافدين في الشمال الشرقي وبلاد الشام في الشمال والشمال الغربي.

وقد تأثرت شخصية شبه جزيرة العرب بالبيئة الطبيعية تأثراً واضحاً، ويبدو ذلك في جوانب الحياة المادية والثقافية لسكانها، فقد أدت طبيعة التضاريس وندرة الموارد المائية والحياة النباتية إلى عيش القبائل منفصلة عن بعضها البعض في بيئة صحراوية قطعت أوصالها أودية وانكسارات أخدودية، وتشتغل تلك القبائل بالرعي وترتحل وراء المرعى والماء، أما إذا توفرت المياة سواء من الأمطار أو من المياه الجوفية كما في اليمن وبعض أجزاء عمان وحضرموت وفي واحات بقية شبه الجزيرة فتمارس القبائل الزراعة وتستقر أيضا في مناطق منعزلة عن غيرها، وبمرور الزمن أصبحت قبائل البادية الرعوية ذات نمط فكري وحضاري خاص بها يتباين عن نمط الحياة لدى القبائل المستقرة التي تحترف الزراعة، بل واستحكم العداء بين القبائل الرعوية والقبائل المستقرة وتأصل الشعور بالانفصال بينها وسادت الفرقة بشكل ليس له مثيل في الأقاليم المجاورة [2] .

(١) عن محمود أبو العلا، جغرافية شبه جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١١.

(٢) أبو العلا، المرجع السابق، ص ٢٠.

وشبه جزيرة العرب متباينة فى مظاهر السطح بها، فيصل سطحها إلى أقصى ارتفاع له فى الجنوب والغرب، بينما ينحدر نحو الشمال والشرق، كما تمتد المرتفعات موازية للسواحل الجنوبية والغربية والجنوبية الشرقية فتفصل السهول الساحلية الضيقة عن بقية شبه الجزيرة، كذلك تمتد نطاقات رملية واسعة فى الجنوب (الربع الخالى) وفى الشمال (النفود الكبير) ، وفيما بينها تمتد كثبان رملية متوازية من الغرب إلى الشرق تفصل بينها خامات صخرية بارزة أهمها جبل طويق.

وعموماً يمكن تقسيم شبه جزيرة العرب إلى أقسام تضاريسية هى :

١ ـ سهول تهامة :

وهى تمتل بمحاذاة ساحل البحر الأحمر من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ويختلف اتساعها من مكان لآخر، فقد تضيق هذه السهول حتى تطل مباشرة على البحر، وقد تتسع لتصل إلى نحو ٤٠ كيلو متراً. وهى سهول رملية وخصومة تجرى بها وديان قصيرة تفيض بالمياة عقب سقوط الأمطار وتنتهى إلى البحر الأحمر.

٢ ـ المرتفعات الغربية :

وتمتد من رأس خليج العقبة حتى خليج عدن، وتعرف فى قسمها الشمالى بمرتفعات الحجاز أو مرتفعات السراة ـ والتى تتكون من عدة سلاسل جبلية تتخللها وديان طولية. وتصل هذه المرتفاعات إلى ما يزيد على ٣٠٠٠ متر فى كثير من الأحيان، وتصل إلى ارتفاع ٢٥٠٠ متر بالقرب من مكة وإلى ٢٠٠٠ متر بالقرب من المدينة، وعلى الجانب الشرقى لهذه المرتفعات يوجد خط من الواحات مثل تبوك ومدائن صالح والعلا وخيبر والمدينة حيث ظهر منذ القدم طريق للقوافل يربط الشمال

بالجنوب، وقام سكان هذا الإقليم نظراً لموقعه المتوسط ـ بدور الناقل والوساطة التجارية ـ على هذاالطريق، ومنذ ظهور الإسلام أصبح الحج مورداً رئيسياً للسكان بل وأصبح هو موسم النشاط الاقتصادى لديهم وتعاظم دور مكة المكرمة والمدينة المنورة، وكذلك ميناء جدة على البحر الأحمر.

وإلى الجنوب من مرتفعات الحجاز تمتد مرتفعات عسير فى أطراف المنطقة التيتهب عليها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية، ولذلك كانت أكثر مطراً ووديانها أكثر عدداً من وديان تهامة الحجاز، ومن ثم تكثر بها مراكز الاستيطان البشرى.

أما مرتفعات اليمن فهى أعلى جبال شبه جزيرة العرب (يصل إرتفاع قمة النبى شعيب غرب صنعاء إلى ٣٦٧٠ متراً) وتنحدر تدريجياً نحو الشرق ويزداد انحدارها نحو الغرب إلى السهل الساحلى أوتهامة اليمن حيث تكثر السبخات والمستنقعات بجوار ساحل البحر الأحمر. أما إلى الشرق فتمتد الوديان حتى تنتهى فى رمال صحراء الربع الخالى.

٣ ـ السهول والمرتفعات الجنوبية :

وتنحدر من الغرب إلى الشرق حتى تنتهى عند البحر العربى، وأهم أوديتها وادى حضرموت الموازى للبحر العربى لمسافة تصل إلى ٣٦٠ كم ثم ينحدر فجأة إلى الجنوب الشرقى ليصب فى البحر، وكان لموقع هذا الإقليم فى جنوب شبه الجزيرة مطلا على المحيط الهندى أثره فى غلاته الزراعية التى تشبه غلات شرق أفريقيا إلى حد كبير. ويشتهر بغلتين من قديم الزمان هما المر واللبان حيث تنمو أشجارها على السفوح الرطبة.

٤ ـ مرتفعات عمان :

وتقع في أقصى جنوب شرق شبه جزيرة العرب، وتعتبر عمان في شبه عزلة طبيعية عن باقي شبه الجزيرة حيث تفصلها عنها صحراء الربع الخالي. وتمتد هذه المرتفعات موازية لساحل خليج عمان من رأس مسندم في الشمال حتى ساحل بحر العرب في الجنوب، وأعلى أجزائها الجبل الأخضر الذى يزيد على ٣٠٠٠ متر أما السهل الساحلي فيعرف بسهل الباطنة وهو يمثل القلب الزراعى لعمان.

٥ ـ قلب شبه جزيرة العرب :

وهو هضبة منبسطة تنتهى شمالا إلى بادية الشام، وتنقسم إلى قسمين كبيرين هما :

أ ـ النفوذ والدهناء والربع الخالي : وهى مسطحات صحراوية شاسعة ذات رمال كثيفة صعبة المرور، ويتبعثر بها بعض الواحات في الشمال والوسط.

ب ـ هضبة نجد :

وهى تتنوع في سطحها من هضاب إلى حافات إلى أودية وأهمها وادى الرمة ووادى حنيفة ووادى الدواسر. وتقوم في نجد حياة رعوية إلى جانب الزراعة عند نهايات الأودية أو تقاطعها. ففي الشمال توجد واحة الجوف (دومة الجندل) عند نهاية وادى سرحان الذى يؤدى إلى بلاد الشام وتتبعه قبائل شمر في تجوالها، وحائل التى تقع في منتصف الطريق بين بغداد ومكة. وعلى جانبي وادى الرمة عند التقائه بصحراء النفود تظهر واحتا بريدة وعنيزة على طريق القوافل المتجه إلى العراق.

ومناخ شبه جزيرة العرب صحراوى، باستثناء الركن الجنوبى الغربى،

وترتفع درجة الحرار صيفا حتى يبلغ متوسطها نحو ٤٦ْ مئوية كما تنخفض درجة الحرارة شتاء وخاصة بالليل إلى درجة التجمد، وتهب الرياح المتذائبة (وهكذا يسمى العرب الرياح التى تغير اتجاهها بين وقت وآخر نتيجة لمرور الانخفاضات الجوية ـ بالمتذائبة لأنها تفعل معهم فعل الذئب إذ تأتيهم من جهات مختلفة) حاملة معها الرمال التى تضر بالإنسان والحيوان.(١)

أما الأمطار فيتراوح مقدارها بين بوصتين وأربع بوصات فى معظم شبه الجزيرة عدا الجنوب الغربى (اليمن) والجنوب الشرقى (عمان) حيث تتراوح أمطارهما بين ١٠ ـ ٢٥ بوصلة وهذا المطر القليل هو مصدر الحياة فى الصحراء .

بدو شبه جزيرة العرب :

ترجع قبائل شبه جزيرة العرب إلى أصول عدة، فمنهم من كان يعيش فى أرض خصبة فى الشمال ثم دفعوا إلى الجنوب بواسطة قبائل أخرى، ومنهم من كان يعيش فى اليمن ثم تركها بعد انهيار سد مأرب فى القرن الخامس بعد الميلاد. وعموماً فقد كيفت هذه القبائل حياتها مع بيئة الرعى والهجرات الفصلية. وقد لعب بدو شبه الجزيرة دوراً كبيراً حفظه لهم التاريخ وخلدوا به بلادهم وهو نشر الإسلام والعربية على مساحة ضخمة من سطح الأرض.

وينقسم البدو فيما بينهم إلى أكثر من قسم، فعلى رأسهم عرب البادية وهؤلاء هم الذين يعيشون متجولين فى الصحراء لمدة قد تصل إلى تسعة شهور، يربون الإبل حيواناً رئيسياً، ويتزوجون داخليا، وينظرون نظرة دنيا إلى

(١) أبو العلا، المصدر السابق، ص ١٩.

ما عداهم [1]، والطبقة الأعلى من هؤلاء هي طبقة الأشراف الذين يعتقدون أنهم من سلالة إسماعيل، ومنهم مطير وعجمان، وظافر، ومرة والدواسر والمناصير، والقواسم والحويطات والعوازم، ومن قبائل البادية أيضا عنيزة في شمال شبه الجزيرة، وشمر في شمال نجد، وحرب في الحجاز. والمجموعة الثانية التي تعيش في مستوى أقل من عرب البادية من حيث التجوال يطلق عليهم عرب دار، وهم أشباه البدو لأنهم فقدوا المنزلة الاجتماعية لقبائل البادية نتيجة استقرارهم في المدن بعض الوقت وهناك طبقة رعاة الأغنام وهي أقل مرتبة من عرب البادية لأنهم يرعون الأغنام فقط للقبائل الكبرى أو للمستقرين في الواحات. أما الرابعة والأخيرة فهي طبقة العرب المستقرين سواء في منازل من الحجر أو من الطين، وينظر إليهم عرب البادية نظرة احتقار لأنهم لا يتجولون ولا يرعون الإبل ولكل قبيلة من القبائل الآبار الخاصة بها والتي تعسكر حولها في فصل الصيف، أي فصل الجفاف، وما أن يأتي فصل المطر حتى تترك هذه المنطقة وتتجه في رحلات بعيدة، وتعرف مراعي القبيلة باسم الديار التي تمتد لمسافة تتراوح بين ٣٠٠ ـ ٦٠٠ كيلو متراً، وفي السنين العجاف تستضيف القبائل بعضها بعضا، ومن ثم يشيع نظام المصاهرة ونظام الأحلاف الذي يمثل تكافلا اقتصاديا بين القبائل وقت الشدة كما كانت له وظيفة دفاعية أخرى ضد القبائل المعادية. [2]

ثانيا ـ إقليم العراق :

تقع أراضي العراق شمال شرق شبه جزيرة العرب، ويجري بها النهران العظيمان دجلة والفرات حيث كانت سهولهما الفيضية مهداً من مهاد

(١) في تفضيل البداوة على الحضارة يقول المتنبي:

حسن الحضارة مجلوب بتطرية وفي البداوة حسن غير مجلوب

(٢) محمد سعودي، الوطن العربي، دار النهضة، بيروت، ١٩٦٧، ص ٢٦٧، عن :

الحضارات القديمة التي ازدهرت منذ نحو ستة وأربعين قرناً قبل الهجرة، فقد نشأت في القسم الشمالي وتطورت مملكة آشور التي اتخذت من مدينة نينوى القديمة قرب الموصل عاصمة لها، كما قامت مملكة البابليين في السهول الجنوبية وعاصمتها بابل القديمة قرب بلدة الحلة الحالية.

وقد وصف المقدسي إقليم العراق في القرن الرابع الهجري وصفاً شيقاً فقال: « هذا إقليم الظرفا، ومنبع العلماء، لطيف الماء، عجيب الهواء، ومختار الخلفاء، أليس به البصرة التي قوبلت بالدنيا، وبغداد الممدوحة في الورى، والكوفة الجليلة وسامرا، ونهره من الجنة بلامرا، وتمور البصرة فلا تنسى، ومفاخره كثيرة لا تحصى، وبحر الصين يمس طرفه الأقصى، والبادية إلى جانبه كما ترى، والفرات بقرب من حيث جرى، غيرأنه بيت الفتن والغلا، وهو في كل يوم إلى وراء، ومن الجور والضرائب في جهد بلا، مع ثمار قليلة، وفواحش كثيرة، ومؤن ثقيلة، وهذا شكله ومثاله والله أعلم وأحكم ». (١)

وتنقسم أراضي العراق ـ كما عرفها المسلمون الأوائل إلى ثلاثة أقسام هي: أرض المواد (أو إقليم السهل الرسوبي الفيضي) ثم أرض البادية (أو الإقليم الصحراوي الهضبي غرب نهر الفرات)، ثم أرض الجزيرة، أما إقليم المرتفعات الشمالية الشرقية، أو إقليم كردستان على طول امتداد الحدود الشمالية للعراق مع شرق هضبة أرمينيا فيمثل جزءاً من إقليم أقور الذي يمتد حتى بلاد الروم. ويكون العرب معظم سكان العراق، ويتركزون في السهل والصحراء أما الأكراد فيمثلون سكان الجبال وذلك بالإضافة إلى بعض الأقليات الأخرى مثل السريان والكلدان.

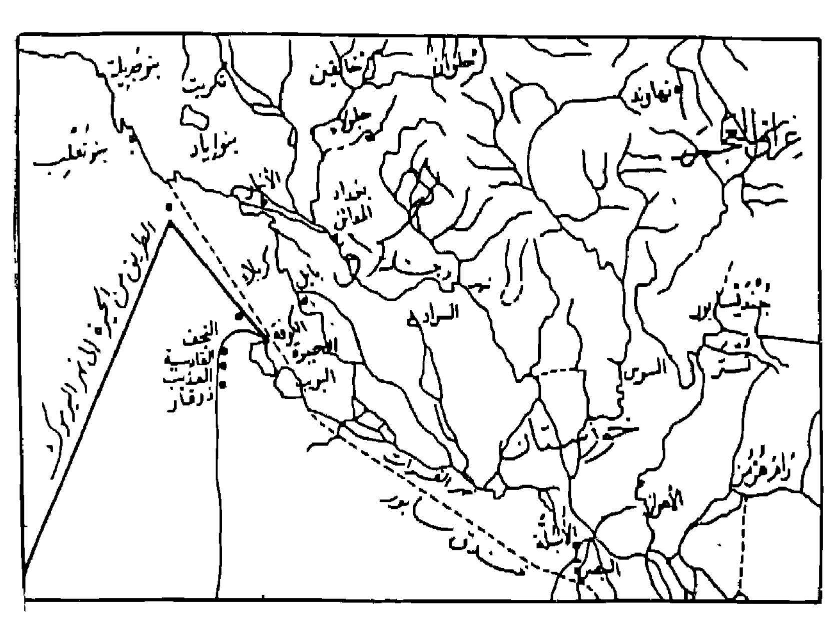
---

(١) المقدسي، ص ١١٣.

(١) السهل الرسوبى :

ويقع فى وسط وجنوب العراق، ويحيط بنهرى دجلة والفرات، ويمكن تحديده من الشمال بخط يمر بمدينة سامرا على نهر دجلة وبمدينة الرمادى على نهر الفرات، ويتراوح ارتفاع هذا السهل بين مستوى سطح البحر (صفر) وبين ١٠٠ متر، فمدينة بغداد مثلا لا يزيد ارتفاعها على ٣٢ متراً فوق مستوى سطح البحر، ويرجع تكوين هذا السهل الرسوبى إلى ما حمله نهرا دجلة والفرات من إرسابات، غير أن هذه الإرسابات لم تكن متساوية فى توزيعها مما أدى إلى ظهور منخفضات تغطيها بحيرات ومستنقعات (أهوار) . وتكثر هذه المستنقعات فى الجنوب حيث تتعدد فروع الأنهار لانبساط السطح وقلة الانحدار ويترتب على ذلك فقدان كميات كبيرة من مياة الأنهار فى هذه المستنقعات(شكل رقم٧) .

وقد أطلق العرب على هذا السهل الرسوبى إسم (سواد العراق) وذلك لكثرة مزروعاته، وفى وسط هذا السهل تتقابل الطرق الشرقية الغربية بالطرق الشمالية الجنوبية عبر الصحراء وعبر الوادى. وتقع بغداد على نهر دجلة قبل مصب نهر دبالى بعدة كيلو مترات وفى وسط الأرض السهلية حيث يقترب دجلة والفرات من بعضهما، وحيث تقل مساحة المستنقعات، فتصبح المنطقة أفضل مكان للعبور بين البحر المتوسط (بحر الروم) عبر الاستبس إلى إيران فموقع بغداد إذن مركزي عقدى، وإلى الشمال منها منطقة الزراعة على الأمطار وإلى الجنوب منطقة الزراعة على الرى، ولذلك ليس بغريب أن تقوم هذه المنطقة (وإن لم يكن فى موقع بغداد ذاتها نتيجة تغير الظروف المحلية ـ تقوم أكثر من مدينة منذ العصور القديمة، قامت بابل القديمة التى كانت أقرب إلى الفرات وتقع على بعد



خريطة العراق القديم ، وقد ظهر فيها موقع القادسية

شكل رقم (٧)

١٠ كيلو متراً من بغداد، ثم تيسفون (مدائن كسرى) في عهد الدولة الساسانية، وتقع على بعد كيلو مترات قليلة من بغداد الحالية، وقد ظلت المدائن هي المركز والنواة حتى ظهرت بغداد في القرن الثامن الميلادى فوضعتها في منطقة الظل.(١)

وفى جنوب السهل الرسوبى تقع البصرة وكانت هى وضاحيتها (الأبلة) مركز قيادة تجارة العرب البحرية والبحرية، وكانت تجارة البصرة تصل الصين شرقا وإلى الحبشة وأقصى بلاد المغرب غربا، حتى أن السفن التى كانت ترسو فى مينائها محملة بأصناف التجارة كل عام كانت تعد بعشرات الآلاف، كما كانت القوافل تنيخ عند البوابة الغربية للمدينة فى مكان يدعى (المربد) ازدهرت فيه الحياة فأصبح مركزاً تجارياً هاماً.(٢)

٢ ـ إقليم البادية :

ويتمثل فى صحراء غرب العراق، والتى عبرتها جحافل المسلمين فى فتوحاتهم المبكرة وهى تعد جزءاً من بادية الشام، وتنحدر نحو وادى الفرات، وتخترقها كثير من الوديان الصحراوية المتجهة نحو الفرات، وهى وإن كانت لا تغذى نهر الفرات بكميات وفيرة من المياة إلا أنها تساعد على قيام عدد من الواحات فى أجزائها الدنيا حين تدخل السهل الرسوبى وتمتد هذ الوديان فى اتجاه شرقى غربى مما ساعد على سهولة النقل بقوافل الإبل بين العراق وجيرانه فى الغرب.

٣ ـ أرض الجزيرة :

تقع أرض الجزيرة فى العراق الأعلى بين دجلة شرقا والفرات غربا، كما يحدها من الشمال مرتفعات آسيا الصغرى، وتتكون فى معظمها من

(١) سعودى، المرجع السابق، ص ٣١٠.

(٢) ذات المرجع، ص ٣١١.

سهول متموجة أو هضاب منخفضة قليلة الارتفاع تتخللها أحواض داخلية مغلقة أهمها الحوض العميق الذى يجرى فيه وادى الثرثار، وإلى الشمال من هذا الوادى يقع جبل سنجار الذى يعد إمتداداً للجبال الإلتوائية فى بلاد الشام.

وتقوم فى هذا الإقليم الزراعة على الأمطار، وأهم مدنه الموصل على الضفة اليمنى لنهر دجلة وهى قديمة قدم بغداد، وإن كانت الضفة اليسرى للنهر تحوى آثار نينوى القديمة عاصمة آشور والتى ترجع إلى القرن الثانى قبل الميلاد، مما يدل على أهمية هذا الموقع منذ القدم عند التقاء أربعة أقاليم جغرافية مشهورة بالزراعة والرعى وهى السهول الشمالية لآشور وجبال كردستان واستبس الجزيرة ومرتفعات جبل سنجار.

٤ ـ الإقليم الجبلى :

ويتمثل فى المرتفعات الجبلية فى شمال العراق وشماله الشرقى ويتراوح ارتفاعها بين ٢٣٠٠ـ٢٦٠٠ متراً، ويتألف من السفوح الجنوبية الغربية لزاجروس والسلاسل المرتفعة منها نحو الغرب. والجزء الشمالى الشرقى من هذا الإقليم يمثل جزءاً من إقليم آقور، ويبدو على هيئة سلاسل متوازية تزداد ارتفاعاً بالاتجاه نحو الشرق والشمال حتى شرق هضبة أرمينيا، ويتصف هذا النطاق الجبلى بالوعورة وتخترقه عدة أنهار لعل من أبرزها نهر ديالى ونهر الزاب الكبير ونهر الزاب الصغير وتتغذى من الأمطار الشتوية التى تسقط على هذه الجبال.

ثالثاً ـ إقليم بلاد فارس :

إلى الشرق والشمال الشرقى من العراق يقع إقليم بلاد فارس، والذى يمتد امتداداً كبيراً حتى أراضى ما وراء النهر شمالا وخراسان وبلوخستان والسند شرقاً، والخليج العربى وبحر العرب فى الجنوب (شكل رقم ٧) .

وتحظى فارس بموقع جغرافى ممتاز، فقد عبرتها طرق التجارة الرئيسية بين عالم البحر المتوسط فى الغرب والعالم الموسمى فى جنوب آسيا، تجتازها وتستفيد من واحاتها العامرة كمحطات تموين لعدة قرون من الزمن.

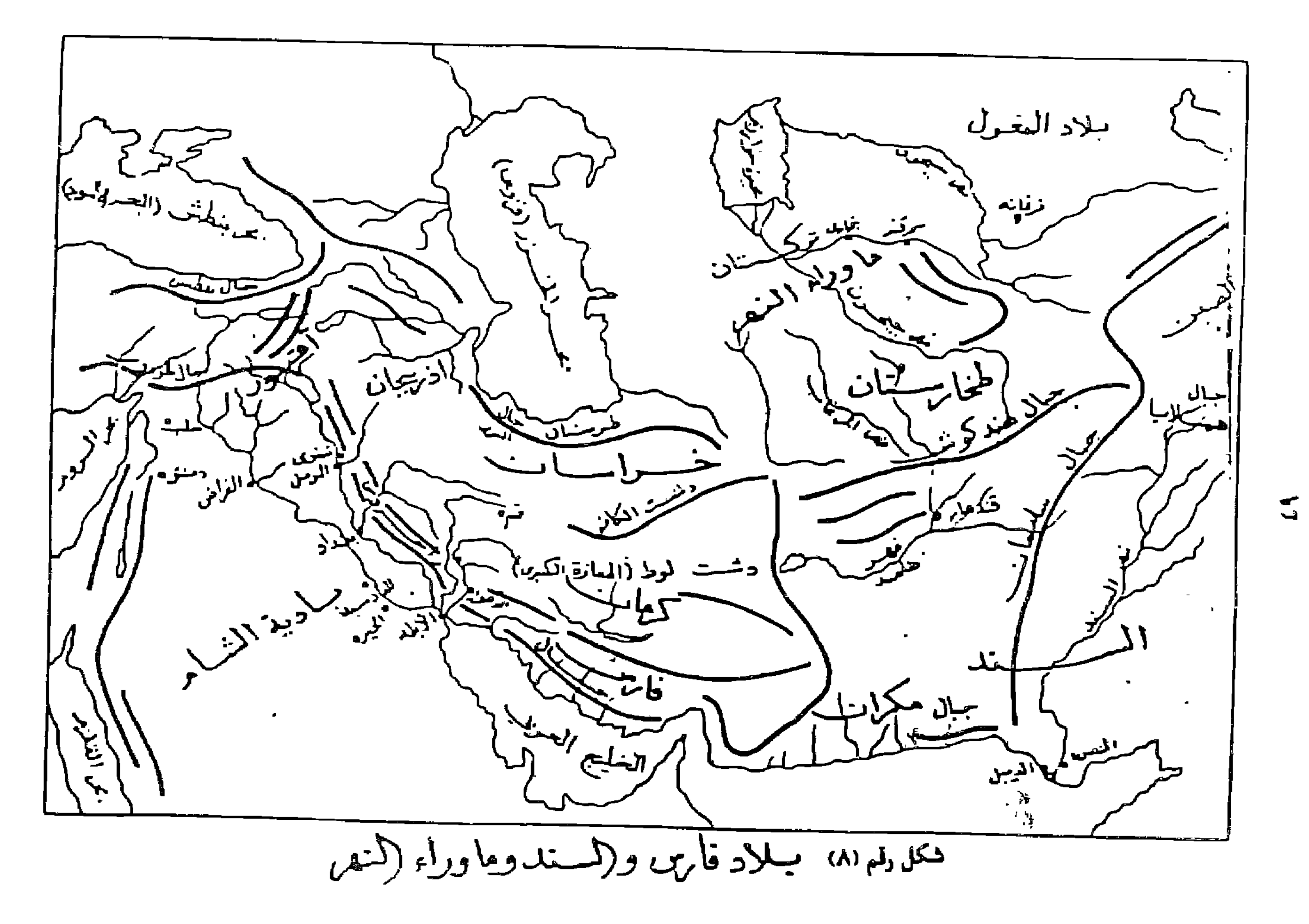
ويحف ببلاد فارس من الشمال مرفتعات البورز التى تطل على بحر قزوين (الخزر)، وتمتد شرقاً فى مرتفعات اللاداع، وتواصل السلاسل الجبلية امتدادها نحو الشرق متمثلة فى المرتفعات الأفغانية وجبال هند كوش، وتطل هذه المرتفعات على أراضى ما وراء النهر (التركستان الروسية حالياً) . أما الجانب الجنوبى من هضبة فارس فيتكون من عدة سلاسل جبلية متوازية تطل على سهول العراق والخليج العربى وخليج عمان والبحر العربى حتى سهول السند شرقاً (شكل رقم ٨).

وعلى طول بحر قزوين (الخزر) يمتد سهل ساحلى ضيق يختلف فى هضبة فارس القاحلة وتسقط على هذا الساحل كميات متوسطة من الأمطار تسمح بنمو غابات على المنحدرات الجبلية ويقع أكثر من نصف مساحة بلاد فارس فى حوض ذى تصريف داخلى، كما ينصرف إلى بحيرة أورميا قسم كبير من أراضى غرب فارس، أما المرتفعات الشمالية فتنصرف مياهها إلى بحر قزوين بواسطة عدة أنهار صغيرة، كما تنصرف أنهار المرتفعات الجنوبية الغربية إلى الخليج العربى خاصة نهر قارون الذى يجرى فى سهل خصيب وينتهى عند رأس الخليج وبلاد فارس - فى معظمها ذات مناخ صحراوى، فترتفع الحرارة صيفا ارتفاعاً كبيراً يزيد عن ٣٠° مئوية فى المناطق الداخلية. أما الشتاء فبارد تهبط فيه الحرارة إلى درجة التجمد خاصة فى شمال غرب زاجروس، والأمطار شتوية تسقط بكميات

وتحظى فارس بموقع جغرافى ممتاز، فقد عبرتها طرق التجارة الرئيسية بين عالم البحر المتوسط فى الغرب والعالم الموسمى فى جنوب آسيا، تجتازها وتستفيد من واحاتها العامرة كمحطات تموين لعدة قرون من الزمن.

ويحف بلاد فارس من الشمال مرتفعات البورز التى تطل على بحر قزوين (الخزر)، وتمتد شرقاً فى مرتفعات اللاداغ، وتواصل السلاسل الجبلية امتدادها نحو الشرق متمثلة فى المرتفعات الأفغانية وجبال هندكوش، وتطل هذه المرتفعات على أراضى ما وراء النهر (التركستان الروسية حالياً) . أما الجانب الجنوبى من هضبة فارس فيتكون من عدة سلاسل جبلية متوازية تطل على سهول العراق والخليج العربى وخليج عمان والبحر العربى حتى سهول السند شرقاً.

وعلى طول بحر قزوين (الخزر) يمتد سهل ساحلى ضيق يختلف فى هضبة فارس القاحلة وتسقط على هذا الساحل كميات متوسطة من الأمطار تسمح بنمو غابات على المنحدرات الجبلية ويقع أكثر من نصف مساحة بلاد فارس فى حوض ذى تصريف داخلى، كما ينصرف إلى بحيرة أورميا قسم كبير من أراضى غرب فارس، أما المرتفعات الشمالية فتنصرف مياهها إلى بحر قزوين بواسطة عدة أنهار صغيرة، كما تنصرف أنهار المرتفعات الجنوبية الغربية إلى الخليج العربى خاصة نهر قارون الذى يجرى فى سهل خصيب وينتهى عند رأس الخليج وبلاد فارس - فى معظمها ذات مناخ صحراوى، فترتفع الحرارة صيفا ارتفاعاً كبيراً يزيد عن ٣٠° مئوية فى المناطق الداخلية. أما الشتاء فبارد تهبط فيه الحرارة إلى درجة التجمد خاصة فى شمال غرب زاجروس، والأمطار شتوية تسقط بكميات



شكل رقم (٨) بلاد فارس والسند وما وراء النهر

قليلة (حوالى ١٢ بوصة سنوياً) وتقل بالاتجاه شرقا حتى تنتهى إلى السهول الصحراوية الجافة. كما تتجمد البحيرات فى هذا الفصل، ويزداد التساقط وهو عادة على هيئة ثلج فوق المرتفعات، وعندما يذوب فى فصل الربيع فإنه يوفر مصدراً لمياه الأنهار التى تغذى الأراضى الزراعية.

ورغم أن الفرس يكونون الغالبية العظمى من سكان إقليم بلاد فارس، فإن هناك عناصر أخرى أبرزها الترك الذين سكنوا منطقة أذربيجان وإقليم خراسان والأكراد والبلوخ والأرمن. ويسكن الأكراد جبال زاجروس، والأرمن فى المرتفعات الشمالية الغربية، وقبائل البلوخ فى بلوخستان، ويتكلمون لهجاتهم الخاصة إلى جانب اللغة الفارسية، وقد سكن العرب فى إقليم عربستان منذ الفتوح الإسلامية.

وقد أشاد الجغرافيون العرب بإقليم فارس، فذكر المقدسى أنه « إقليم ترابه معادن وجباله مشاجر.. به نحل وأترج وزيتون وأقصاب، وجوز ولوز وخروب، وبه تعمل الأبراد والخزوز، والبسط الصنيعة والبزوز والأكسية العجيبة والستور وثياب كتان تشاكل القصب وديباج وأنواع من الحلل.. به القصاب المشهورة والمدن الطيبة، مثل شعب بوان، وسابور ونوبندجان الجليلة الشأن، ولا يخفى فضل سيراف وأرجان، وأما شيراز.. إنما كانت مدينة بناها شيراز بن فارس، إلا أن المسلمين مصروها لما فتحوا الإقليم واستطابها الملوك فنزلوها » (١).

رابعاً ـ إقليم السند وخراسان :

ويمثل هذا الإقليم أقصى أقاليم دولة الإسلام شرقا، ويمتد حتى خط طول ٧٥° شرقاً تقريبا، وقد عرف الجزء الشمالى الغربى من هذا الإقليم

---

(١) المقدسى، المرجع السابق، ص ٤٢

باسم خراسان نسبة إلى إقليم خراسان الذى يشغل الثلث الشمالى من أراضى أفغانستان الحالية، إلى الشمال الشرقى من صحراء المفازة الكبرى (دشتى لوط) .

أما إقليم السند فتحده شمالا مرتفعات الهمالايا وكشمير (قشمير) . ويمثل نهر السند شريان الحياة فى هذا الإقليم. ويجرى فى سهول واسعة خصبة تحيط بها المرتفعات الجبلية من الشمال والغرب، أما واديه الأدنى فيمثل سهلا فيضياً واسعاً ينتهى بدلتا السند، ولهذا النهر موسمان للفيضان كل عام أولهما أثناء فصل الأمطار الموسمية صيفا، وثانيهما فى الربيع عندما تذوب الثلوج المتراكمة فوق الجبال وتغذى الروافد العليا لهذا النهر.

وتشرف على وادى السند من الغرب والشمال الغربى سلاسل جبلية شاهقة منها جبال سليمان التى يتجاوز إرتفاعها ٣٧٠٠ متراً، وتتخللها أودية وسهول مغلقة ومنخفضات وأحواض كما تقطعها ممرات جبلية منخفضة تربط بلاد السند ببلوخستان وأهمها ممر خيبر فى وادى بشاور وتتجمع فى هذا الممر عدة طرق لكى تتجنب وعورة الجبال فى هذا الإليم، وكانت تلك الطرق هى مدخل الفاتحين الذين تعاقبوا على أراضى الهند آتين من الشمال الغربى عبر هذا الممر.

وتفصل سلسلة جبال سليمان بين وادى السند وهضبة بلوخستان. وتنقسم هذه الهضبة إلى أربعة أقاليم مميزة أصغر هى ساحل مكران، وسلاسل الجبال الوسطى، والهضبة الصحراوية الداخلية والمرتفعات الجبلية الشرقية، ويسود الجفاف فى الهضبة الصحراوية الداخلية، وتهبط إليها مجارى مائية من الجبال المحيطة بها وتنتهى هذه المجارى فى سبخات وأحواض مالحة وترتفع فيها الحرارة صيفا كما تتدنى الحرارة شتاءً إلى

درجة التجمد. وتنفصل هضبة بلوخستان عن ساحل مكران بمرتفعات جبلية متتابعة. ومنها سلاسل مكران الساحلية، ويعد سهل مكران ممراً سهلياً تجرى به طرق سلكها الفاتحون العرب إلى سهول السند ووصلوا إلى الديبل والمنصورة قرب دلتا نهر السند.

وخراسان (أفغانستان الحالية) بلاد داخلية يغلب عليها الطابع الجبلى وتنصرف مياهها عن طريق ثلاثة أنهار هى نهر جيحون الذى ينبع من السفوح الشمالية لجبال هندكوش ونهر السند وروافده التى تنبع من السفوح الجنوبية لجبال هندكوش قرب منطقة كابول، ثم نهر كابول الذى يصب فى نهر السند.

وقبل الإسلام كان إقليم خراسان قلب الدولة الفارسية الساسانية ومصدر ثرائها وقاعدته نيسابور، وإن كانت خراسان الساسانية أصغر حجماً من خراسان الإسلامية، واحتفظ الإقليم باسمه (خراسان) عندما تحولت بلاد فارس إلى الإسلام.

وإلى الشرق من هذا الإقليم وفى الطريق إلى الهند توجد مناطق تعد جغرافيا من أعسر مناطق الأرض. فجبالها وعرة خاصة فى مناطق طخارستان (شمال أفغانستان) وزابلستان الجبلية وهى امتدادات إلى الغرب من جبال هندكوش الحالية وفروعها جبال إلبرز وسليمان التى تحمى سهول السند من الشمال والغرب، ولا يعبرها الإنسان إلا عن طريق ممرات جبلية عالية أشهرها ممر خيبر الذى تقوم عند مخرجه الجنوبى مدينة بشاور، وهذه المناطق الجبلية الفقيرة بين فارس والسند تنتهى بأقاليم صحراوية فقيرة، وكان المسلمون يسمونها بلاد الميد أو المفازة وكان يسكنها عند الفتح الإسلامى للهند قبائل فقيرة هى خليط من الإيرانيين والترك والهنود، وقد

نزلت بهذا الإقليم قبائل البلوش التى أعطت إسمها له وعرف باسم بلوشستان (بين إيران وباكستان حالياً) .

ويتكون سكان خراسان من مجموعات بشرية متعددة ولكن أمها الأفغان والتاجيك والهازارا ويتكلم الكثير منهم الفارسية وبعضهم بلغة البوشتوه وقد وصلت جيوش المسلمين إلى أرض خراسان فى عهد الخليفة عثمان بن عفان، كما تم فتح المنطقة الساحلية لبلوخستان (مكران) وأخضعت كابول فى عهد معاوية بن أبى سفيان. ولكن تثبيت الإسلام فى هذه البيئة الصعبة تطلب جهداً كبيراً وزمناً طويلاً امتد عبر حكم الأمويين ثم العباسيين. ولم يستقر الأمر للمسلمين فى هذه البلاد إلا فى عهد الدولة الغزنوية ابتداء من حوالى سنة ٨٧١ ميلادية.

خامساً - إقليم ما وراء النهر :

ويقع هذا الإقليم إلى الشمال من جبال هندكوش، ويعرف اليوم بالتركستان الروسية، كما يشمل جزءاً من شمال غرب أفغانستان الحالية، ويعد امتداداً لإقليم خراسان الفارسى كما يعرف الجزء الشمالى الغربى منه بإقليم خوارزم والشمالى الشرقى ببلاد الترك.

وقد ارتبط اسم هذا الإقليم عند العرب بأهم أنهاره وهما نهرا سيحون وجيحون، وينبعان من مرتفعات هند كوش ويصبان فى بحيرة آرال (خوارزم) إلى الشرق من بحر قزوين (بحر الخزر) ، وتغذى هذين النهرين روافد عدة تقع عليها مدن قديمة اشتهرت بأهميتها كمحطات للقوافل التى تقطع هذا الإقليم لتصل أوربا والصين، ومن أشهرها مدن فرغانة وسمرقند وبخارى ومرو.

وتعرف السهول العليا لنهر جيحون باسم سهول بكتاريا وهى منطقة ذات تاريخ حافل حيث تعاقب على غزوها المغول والعرب والفرس.

وتتصف أراضى ما وراء النهر بظاهرة الأحواض الداخلية ومن أهمها حوض السهل الطوارنى الذى ينحدر نحو الشمال الغرب ينحو منخفض بحيرة آرال. ويمثل منطقة تصريف داخلى تنتهى إليها أنهار سيحون وجيحون كما سبق القول. ويفصل بين هذا السهل الطورانى ومنخفض بحر قزوين منطقة مرتفعة نسبيا فى الجنوب تعرف باسم صحراء قره قوم (بلاد التركمان) ، كما يفصل إقليم ما وراء النهر عن بلاد فارس وخراسان نطاق من الجبال العالية (جبال البرز وهندكوش) .

سادساً- إقليم بلاد الشام :

تقع بلاد الشام فيما بين أرض العراق شرقا والبحر المتوسط (بحر الروم) غربا، وتحدها شمالا مرتفعات طوروس بينما تنتهى جنوبا إلى صحراءشبه جزيرة العرب دون حواجز طبيعية واضحة ويتصف سطحها بتنوع مظاهره بين سهول ساحلية ومرتفعات جبلية وهضبات تخترقها أودية واضحة ويتصف سطحها بتنوع مظاهره بين سهول ساحلية ومرتفعات جبلية وهضاب تخترقها أودية وسهول نهرية، بل إن بعض أجزائه يقل منسوبها عن سطح البحر (منخفض البحر الميت) .

وتمتد السهول الساحلية لبلاد الشام عل يطول ساحل البحر المتوسط من خليج الأسكندرونة شمالا حتى رفح جنوبا، وتضيق فى الشمال ثم تتسع فى الاتجاه نحو الجنوب حتى شمال سيناء ، وتمثل هذه السهول أسهل الطرق التى تربط بلاد الشام بمصر. كما ربطت بين البحر المتوسط والمناطق الداخلية من خلال الممرات الجبلية والأودية النهرية، فقد ساعد

وادى اليرموك على اتصال فلسطين بالطريق الصحراوى الشمالى الجنوبى بين بلاد الشام والحجاز، كما اتصلت السهول الساحلية فى سوريا بمناطقها الداخلية وأرض الجزيرة.

أما المرتفعات الجبلية الغربية في بلاد الشام فتبدأ بجبال أمانوس فى الشمال والتى تمتد على شكل قوس من جبال طوروس نحو الجنوب الغربى حتى تنتهى إلى البحر المتوسط ثم تمتد جبال العلويين جنوباً لتقترب من جبال لبنان التى تعد أعلى المرتفعات الجبلية فى بلاد الشام على الإطلاق (أعلى قمة ٣٠٨٦ متراً) . وتنقسم هذه المرتفعات إلى قسمين هما جبال لبنان الغربية التى تمتد موازية للساحل ثم جبال لبنان الشرقية التى تبدأ من جنوب حمص حتى الفنيطرة، ويفصل بينهما أعالى نهر العاصى الذى يتجه شمالا ماراً بحمص وحماه، وسهل البقاع الذى يجرى فيه نهر الليطانى متجها جنوبا حتى مرجعيون ومنها يتجه غربا حتى يصب فى البحر المتوسط.

وتعد مرتفعات فلسطين امتداداً جنوبيا للمرتفعات الغربية لبلاد الشام، ويغلب عليها الطابع الهضبى وأبرزها هضبة الجليل فى الشمال وهضبة العامرية فى الوسط وهضبة الخليل فى الجنوب. وتكاد مدينة القدس تتوسط هضبة الخليل، وقد بنيت هذه المدينة فوق حافة شديدة الانحدار مشرفة على الطرق التجارية عبر فلسطين ومن ثم كانت حصناً عسكرياً ذا أهمية كبرى. وتحظى بأهمية دينية عظيمة اكتسبتها منذ القدم بعد أن بنى فيها سليمان الهيكل وبعد أن بنيت الملكة هيلانه ـ أم الإمبراطور قسطنطين الرومانى ـ كنيسة القيامة، وبنى فيها المسلمون المسجد الأقصى وقبة الصخرة، وكانت قبلة المسلمين قبل الكعبة، وزادت قيمتها الدينية بعد الإسراء والمعراج.

أما وادى الأردن فيمثل جزءاً صغيراً من الأخدود الإفريقى، ويجرى فيه نهر الأردن الذى تغذيه ثلاثة روافد تنبع من مرتفعات لبنان عند حضيض جبل الشيخ، ويضيق غور الأردن نحو الجنوب من طبرية وينخفض إلى أعمق أجزائه (حوالى ٨٧٠ متراً تحت سطح البحر) فى قاع البحر الميت.

ويكاد توزيع المدن فى بلاد الشام يقتصر على النطاق الغربى مرتبطة فى ذلك بوفرة الأمطار وقيام الزراعة والموقع البحرى مطلة على البحر المتوسط ومن أهمها دمشق وحلب وطرابلس وبيروت والقدس ونابلس. وتقع دمشق إلى الشرق من جبال لبنان الشرقية معتمدة على نهر بردى، وتوجد فى غوطة دمشق كثير من البساتين الغنية. ولا ترجع أهمية دمشق إلى الظروف التاريخية التى جعلتها عاصمة للأمويين فقط، بل تمتد إلى ما قبل ذلك، فهى من أقدم مدن العالم. وموقعها على نهاية ممر ضهر البيدر من ناحية وعند حضيض المرتفعات الشرقية من ناحية أخرى جعلها عقدة مواصلات للقوافل المتجهة من الشمال إلى الجنوب وللقوافل المتجهة من ساحل البحر المتوسط إلى العراق، وساعدها على ذلك أنها واحة فى صحراءبلاد الشام، وتدين فى ذلك إلى نهر بردى الذى يشق طريقه عبر المرتفعات الشرقية نحو الصحراء ليحيلها إلى غوطة فيحاء .

وتأتى حلب بعد دمشق فى الأهمية، وهى ترجع فى نشأتها إلى القرن الثانى قبل الميلاد وهى ذات موقع برى فريد حيث قامت مبكراً عقدة للمواصلات بين البحر المتوسط غربا ونهر الفرات شرقاً، وبين المرتفعات الجبلية شمالا والصحراء جنوباً، بل تتفوق على دمشق فى كونها تقع عند أضيق عنق بين البحر والفرات، لذلك سيطرت على طرق القوافل بين

العراق ومصر (طريق الهلال الخصيب)، ووصل تجار حلب إلى إيران والهند .[1]

وتعد بادية الشام أبرز المظاهر الداخلية لإقليم بلاد لاشام وتشمل المنطقة المحصورة بين السلاسل الجبلية فى الغرب ونهر الفرات فى الشرق، وهذه المنطقة امتداد طبيعى لهضبة شبه جزيرة العرب، أما أراضى الجزيرة ـ وهى المحصورة بين نهر الفرات والدجلة، فتتألف من سهول فسيحة تنحدر تدريجيا نحو الجنوب، وتظهر بها كتل جبلية تتمثل فى جبل عبد العزيز الذى يعد حاجزاً مناخياً تقريباً، فالأمطار التى تسقط إلى شماله تسمح بقيام زراعة وحياة مستقرة، بينما تتناقص الأمطار فى جنوبه حتى تنتهى إلى الصحراء حيث يسود الرعى ويقتصر التجمع السكانى على أودية الأنهار مثل دجلة ووادى الخابور.

سابعاً ـ إقليم مصر :

مصر هى أولى الأقاليم التى فتحها العرب فى شمال قارة أفريقيا، وتمتد بين البحر المتوسط (بحر الروم) شمالا والبحر الأحمر (القلزم) شرقا.

وتمتد جنوبا حتى بلاد النوبة، وقد ارتبطت مبكراً بالطرق البرية ببلاد الشام وشبه جزيرة العرب عبر شبه جزيرة سيناء التى لعبت أدواراً تاريخية كمدخل شرقى لمصر عبرته الغزوات والفتوحات التى خرجت من مصر أو اتجهت إليها.

ويرتبط تاريخ مصر الحضارى بتاريخ استغلال أراضيها وتهذيب نيلها، فقد أنشأ المصريون القدماء القرى والمدن وتوصل إلى طرق ملائة للرى (الرى الحوضى) والتى كانت أساساً للحضارة المصرية القديمة .

(١) محمد سعودى، المرجع السابق، ص ٣٤٧.

وقد وصف المقدسى إقليم مصر فى القرن الرابع الهجرى بقولـــه : « هذا إقليم إذا أقبل فلا تسأل عن خصبه ورخصه، وإذا أجرب فنعوذ بالله من قحطه.. أشد حراً من بلاد الشام ويبرد فى طوبه برداً شديداً. به نخيل كثيرة وعامة ذمته نصارى يقال لهم القبط ويهود قليل.. لغتهم عربية غير أنها ركيكة رخوة وذمتهم يتحدثون القبطية.

وهو بلد التجارات يرتفع منه أديم.. جيد ومن الصعيد الأرز والصوف والمور والخل والزيبى، ومن تنيس إلى دمياط الثياب الملونة. ومن دمياط القصب ومن الفيوم الأرز.. ومن الفرما الحيتان ومن مدنها القفاف والحبال من الليف فى غاية الجودة.. ولا نظير لأقلامهم وزاجهم ورخامهم وخلهم وصوفهم وخيشهم وبزهم وكتانهم وجلودهم وليفهم ووزهم وجوزهم وشمعهم ومزارعهم ونهرهم وتعبدهم وحسن نغمتهم وعمارة جامعهم وتجاراتهم وصدقاتهم كل ذلك فى غاية الجودة.[1]

وتتباين أرض مصر بين صحراء قاحلة ووادى زراعى أخضر، ومناطق جبلية عالية وأرض دون مستوى سطح البحر، ويمكن تقسيمها إلى عدة أقاليم جغرافية هى :

(١) شبه جزيرة سيناء :

وهى المدخل الشرقى لمصر، وهمزة الوصل بينها وبين بلاد الشام وشبه جزيرة العرب، وتقع بين خليج العقبة وأرض فلسطين شرقا، وخليج السويس ودلتا النيل غربًا، والبحر المتوسط شمالا، وهى هضبة غير مستوية السطح تشغل الجبال العالية ثلثها الجنوبى، وبها أعلى جبال مصر (٢٦٣٩ متراً)، ويعرف الجزء الأوسط من سيناءبصحراء التيه، وهو أقل ارتفاعاً وتنحدر أرضه نحو الشمال حيث تغطيها كثبان رملية، ويتجمع البدو ـ

(١) المقدسى، ص ٢٠٢ ـ ٢٠٤.

قليلي العدد ـ حول الآبار حيث يمارسون الزراعة والرعي خاصة في وادى العريش.

(٢) الصحراء الشرقية :

وتمتد من وادى النيل في الغرب حتى البحر الأحمر وخليج السويس في الشرق، ويتصف سطحها بالمرتفعات الجبلية التي تمتد موازية للبحر الأحمر ومنحدرة إليه بشدة، بينما يتحدر تدريجيا نحو وادى النيل غربا ويقطعها عدد كبير من الأودية التي تمثل عائقا للنقل بين الشمال والجنوب، بينما استخدم بعضها منذ القدم طريقا بين النيل والبحر الأحمر، ويسكن القسم الجنوبي من الصحراء الشرقية قبائل العبابدة التي تعتمد في رعي قطعانها على بعض موارد المياه في بطون الأودية وكذلك على مياه الأمطار.

(٣) وادى النيل والدلتا :

ويمثل هذا الإقليم قلب مصر العمراني والاقتصادى، فقد كونهما وادى النيل الذى ينبع من هضبة الحبشة وهضبة البحيرات، ويخترق أرض السودان ليدخل مصر من الجنوب وبعد ذلك يأخذ الوادى في الاتساع تغطية طبقة سميكة من الرواسب النيلية (الغرين) ثم يواصل جريانه حتى شمال القاهرة بنحو عشرين كيلو متراً لتبدأ بعد ذلك دلتا النيل على شكل مثلث واسع قاعدته على ساحل البحر المتوسط بطول يبلغ نحو مائتى كيلو متراً. وحيث كانت بعض فروع النيل القديمة تنتهى في العصر العربى، وتغطى الأطراف الشمالية للدلتا بحيرات ضحلة ومستنقعات لم يكتمل الإرساب النهرى بها.

وتقع القاهرة في موقع متوسط بين الدلتا والوادى، وقد كان هذا الموقع

سببا من أسباب إختيارها عاصمة للبلاد مبكراً، وقد جذب جميع من حكموا مصر منذ أقدم العصور (منف ـ هليوبوليس ـ بابليون ـ الفسطاط ـ العسكر ـ القطائع) وفى الموضع ذاته وضع جوهر الصقلى أساس مدينة القاهرة (٩٦٠م) إلى الشمال من موضع الفسطاط بأربعة كيلو مترات وفى حضيض تلال المقطم على بعد نحو كيلو متر ونصف من النيل، واستمرت عاصمة لمصر منذ ذلك التاريخ محتفظة بطابعها القديم. (١)

(٤) الصحراء الغربية :

وتشغل مساحة كبيرة من أرض مصر، وتمتد غرب وادى النيل بين ساحل البحر المتوسط شمالا حتى أرض السودان جنوبا وتتصف الصحراء الغربية بالمنخفضات التى تشغلها واحات مبعثرة، ومنها منخفض الفرافرة والبحرية وسيوه والخارجة والداخلة، وتقوم الزراعة فى هذه الواحات اعتماداً على المياة الجوفية.

ويعد إقليم مريوط شمال الصحراء من أكثر أقاليمها مطراً، ويمتد على هيئة نطاق مواز لساحل البحر المتوسط وبعمق يتراوح من ٢٠ ـ ٣٠ كيلو متراً. وكان أكثر ازدهاراً فى إنتاجه الزراعى فى العصر الرومانى، حيث ينتج القمح والزيتون والكروم، وتخترق هذا الإقليم طرق النقل بين مصر والمغرب وهى الطريق التى سلكها الجيش العربى لفتح المغرب.

ثامنا ـ إقليم بلاد المغرب :

تعد بلاد المغرب إقليماً جغرافياً متميزاً فى أقصى غرب الدولة الإسلامية وقد وصله الفينقيون والإغريق مبكراً وأطلقوا عليه إسم ليبيا وعرفه الرومان فيما بعد بأفريقيا وكان هذا اللفظ يطلق على تونس الحالية

(١) سعودى، المرجع السابق، ص ٥١٥ ـ ٥١٦.

والهضاب العليا المجاورة لقسنطينه، وأطلق عليه العرب جزيرة المغرب، وقسموه إلى المغرب الأدنى (أفريقية) والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى (شكل رقم ٨) .

ويستمد إقليم بلاد المغرب وحدته الجغرافية من ظاهراته الطبيعية التى تتمثل فى المقام الأول فى امتداد سلاسل جبال أطلس التى تسير موازية للساحل وحددت امتداد الأقاليم المناخية والنباتية وأنماط الحياة البشرية، وهذه المرتفعات تبدو على هيئة مجموعة من السلاسل والكتل المحلية التى تمثل معقلاً من معاقل جماعات البربر لشدة وعورتها، كما تكون فيها الطبيعة الصعبة المسالك حصوناً منيعة لهم، وتعرف فى شمال المغرب باسم أطلس الريف وتمتد شرقاً باسم أطلس التل مطلة على البحر المتوسط، وتحصر فيما بينها أحواضاً ساحلية كما تضم كثير من الكتل العالية منها كتلة القبائل الكبرى والقبائل الصغرى والتى نشأت على سفوحها قرى البربر.

وعلى الحافات الشمالية للصحراء الكبرى فى بلاد المغرب تمتد مرتفعات أطلس العليا وأطلس الصحراوى من ساحل المحيط الأطلنطى غربا حتى تونس شرقا، ويزداد ارتفاعها بالاتجاه غربا لتصل أقصاه فى أطلس العليا، أما أطلس الوسط فتمثل حاجزاً منيعاً بين أطلس العليا والريف، ويظهر فى نهايتها ممر تازة وهو الطريق الرئيسى بين شرق المغرب وغربه.

وتتصف جبال المغرب بغناها بالأمطار، كما تتكون الثلوج على قممها العالية وتغذى مجموعة من الأنهار القصيرة التى تنحدر نحو البحر المتوسط مثل نهر مولويه أو المحيط الأطلنطى مثل نهر سيبو ونهر أم الربيع. وتتناقص الأمطار بالاتجاه جنوبا حتى تصل إلى الجهات الداخلية بعد

سلاسل أطلس الصحراء لتبدأ الصحراء الحقيقية بعد ذلك. (شكل رقم ٩)

وقد أثر المناخ تأثيراً كبيراً في نمط العمران والنشاط الاقتصادى فى بلاد المغرب، بينما تسمح الظروف المناخية السائدة بقيام الزراعة اعتماداً على الأمطار فى المناطق الشمالية،ف إن الجفاف يحول دون قيامها إلا فى الواحات فى المناطق الجنوبية، كما يمارس السكان الزراعة والرعى على سفوح المرتفعات وعلى الهضاب، ويتدرج النبات الطبيعى تبعاً لكمية الأمطار كذلك حيث الغابات فى الشمال ويليها جنوب نطاق من الحشائش ثم الأعشاب الصحراوية فى الجنوب.

ويمثل البربر أهم العناصر الأساسية التى تعيش فى بلاد المغرب وهم الشعبة الشمالية من الحاميين الذين وصلوا من الشرق خاصة من شبه جزيرة العرب عن طريق سيناء وبرزخ السويس والبربرية ليست لفظاً سلاليا، وإنما هى لغة قبل كل شيء ، وتوجد الكتلة الرئيسية للبربر فى المغرب فى أطلس الوسطى والهضبة الوسطى وأطلس العليا وتمتد بعد ذلك حتى الصحراء .(١)

وكان البربر يعملون بالصيد والزراعة والبداوة عندما وصل العرب إليهم، ولا يرجع دخول العرب إلى فترة الفتح الإسلامى على يد عقبة بن نافع فحسب، بل حدثت موجة فى أوائل النصف الثانى من القرن السابع

(١) يرجع أن لفظ بربر مشتق من لفظ اللاتينى، ومعناه الأجانب بالنسبة للرومان، ومن الجائز المتلعثم فى كلامه، ومن المعتقد أن الرومان لم يستطيعوا أن يفهموا لغة البربر فأطلقوا عليهم هذا الإسم (محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد : ملامح المغرب العربى، ١٩٥٩، ص ٥٥) .

شكل رقم (٩) بلاد المغرب
في القرن الثالث
الهجري

فهربوا إلى تونس (أفريقية) ولا تزال سلالتهم إلى الآن فى جزيرة جربا والواحات الجنوبية.[1]

أما موجة الفتح الإسلامى فكان لها أكبر الأثر فى نشر اللغة العربية والإسلام فى المغرب فقد جاست جيوش العرب البلاد من الشرق إلى الغرب إلى أن تم الاستيلاء عليها، وطرد الرومان، وكانت الجيوش العربية تتألف من الرجال دون النساء، فلما استقروا تزوجوا من نساء البربر ونشروا اللغة العربية والإسلام، وكانت عاصمتهم فى القيروان التى أسسها عقبة بن نافع سنة ٧٦٠ م، وكانت الموجة الكبيرة هى موجة بنى هلال وبنى سليم فى القرن الحادى عشر الميلادى (١٠٤٥م) حين سمح الخليفة المستنصر لهذه القبائل بأن تهاجر إلى بلاد المغرب فاتجهوا إليه ووصلوا حتى ساحل المحيط الأطلنطى، ومنهم من احتل السهول الساحلية المغربية، ومنهم من احتل المناطق الداخلية من فاس حتى مراكش، وقد أكدت هذه الموجة الصبغة العربية للمغرب وأصبحت كثير من المساجد جامعات إسلامية مثل القيروان وتونس وفاس[2].

وقد تأثرت الحياة الإقتصادية تأثراً كبيراً بالفتح العربى للمغرب، فقد أسهم العرب فى إحياء الزراعة والحياة المدنية فى شرق المغرب، فازدهرت زراعة الزيتون والكروم، ودخلت غلات جديدة من الشرق ومن الجهات المدارية مثل الأرز وقصب السكر والقطن والمشمش، وهى غلات فى حاجة إلى الرى، ومن ثم كان لابد من تطوير الرى، وحدث ذلك فى عهد الأغالبة والفاطميين، وأفاد بساتين القيروان عاصمة الأغالبة من أعمال الرى التى شيدت فى العصر العربى، وظل الرعى هو السائد فى

---

(١) سعودى، المرجع السابق، ص ٥٩٣.

(٢) المرجع السابق، ص ٥٩٤.

المغرب الأوسط، ورغم أن الإسلام كان يسود فى المدن فقد كان له تأثير كبير على الريف، فحرمت تربية الخنازير وحلت محلها الماعز، وإن كان لم يحرم زراعة الكروم، وكان من أهم مظاهر الإسلام فى الحياة الريفية بالمغرب هو انتشار نظم جديدة لحيازة الأرض، فضلا عن اقتباس كثير من عادات البربر، فميز العرب بين الأرض الموات التى لا يملكها أحد والتى لا تستثمر، وبين الأرض المستثمرة التى يشغلها أصحابها، كذلك اقتبس الرعاة من البربر بعض مظاهرهم الرعوية مثل خيام الشعر والضأن ذى الذيل المحتلىء [1] .

تاسعاً - إقليم الأندلس :

يمثل إقليم الأندلس آخر أقاليم الدولة الإسلامية فى الغرب، وأول الأقاليم الأوربية التى فتحها المسلمون، ويشغل شبه جزيرة أيبيريا التى تتكون فى معظمها من هضبة تعرف بالميزيتا وتمتد فيها سلاسل جبلية بل وتطوقها من الشمال والجنوب وأبرز هذه السلاسل فى شمال أيبريزا جبال البرانس التى عرفها العرب باسم جبال البورتات، وتمتد إلى ما يزيد عن ٤٠٠ كيلو متراً من خليج بسكاى حتى البحر المتوسط وبمتوسط اتساع يصل إلى نحو ثلاثة عشرة كيلو متراً، وأعلى قممها تصل إلى ٣٣٥٠ متراً وينبع منها نهر إبرو.(شكل رقم ١٠) .

وتكون جبال البرانس حاجزاً مناخيا فاصلا بين الجانب الشمالى (الفرنسى) الذى يتمتع بكمية من الأمطار الغزيرة طول العام والجانب الجنوبى (الأسبانى) الذى تقل فيه الأمطار، ومن هنا يعتمد سكان الجانب الأخير على رعى الأغنام والماعز.

---

(١) سعودى، ص ٦٠٣.

أما السهول الساحلية الشرقية في شبه جزيرة أيبريا وما يتصل بها من سهول فى حوض نهر إيرو والوادى الكبير فتنتمى إلى مناخ البحر المتوسط، وهذه السهول الساحلية تتكون من عدد من المناطق الزراعية المنعزلة، وتحول الهضبة الوسط (الميزيتا) دون امتدادها نحو الداخل، وبل وتفصلها عن بعضها نتؤات جبلية، وتقع هذه السهول عامة فى ظل الهضبة ومن ثم أصبحت أمطارها قليلة ويعتمد سكانها فى زراعتهم على الرى.

أما فى جنوب غرب شبه جزيرة أيبريا (البرتغال الحالية) فتجرى بعض الأنهار نحو المحيط الأطلنطى (البحر المحيط أو بحر الظلمات) وأهم هذه الأنهار وادى بانه ودورو، وتاجه الذى تقع لشبونه على مصبه.

وقد شهد إقليم الأندلس فى العصر الإسلامى تنوعاً فى العناصر السانية التى ضمتها أسبانيا الإسلامية من حيث الجنس والعقيدة والثقافة، فلقد ضمت الأندلس مع العرب الفاتحين (البلديون)، والعرب الوافدين (الداخلون)، جماعة من الأسبان المسالمة ـ أى الذين دخلوا الإسلام، والعجم الذميين أو المستعمريين وهم الذين بقوا على دينهم فى ظل الحكم الإسلامى ثم طائفة المولدين وهم نتاج التزاوج بين رجال العرب ونساء الأسبان، ثم البربر الذين دخلوا مع طارق أو الذين هاجروا من بلاد المغرب بعد ذلك للاستيطان به ثم طائفة اليهود. (١)

وكانت مدينة قرطبة هى المركز الذى تتركز فيه حضارة الأندلس باعتبارها أم المدن ومقر الفنون والآداب وموطن الفلاسفة والشعراء، وبلغت فى عهد الخلافة الأموية تطوراً عمرانياً لا مثيل له فى دول العرب آنذاك التى كانت ترزخ فى ظلمات الجهل والانحطاط، كما كانت أكثر مدن أوربا ســـكاناً حيث قدر عدد سكانها بنحو نصف مليون فى أزهى عصورها، (٢) وتفوقت على بقية مدن الأندلس الأخرى مثل طليطلة ومرسيه وبلد الوليد ومجريط (مدريد فيما بعد) .

(١) السيد عبد العزيز سالم ـ تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، المرجع السابق، ص ١١٩ ..
(٢) المرجع السابق، ص ٢٩٥ .

شكل رقم (١٠)

الفصل الرابع
سكان الدولة الإسلامية

الإسلام - دين عالمى - جاء للناس كافة، وأصبح مصدراً لكل الروابط التى أدت إلى قيام مجتمع إسلامى فى أرض واسعة تحوى أخلاطا من الشعوب ذات الأعراق المختلفة، وقد دعا الإسلم إلى تدعيم العلاقات بين المسلمين وحض عليها من خلال دعواه للاختلاط بالمصاهرات والأنساب لتماسك البنيان البشرى لأنه الإسلام، كما جاء هذا الدين مرناً ليؤلف بين الناس، وترتب على ذلك كله انتشاره فى مساحة شاسعة من العالم بين سكان تتنوع أصولهم السلالية وتتباين عاداتهم ولغاتهم ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات، ١٣) .

الأصول السلالية :

كان العرب يطلقون على غيرهم من غير المتحدثين بالعربية إسم الأعاجم، وعندما جاء الإسلام لم يكن لسلالة معينة أو شعب معين بذاته، ورغم أن القرآن الكريم نزل عربيا فإن ذلك لم يعنى أنه جاء للعرب وحدهم بل جاء - كما سبق القول - عالمياً لكل الناس من كل الأصول والسلالات بل وفرض على كل مسلم رشيد أن يحمل دعواه وينشرها من خلال سلوك قويم تمليه المثل والأحكام الإسلامية بين الناس كافة، وهذا ما حدث بالفعل وعلى نطاق واسع، فقد قبلت بالإسلام شعوب وأقوام تنحدر إلى كل السلالات الكبرى فى العالم، ولم يكن التباين السلالى، مثلما لم يكن الجهل باللغة العربية سبباً يحول أو يمنع هذه الشعوب والأقوام من تفهم معانى الإسلام والقبول بتعاليمه ودعوته.

والواقع أن الإسلام يرى أن البشر جميعاً ينتمون إلى سلالة واحدة كما قال سبحانه وتعالى ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ ﴾ (سورة المؤمنون آية ١٢) ، ويرجعون إلى آدم عليه السلام، ومن بعده توزع الناس وتفرقوا فى الأرض فأثرت فيهم البيئات التى عاشوا فيها وانعكس ذلك على ألوانهم وأجسامهم، كما طبعتهم بملامح معينة تتمشى وظروف البيئة التى يعيشون فيها.

والعرب - وهم من أصول سامية تنحدر من المجموعة الجنسية القوقازية كان لهم شرف استقبال الإسلام واعتناقه ورعايته ونشره والدفاع عنه وتبع العرب فى اعتناق الإسلام مجموعات مغولية وشعوب تنحدر من أصول زنجية، وتحقق التلاحم بين هذه المجموعات المختلفة من خلال الترابط بالعقيدة والعاطفة الدينية.

وقد انتشر الإسلام بين شعوب شتى فى سلالاتها، وفى لغاتها، وفى تقاليدها وعاداتها فضلا عن معتقداتها، فبلاد فارس مثلا تجمع بين الفرس والأكراد والبالوخيين والأرمن، وفى الشمال فى جبال ·اجروس، جماعات تتكلم أشكالا من اللغة التركية مثل الأذربيجانيين الإيرانيين والتركمان. وفى أفغانستان لا تقل الصورة تعقيدا عن ذلك فهناك البشتو والتاجيك والأوزبيك والتركمان والقرغيز واللوش أو البلوخى وغيرهم، وكذلك الحال فى بلاد ما وراء النهر وفى الهند، وقد وجد الإسلام طريقه بين كل هذه الشعوب المختلفة، لم يقف دونه حائل من سلالة أو لغة أو تقاليد موروثة أو تراث حضارى قديم، وانصهرت جميعها فى بوتقة الإسلام وحضارته.

وتنتمى معظم شعوب العالم الإسلامى إلى العنصر القوقازى الذى

يعنى بصفة عامة العنصر فاتح البشرة. إلا أنه يشمل أيضا شعوبا سمراء (قمحية اللون) ويشمل شعوب شبه جزيرة العرب والهلال الخصيب وشعوب شمال أفريقيا وشرقيها، وشعوب الهضبة الإيرانية (إيران وأفغانستان الحالية) بالإضافة إلى معظم شعوب شبه القارة الهندية. والسلالة الرئيسية فى العنصر القوقازى هى سلالة البحر المتوسط، بل يمكن اعتبار الكثير من المجموعات الأخرى التى صنفت كسلالات قوقازية منفصلة على أنها سلالات فرعية ومجموعات متشعبة من سلالة البحر المتوسط وتمتد هذه السلالة بشكل عام من المحيط الأطلنطى إلى شبه القارة الهندية ذاتها ومن جنوب أوربا شمالا حتى القرن الأفريقى جنوبا، وتندمج شرقا فى السلالات المغولية،وجنوبا فى زنوج أفريقيا.

وليس من الغريب أن تتفق منطقة انتشار العناصر القوقازية مع منطقة نشأة حضارات البحر المتوسط ومدنياته الكبرى، وترتكز هذه الشعوب القوقازية فى قيمها الروحية لحضارتها على الديانات السماوية الكبرى التى نشأت فى فلسطين وفى شبه جزيرة العرب.

ومن الجدير بالذكر أنه لا توجد فى العالم الإسلامى ـ سلالات نقية أو أصلية بسبب الهجرات واختلاط الشعوب، ومع ذلك يمكن القول بصفةعامة أن سلالة البحر المتوسط الأصلية تتمثل فى شعوب مثل الصرب والأسبان، وتشمل مجموعتين فرعيتين هما : مجموعة شرق أفريقيا وتشمل المصريين القدماء والذين اختلطت بهم هجرات سامية وعربية خلال التاريخ الطويل.

أما المجموعة الفرعية الثانية فهى مجموعة شمال أفريقيا التى تشمل البربر فى بلاد المغرب العربى، والتى تتكلم اللغة الحامية مثل جماعات القبائل فى شمال شرق الجزائر، وقبائل البربر فى جنوب المغرب.

وهناك فى الدولة الإسلامية سلالة فرعية بارزة تنتمى إلى سلالة البحر المتوسط وهى السلالة الإيرانية ـ الأفغانية، وتتمثل أساساً فى شعوب إيران وأفغانستان وهضبة أرمينيا وشرقى تركيا وكذلك بلوخستان ومنطقة الحدود شمال غرب باكستان. ورغم أن هذه الشعوب مختلفة فإنها ذات أصل واحد، ويمكن أن نضيف إليهم شعب الأكراد الذى يعد نتاجاً لاختلاط العناصر الإيرانية والأفغانية.[1] ويضاف إلى هذه الشعوب شعوب سلالة أخرى هى السلالة التركية التتارية التى تسمى أيضا بالسلالة الطورانية نسبة إلى السهل الطورانى فى جنوبى التركستان الروسية الحالية، ويعتبر بعض الباحثين هذه السلالة نتاجاً لاختلاط السلالات الأصلية الأولية (القوقازيين والمغول).

وهكذا يبدو أن غالبية سكان دولة الإسلام تشترك بقدر واحد فى الأصول السلالية وهى سلالة البحر المتوسط بتنوعاتها المختلفة، ونظراً للتعقيد السلالى لهذه الشعوب فإنها يمكن أن تنقسم على أساس لغوى إلى ثلاث مجموعات هى : الشعوب السامية والحامية، والشعوب الهندية ـ أوربية (الإيرانية والأفغانية، والإيرانية والأرمنية) ، والشعوب التركية.

١ ـ الشعوب السامية والشعوب الحامية :

ينبغى فى البداية أن نذكر أن تعبيرات مثل سامى أو حامى هى مصطلحات ثقافية أكثر منها عرقية أو سلالية، والساميون مصطلح يطلق على الشعوب التى كات قديما ـ منذ الألف الثالثة قبل الميلاد ومازالت تتحدث اللغات السامية. ويتفق معظم العلماء على أن شمالى شبه جزيرة العرب هى الموطن الأصلى للساميين ومنه هاجروا إلى أراضى الشمال (الشام والعراق) التى تحف بأوطانهم فى موجات متعاقبة طوال التاريخ،

(١) محمد محمد سطيحة، الجغرافية الإقليمية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٥، ص ٣٧٧.

كذلك خرجت هجرات من بلاد اليمن خاصة بعد تصدع سد مأرب (بدأ في التهدم للمرة الأولى خلال الفترة من ١٤٥ ـ ١١٥ ق.م) فقد نزحت قبيلة غسان إلى تخوم البادية السورية، وأنشأوا هناك بعد أكثر من قرنين دولة الغساسنة، كذلك نزحت قبيلة لخم إلى أرض الحيرة على تخوم العراق وأقامت فيها بعد قرنين ونصف قرن دولة المناذرة. كما نزحت قبائل كندره إلى نجد، وبعضهم إلى حضرموت وأسسوا هناك دويلات مشهورة. وكانت دولة الغساسانة العربية على التخوم السورية والتى كانت تابعة للدولة البيزنطية، ثم دولة الحيرة العربية على تخوم العراق، وكانت تابعة لدولة الفرس، وكانت المسيحية دين هاتين الدولتين العربيتين، وكان لقبائلهما الفضل فى تعريب كل من سوريا والعراق وتمهيد الطريق للفتح العربى الإسلامى ونشر اللغة العربية كما سبق القول.

أما الشعوب الإسلامية فى شمال أفريقيا فهى شعوب قوقازية هى الأخرى وإن كانت تنقسم إلى مجموعتين أحداهما حامية وتتمثل فى المصريين شرقًا والبربر فى بلاد المغرب غربًا، والأخرى سامية تتمثل فى العرب الفاتحين الذين تزايدت هجراتهم بعد الفتح الإسلامى لهذه الشعوب واختلطوا مع السكان اختلاطًا كبيرًا أدى إلى غلبة الصفات الثقافية ممثلة فى الدين واللغة.

٢ ـ الشعوب الهندية ـ أوربية :

كانت منطقة شمال العراق وشمال شرق سوريا منطقة اختلاط حضارى وثقافى كبير، فقد التقى فيها الساميون بالهند وأوربيين، وهذه المنطقة هى وطن الأكراد الذين يتحدثون لغة هندوأوربية. ويتحدث الأفغان والإيرانيون والأرمن لغات هندو ـ أوربية أيضا وهى كلها شعوب تنتمى

أصلا إلى سلالة البحر المتوسط، ويسمى فرع اللغات الهند أوربية الذى يتمثل فى منطقة قلب الدولة الإسلامية (الشرق الأوسط حاليًا) باسم المجموعة الإيرانية ـ الأرمينية (أو الإيرانية ـ الأفغانية) وهى شتمل لغات شعوب الأرمن والأكراد والإيرانين والأفغان ثم شعب البلوخ فى بلوخستان وكذلك شعب الباتان وهو شعب جبلى يعيش فى منطقة الجبال بين أفغانستان وباكستان الحالية ويتكلم لغة البوشتو وكذلك شعب التاجيك فى التركستان الروسية الحالية.

٣ ـ الشعوب التركية ـ التترية :

الترك والتتار ـ أبناء عمومة ويمثلون مجموعة لغوية واحدة، ولم تدخل هذه الشعوب قارة أوربا إلا منذ القرن الثالث الميلادى، أما قبل ذلك فكانوا شعوبًا رعوية فى سهول وسط آسيا، وقد استخدم هؤلاء الرعاة حيوان الحصان (حوالى ٣٠٠٠ ق.م) وكان وسيلة هامة فى الغزو، وكثيرًا ما هدد فرسانهم المدنيات المستقرة حولهم.

وقد ظهر الترك فى جنوب غرب أسيا فى القرن السابع الميلادى عندما تسللوا إلى إقليم الاستبس وشبه الصحراء شرق بحر قزوين (الخزر)، واعتنقوا الدين الإسلامى وعرفهم المسلمون باسم (الأتراك الغز) ، وبدأوا يدخلون منذ ذلك الوقت بلاط الخلفاء العباسيين، وعملوا على غزو آسيا الصغرى ونجحوا فى القرن الحادى عشر فى إقامة مملكة السلاجقة فى أرض الروم على تخوم آسيا الصغرى وشمال العراق وسوريا، ومنذ ذلك الحين بدأت عملية صبغ آسيا الصغرى بالصبغة التركية وتحولت من الحضارة البيزنطية إلى الحضارة الإسلامية واللغة التركية. (١)

---

(١) المرجع السابق، ص ٣٩٢.

الإسلام والوضع الاجتماعي للسكان :

كانت دعوة الإسلام تقوم على أساس غاية فى الرحمة والعدل والمساواة « لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » لذلك كانت الدعوة تشق طريقها بيسر فى الأقطار التى ساد فيها الظلم والاضطهار، وتجد فى كل مكان قبولا رغم أنها لا ترغم الناس على دينها ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ البقرة (الآية ٢٥٦) ، وكان المسلمون عندما يصلون لقطر من الأقطار يقيمون فيه نظامهم ويتركون لغير المسلمين أن يحكموا قانونهم المدنى فى شئونهم، وفى ذات الوقت كان دعاة الإسلام والفقهاء يتحدثون عن مبادىء الإسلام وقيمه، ومن هنا أخذ الإسلام ينتشر، وتتحول كثير من الجماعات المختلفة عن دينها لتعتنق الإسلام، وتتخلص من لغاتهم للتعلم اللغة العربية التى أصبحت لغة الجماعة وقوام الأنظمة الاجتماعية والسياسية، ورغم دخول أقوام تفوق العرب قوة وحضارة إلا أنهم لم يفقدوا قوميتهم كما فعلت شعوب أخرى مثل الجرمان فى أوربا، ومثل المغول فى آسيا بل أدخلوا مصر وما بين النهرين والشـــام وشـــمال أفريقيا فى قوميتهم.(١)

وقد حرص الإسلام على أن يكون النمو الحضارى فى إطار يتفق مع العقيدة، ولذلك فقد اهتم بالحضارات التى ورثها فرعاها ونماها وشكلها بالصورة التى تقرها التقاليد والمثل العليا ولا تخلف العقيدة الدينية. وقد استهدف الإسلام من الاحتكاك الحضارى أن تتعايش الحضارات بعد تنقيتها من كل الشوائب ومظاهر الإنحراف بعد صبغها بصبغة الإسلام، ومن هنا لم يهدف الإسلام إلى القضاء على أية حضارة من الحضارات بل كان لكل حضارة حق الاحتفاظ بهويتها فى إطار منطقى سليم يمليه

(١) بارتولد، ف : تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، القاهرة، ١٩٨٣، ص ٦٢.

الإسلام فكانت هناك حضارة إسلامية عربية، وحضارة إسلامية فارسية، وحضارة إسلامية تركية، وحضارة إسلامية هندية مما يدل على قبول الإسلام منطق التنوع الحضارى فى المفهوم الإسلامى.(١)

وقد جاء إعتناق السكان للإسلام فى الأقاليم التى فتحها العرب والمسلمون نتيجة اقتناع ووليد مقارنة بينه وبين غيره من الأديان، فقد كان للفرس حضارتهم القديمة وأفغانستان كانت مهداً لحضارة قديمة أيضا عاصرت الحضـــارة الفرعونية، عرفت كلتاهما العديد من الثقافات الأجنبية : الثقافة الإغريقية بعد الأسكندر، الثقافة الهندية قبل الميلاد أيضا، ثم الثقافة الصينية ومعها عقيدتها البوذية، ومثل ذلك يقال عن إقليم ما وراء النهر فى آسيا الوسطى فقد تعرض الإقليم لتيارات ثقافية واردة من إيران أو من الصين وسادت بذلك الزرادشتية والبوذية كما عرفت المسيحية عن طريق المبشرين بها فى ذلك الحين وسرعان ما أدرك الناس الفارق بين مبادىء الإسلام وبين تلك الزرادتشية التى أحلت الزواج بالمحارم وجعلت المرأة فى منزلة الرقيق أو بينه وبين البوذية وبين المسيحية ولم يلبث أهالى الإقليم والذين اعتبروا مواطنين فى الدولة الإسلامية تمنحهم الثقة وتوليهم المناصب ولا تفرق بينهم وبين العرب فى ذلك. ولم يلبثوا أن حملوا راية الدعوة فى حماس لا يقل عن حماس غيرهم من الدعاة سواء كان هؤلاء الدعاة من الولاة والموظفين أو من الأسر العربية التى استطونت الإقليم، واختلطت بأهل البلد أو من الفقهاء والمتصوفين العرب.(٢)

والواقع أن انتشار الإسلام بعد الفتوح الإسلامية جاء تدريجيا بقوة دفعه الذاتية، وكان انتشاره فى المقام الأول بفضل معتنقيه الجدد كما حدث

(١) جوده وهارون، المرجع السابق، ص ٥٤ – ٥٥.

(٢) يوسف أبو الحجاج، خريطة الإسلام، المجلة الجغرافية العربية، العدد ١٥، القاهرة، ١٩٨٣، ص ١٣ ــ ١٤.

في المغرب العربي والأندلس عندما نشره البربر، وعلى نفس النسق الذى انتقل به الإسلام إلى شبه جزيرة الهند بفضل العناصر التركية والأفغانية، أو إلى بلاد ما وراء النهر بفضل الفرس والأفغان على سبيل المثال، وقد أكد تلك الحقيقة كثير من الكتاب الأوربيين منهم الأستاذ «ديفيد صوفر» الذى أبرز في كتابه « جغرافية الأديان » كيف أن انتشار الإسلام كان في المقام الأول وليد الإتصال العادى

المباشر بين المسلمين والوثنيين، وثمرة لجهود فردية قوامها القدوة الحسنة ومحاولة الإقناع دون قسر أو إكراه، ودون استثناء إلى تنظيم تبشيرى كالذى عرفته المسيحية في هذا المجال. (١)

ومما سبق يتضح أن نشر الإسلام لم يكن حكراً للعرب، فقد أسهم في نشره أقوام عديدة من المسلمين الجدد. فقد أسهم الفرس في نقله إلى أفغانستان، وأسهم الفرس والأفغان في نقله إلى بلاد ما وراء النهر، وحمل أهل تركستان أنفسهم راية الدعوة، بل إن منهم من اشترك في عملية الفتح سواء كانوا من أهل بخارى أو خوارزم، أو غيرهم ممن اشتكوا مثلا في جيش قتيبة بن مسلم. وبعد أن تم إسلام الأتراك الغربيين نقلوا حركة الجهاد بين جيرانهم من العناصر الترية الشرقية، وبعد أن أسلم هؤلاء أتيح لهم فيما بعد أن يحلموا الإسلام بدورهم إلى بلاد الأناضول وتتكرر القصة بعد ذلك فيحمل أهل الأناضول الإسلام إلى البلقان، حتى الدانوب، كما تتكرر في أفريقيا وفي الشرق الأقصى، والكل يتسابقون في حمل راية الجهاد.

وكان تزاوج القبائل واختلاطها يتم في المدن المفتوحة حين تستقر بها الجيوش، ولعل في توزيع القبائل والجماعات التى نزلت الكوفة أو

(١) شكرى فيصل، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، القاهرة، ١٩٥٦، ص ٣٥.

الفسطاط خير دليل على ذلك، فقد سكنها قبائل من شبه جزيرة العرب ومن جنوبها، ومن ربيعة ومن الحجاز ومن نجد. ولم يكن هنا تميز أو تفرد بل كانت عملية الدمج تمضى شيئاً فشيئاً متخذة من هذه المدن نوبات لهذا الاختلاط مثل الكوفة والبصرة فى العراق، والفسطاط فى مصر والقيروان فى المغرب.

وقد عمل العرب المسلمون منذ وطئت أقدامهم الأقاليم التى فتحوها على تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وعقائدهم مما وفر الثقة بأصحاب الدعوة والإعجاب بما يؤمنون به، وأسهم ذلك التسامح بدور كبير فى توطيد العلاقة بين المسلمين والسكان الذين لم يستمر موقف العداء الذى ارتبط ببداية عهد الفتوح بل بلد الإطمئنان يسود المجتمعات الجديدة مما حقق للمسلمين الاستقرار المنشود وتقريب البلاد تدريجيا.

ومن المؤكد أن الهجرات العربية التى كانت العامل الأول فى تعريب المناطق التى فتحها المسلمون لم تكن تكفى إعدادها لهذه الرقعة الواسعة، وتحدثنا المصادر عن أرقام تقريبية عن أعداد العرب الذين انتشروا فى هذه المناطق فيقدر أن العرب الذين خرجوا من شبه الجزيرة العربية إلى بقية دولة الإسلام حتى أواخر القرن الهجرى الأول نحو مائتى ألف. (١)

تعريب الشام :

كان انتصار جيوش المسلمين على الروم فى بلاد الشام إيقاظا للقرابة القديمة التى تصل بين عرب الشام وعرب الجزيرة، وقد اعتدت القبائل بهذه القرابة ومكنت لها وحدة اللغة من ذلك، وتكونت منهم جميعاً كتلة بشرية كبرى فى جسم الدولة نبت عنها تعريب الشام، فقد جاء المناطق التى يكثر فى الأعاجم حيث يتكلمون الفارسية، وهى من اللغات

(١) المرجع السابق، ص ٢١٣.

الهندية ـ الأوربية والتى لا تمت بصلة إلى اللغة العربية، إحدى اللغات السامية، ورغم ذلك فقد ساعد الإسلام ولغته على تغلغل العربية فى هذه المناطق كما ساعد على ذلك عامل الجوار بين اللغتين فى أرض العراق مما قوى الصلة بينهما.(١)

وإلى جانب هذا التعريف اللغوى كانت تمضى حركة أخرى عنيفة الأثر فى تطور الحياة الاجتماعية للعرب المسلمين والفرس على السواء وعلى حركة التعريب العرفى والتى تمثلت فى ثلاثة مظاهر هى السبى والموالى والزواج بالكتابيات فلم تخل معركة من معارك العراق من السبى والذى تلقت منه الجزيرة العربية فائضا من النساء والأطفال، كما ساعد الزواج بالكتابيات الفارسيات على نقل دم جديد للبيئة العربية أسهم بلا شك فى عملية التعريف.

تعريب مصر :

كانت اللغة الرسمية فى مصر قبل الإسلام منذ عهد البطالمة هى اللغة اليونانية وكانت لغة الإدارة والثقافة والعلم، أما اللغة القبطية فقد كانت اللغة اليومية لعامة الشعوب من الأقباط، فلما جاء الإسلام تغيرت لغة الطبقة الحاكمة إلى العربية، فكان من الطبيعى أن يقبل على تعلمها كل الذين مضوا فى ركاب الجيوش الإسلامية ودخلوا الإسلام.

ولا شك أن انتشار الإسلام كان يساعد على انتشار العربية، وقد تجلى ذلك فى مظهرين هما أن العربية أصبحت بالتدريج لغة تخاطب وحديث عن طريق اللغة الشعبية التى تبدأ سقيمة ثم تحاول أن تكون مستديمة، والمظهر الآخر أنها أصبحت لغة الكتابة التى ساعد عليها القرآن الكريم

(١) المرجع السابق، ص ١٠٨.

والدين وضرورات الإدارة خاصة لأن الإسلام انتشر فى كل طبقات المجتمع القبط والرومى، وكان انتشاره يتناسب مع انتشار القبائل المهاجرة، فكثرة الوافدون المسلمون يحملون اللغة العربية ويتكلمونها، وحين تحدثوا بها إلى سكان البلاد الذين كانوا يتحدثون الآرامية لم يكن وقع هذه اللغة غريبا عليهم لأن الآرامية والعربية لغتان من عائلة واحدة يجمع بينهما ماض بعيد وأصول عتيقة (١). واستمر الصراع بين اللغتين أمداً طويلا انتهى بتغلب العربية التى أصبحت لغة الدين والدولة معاً، ويلجأ إليها الذين يسلمون أو الذين يتعربون، وتناقص عدد المتكلمين بالآرامية تدريجيا حتى لم يعد لها وجود إلا فى بعض قرى منعزلة، وآية ذلك كله أن الفتح الإسلامى لبلاد الشام أعقبه تواصل اجتماعى بين العرب الوافدين والسكان المقيمين مما أدى إلى تكوين مجتمع جديد مخالف عن المجتمعات السابقة يدخل الإسلام ويستعرب تدريجيا.

تعريب العراق :

جاء تعريب العراق أقل عناء ولم يستغرق ذلك زمناً طويلا، ففى جوانب أنهاره، وعلى آراضيه وسهوله فيما بين النهرين فى الجنوب، وفى الجزايرة العليا فى الشمال كانت تنزل القبائل العربية فى الجاهلية، ولم تنقطع صلتها بمصادرها الأصلية فى شبه جزيرة العرب، ولذلك ظلت لها لغتها نقية بالقدر الذى يسمح به التجاور مع الفرس والاختلاط بهم. وكان قيام دولة عربية مثل دولة المناذرة فى الحيرة وما حولها تمكينا لمظاهر الحياة العربية من أن يأتى عليها الفرس ودعماً لطابع العراق العربى، كما لم تكن دولة المناذرة فى عزلة من الجزيرة بل كان يفد عليها ـ كما كان يفد على ملوك غسان فى الشام ـ شعراء وتجار، وكانت تصل بينهم

(١) المرجع السابق، ص ٦٩.

روابط الدم، وهناك علاقات متبادلة بينها وبين شبه جزيرة العرب. ومن الطبيعى أن تكون هذه الصلات عاملا أساسياً من العوامل التى حافظت على اللغة العربية دون أن تقوى عليها لغة الفرس، ومن هنا كان عرب العراق يولون الأدب واللغة عناية كبيرة، ومن هنا لم يكن للموجه المسلمة المتدفقة أن تجد فى العراق العربى عناء ولا جهداً - وإنما كان الجهد والعناء من العرب كانت تتيح ألواناً من الصلات بين الوافدين والسكان الأصليين. إضافة إلى ذلك انتشر الإسلام فى المدن قبل القرى، ويبدو أن الإسلام لم ينتشر فى ريف مصر إلا فى مطلع القرن الثانى حين هاجرت إلى مصر قبائل سكنت وادى الحوف الشرقى (شرق الدلتا) فجاورت الريف المصرى وخالطته وحملت إليه الإسلام الذى مضى بطيئاً بعد ذلك نحو بقية قرى مصر ونواحيها، وتزايد عدد معتنقيه ولم يتوقف إلا أمام قلة حفظت كل مقومات الأقباط لغة وديناً وصمدت حتى الوقت الحاضر وإن تغيرت لغتها إلى اللغة العربية.

وقد مضى التعريف اللغوى فى طريقه حتى إذا كان تدوين الدواوين بالعربية فى عهد عبد الملك بن مروان حققت اللغة العربية وثبة واسعة فى مصر - بل وغيرها من بلاد الأقطار الأخرى فى الشام والعراق، واضطر إلى تعليمها جيل من الناس يشمل الموظفين جميعاً ومن ارتبطت حياتهم المعاشية بهم، وانتشرت بالتدريج فى الدلتا والوادى حتى أصبحت لغة الشعب وأساس ثقافته الإسلامية. ولا شك أن انتشار اللغة العربية فى أواخر القرن الأول الهجرى - كان قد بلغ مدى طيباً ولم يعد يخشى عليها من غلبة اللغة القبطية واليونانية حتى أن أحد الباحثين يذكر أن اللغة القبطية بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن تلاشت نهائيا فى معظم القطر المصرى ولم

تعد تعرف إلا بين العلماء الذين يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة.[1]

تعريب المغرب:

لم يكن تعريب المغرب مماثلا لتعريب الشام أو مصر، بل ارتبط بمراحل الفتوح الإسلامية وتعاقب الحملات العربية عليه، وكان الجيش الإسلامى كالجيوش الإسلامية الأخرى ـ خليطاً من القبائل العربية التى وحد بينها الإسلام والهجرة، فتذكر المصادر القديمة أن الجيش الذى فتح المغرب ضم مقاتلين من قبائل الأزد وبنى هاشم وبنى تميم وبنى عدى وبنى أمية وجهينة وبنى سليم، وأن عبد الله بن سعد بن أبى السرح جمع جيشاً بلغ نحو عشرين ألفاً وبعد فتح أفريقية (تونس) ضم إليه نفراً من البربر الذين أسلموا وحسن إسلامهم، وقد أسهم هؤلاء بدور رئيسى فى فتوح المغرب حيث أصبحوا يكونون الكثرة الغالبة فى الجيوش الإسلامية.[1]

ومن هنا يبدو الفارق بين فتوح المغرب وفتوح البلاد الأخرى، فالنواة العربية الأولى التى تمثلت فى الجيش الإسلامى دخلت أفريقية مرات وردتها أفريقية مرات، وفى كل مرة كان المسلمون يخلفون وراءهم قلة مستضعفة تقيم فى القيروان أو غيرها وتخلف أثراً فى بعض قبائل البربر، ولم تكن الجيوش العربية المبكرة هى التى عربت المغرب ولكن الهجرات العربية التى جاءت بعد الفتح خاصة فى القرنين الثانى والثالث هى التى أدت إلى إنسياب الدماء العربية بين سكانه وأسرعت فى تعريبه.

وكان سكان المجتمع الأفريقى عند دخول العرب تشملهم ثلاث طبقات هى طبقة الروم البيزنطيين وطبقة سكان المدن أو الأفارقة وما

(١) المرجع السابق، ص ١٦٠.

(٢) المرجع السابق، ص ١٦٩.

يجاورهم، وطبقة البربر، وكان التقسيم اللغوى يتمشى مع هذا التقسيم الاجتماعى، فقد كانت هناك لغة يونانية هى اللغة الرسمية فى أفريقية ـ الولاية البيزنطية، إلى جانب ذلك كانت هناك لغة سكان المدن وهى مزيج من اليونانية واللاتينية والفينيقية التى خلفتها قرطاجنة، وأخيراً كانت اللغة البربرية ويتكلمها البربر فى المناطق الداخلية وكانت قاصرة عليهم.

وقد تغلبت اللغة العربية ـ وهى لغة الدين ـ على اللغة اليونانية التى لم تعش طويلا على ألسنة الناس، فقد هاجر أصحابها فيمن هاجر إلى أسبانيا أو صقلية أو إلى الولايات البيزنطية الأخرى. أما لغة سكان المدن الأفريقية ـ وهى التى كانت مزيجا من كل لغات الأقوام والشعوب التى تعاقبت على الساحل فلم تصمد أمام اللغة العربية التى جاء بهاالعرب واستوطنوا فى المدن الساحلية. ولا شك أن انتشار الإسلام بين السكان الأصليين وما استتبعه من تعلم اللغة العربية أسهم فى تعريب هذا النطاق الساحلى بدرجة فاقت بقية المناطق.

أما اللغة الوطنية الأصلية ـ لغة البربر فقد كانت أقوى فى المناطق الداخلية والهضاب الوعرة، بينما اختفت أو قلت أمام العربية فى السهول الساحلية وفى المدن. وقد أقبل سكان المغرب على الإسلام الذى انتشر بينهم بيسرعة، وعلى تعلم اللغة العربية ـ لغة القرآن والدين.

وقد صاحب التعريب اللغوى لبلاد المغرب تعريب عرقى تمثل فى استيطان القبائل العربية الوافدة إلى مختلف أقاليمه ومصاهرتها لقبائل البربر التى شاعت بينها القيم العربية، وقد سرى التعريب تدريجيا من خلال ذلك. وقد جاء استقرار المسلمين فى بادية الأمر فى مدينتى القيروان وتونس ثم بعد ذلك فى المدن الأخرى التى أسسها المسلمون فى المغرب الأوسط والمغرب الأقصى، وكانت هذه المدن نويات التعريب الذى شمل المغرب كله بعد ذلك.

خاتمة

خرج العرب المسلمون من شبه جزيرة العرب حاملين لواء الإسلام إلى بيئات عديدة يحدوهم فى نشر الدعوة إيمان عميق بالله ورسوله وتدفعهم قوة روحية استمدوها من كتاب الله وسنة نبيه الأمى الذى هداهم فاهتدوا وأخرجهم من الظلمات إلى النور وحولهم إلى قوة عظمى أثرت فى خريطة العالم الدينية والسياسية والاجتماعية تأثيراً كبيراً.

ولكن كيف كان حال العرب قبل الإسلام وكيف كانت بيئتهم وإلى أى حد أسهمت ظروفها القاسية فى توجيه حركة القبائل ودورها فى نشر الإسلام بعد ظهوره وكذلك فى تعريب الأقاليم التى فتحها المسلمون بعد ذلك ؟

الواقع أن بيئة شبه جزيرة العرب هى بيئة صحراوية تتحدى جهود قبائلها وتدعوهم إلى الترحال والانتقال فى هجرات بشرية نحو الأقاليم المجاورة. وكان ذلك مدعاة لنبوغ العرب فى علم الفلك ودرايتهم بطرق الصحراء ومسالكها ومنازل القمر والنجوم ليهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (سورة النحل الآية ١٦)، إضافة إلى أن فقر البيئة دفع بسكانها إلى الاعتماد على أطراف شبه الجزيرة فى تجارتها، ومن ثم ظهرت رحلتا الشتاء والصيف مما ساعد على ربط شبه الجزيرة بهذه الأطراف وبالأقاليم المجاورة مثل بلاد الشام فى الشمال واليمن فى الجنوب مما ساعد على نقل مؤثرات عربية أصيلة إلى هذه الجهات واتصالهما عبر طرق برية وبحرية ومهد الطريق لانتشار الإسلام بسهولة ويسر بعد ذلك.

ولقد عرف سكان شبه جزيرة العرب النظام القبلى، فانتشرت القبائل وتنوعت وتعددت دون أن يكون هناك رابط يربطها بل كان التنافر والتناحر

هما السمة المميزة لهذه إما من أجل موارد المياة أو الكلأ، وإما من أجل الثأر والرغبة فى السيطرة، ومن ثم لم تعرف هذه القبائل علاقة حسن الجوار إلا فى أوقات محددة سرعان ما تزول وتعود القبائل إلى سيرتها الأولى، ولم يعرف العربى على ما يذكر التاريخ حلفاً أو اتحاداً ربما إلا فى فترات محدودة، ودخلت القبائل فى حروب ومنازعات ونتج عن ذلك كله ضعفها أمام الدول القوية التى كانت تحيط بشبه جزيرة العرب مثل الفرس أو الروم.

وقد شهدت شبه جزيرة العرب قبل الإسلام تبايناً دينياً كبيراً بين قبائلها وسادت بها الوثنية واليهودية والمسيحية والزرادشتية، وارتبطت هذه الأديان بقبيلة أو أكثر فى وسط شبه الجزيرة وأطرافها، وقد قسم الرواة أنساب العرب إلى طبقات تبدأ بالجذم أو الأصل وتتفرع بعد ذلك إلى جماعات وشعوب وقبائل وعمائر وبطون وأفخاذ وعشائر وفصائل ورهوط، وكان من أبرز القبائل قريش فى الحجاز وتميم شرقى نجد وعبد قيس فى الأحساء وقحطان فى عسير إضافة إلى قبائل اليمن وحضرموت.

وكانت قبائل العرب العديدة تعيش حياة مستقلة ومتفرقة، كما كانت فى صراع دائم أنهكها إضافة إلى قلة مواردها وفقر بيئاتها، وربما كان ذلك أحد عوامل ضعف مقاومتها للإسلام عند ظهوره والتى سطع نوره من مكة والمدينة، وكان فتح مكة وخضوع قبيلة قريش للدعوة الإسلامية وبعد محاربة طويلة له، أثره الأكبر فى جعل القبائل العربية الأخرى على الإسراع فى قبول الدعوة الإسلامية ولم تأت السنة العاشرة للهجرة إلا وكانت كل القبائل قد دخلت الإسلام وتحولت لأول مرة فى تاريخها إلى وحدة دينية وسياسية فى آن معاً وأخذت على عاتقها نشر

الإسلام وإعلاء رايته خارج شبه جزيرة العرب فامتدت فتوح الإسلام إلى شمال شبه الجزيرة فى العراق وبلاد الشام وواصلت الامتداد شرقا وغربا حتى قضى المسلمون على دولة الفرس واستولوا على كثير من أراضى دولة الروم وواصلوا فتوحاتهم فى شمال غرب أفريقيا والأندلس.

وكانت الطرق التى سلكها التجار والوسطاء وتمرسوا عليها قبل ظهور الإسلام خير مساعد أمام المجاهدينخ والدعاة عند جهادهم فى سبيل الإسلام. واتجهت محاور الدعوة التى انطلقت من شبه جزيرة العرب فى محاور نحو الشمال والشمال الشرقى والشمال الغربى والغرب.

وهكذا اندفع العرب المسلمون من جزيرتهم بقوة خارقة حاملين لواء الإسلام فى القارات الثلاث أسيا وأفريقيا وأوربا : فقد انتشروا من أسبانيا غرباً حتى الهند والصين شرقا. وتم ذلك الفتح على أيدى عدد قليل من الرجال يتفق المؤرخون على أن عددهم لم يتجاوز المائتى ألف رجل فقط كان رائدهم نشر الدين الجديد وهداية البشر وفق رسالته السامية.

ومهما تباينت آراء الباحثين فى دور العوامل الجغرافية فى الفتوحات الإسلامية فإن هذا الدور كان متعدد الجوانب وبشكل مباشر وغير مباشر، فقد أسهم موضع شبه جزيرة العرب فى تأكيد قيمة موقفها لخدمة انتشار الدين الجديد، فالبيئة صحراوية تتخللها أودية وجبال وسماؤها صافية ترصعها النجورم ودعت هذه الظروف إنسان شبه الجزيرة إلى التأمل فى خالق الليل والنهار والسموات والأرض ودفعت موجات من هجرات القبائل العربية قبل ظهور الإسلام نحو الأراضى الخصبة كثيرة الأمطار فى بلاد الشام والعراق واستقرت به حتى إذا جاء الإسلام كانت تلك القبائل العربية رصيداً لدعوته بما لها من علاقات قربى وجوار مع أصولها من

قبائل شبه الجزيرة وأعانت على انتشار الإسلام والتمكين له فى هذه الأراضى بل وانطلقت منه إلى ما وراءها شرقا وغربا كما أصبحت الطرق التى ألفها العرب وسلكوها لنقل تجارتهم قبل الإسلام، طرقًا للفتوح أمام الدعاة والمجاهدين بعد ذلك.

وقد تميز انتشار الإسلام بسمتين مميزتين متباينتين إحداهما نتيجة تحركات نشطة منظمة تحملت أعباءها الجيوش المحاربة والأخرى تمثلت فى الانتشار الذاتى للإسلام والذى جاء نتيجة تحركات تلقائية تحمل مسئوليتها المسلمون من الدعاة والتجار.

وقد استمر اندفاع الفتوح الإسلامية نحو البيئات المختلفة فى السهول والجبال والسواحل ولم يتوقف إلا أمام العقبات المانعة التى استحال عليهم تخطيها. فاستولى العرب على بلاد الشام وفارس والعراق ومصر بسرعة مذهلة، وكسبوا معركة ذات الصوارى البحرية على البيزنطيين سنة ٦٥٤م، وفتحوا السند سنة ٧١٣ م، والأندلس ٧١١م، ووصلوا التركستان الصينية عام ٧١٥م، وتمت هذه الفتوحات الإسلامية العظيمة كلها خلال قرن واحد من الزمان كون العرب فى أعقابه دولة مترامية الأطراف حدودها تخوم الهند شرقا والمحيط الأطلسى وجبال البرانس غربًا وجبال القوقاز شمالا وصحارى أفريقيا والمحيط الهندى جنوبًا.

وقد فرضت البيئ الجغرافية إرادتها أثناء مراحل الفتوح الأولى، وتجلى ذلك بوضوح فى فتح الأندلس عندما اتجه المسلمون بقيادة طارق بن زياد إلى عاصمة القوط - طليطلة واستولوا عليها وساروا بعد ذلك عبر الهضاب والمناطق شبه الصحراوية الصعبة يطاردون فلول القوط فى أقصى الشمال حتى اعتصموا بالجبال الشمالية الشامخة التى تتعرض

للرياح الهوجاء والأمطار الغزيرة مما استعصى على العرب وصعب عليهم اختراقها، وهكذا ظهرت حتمية البيئة الجغرافية في عجز العرب عن قهر المناطق الجبلية الباردة المطيرة كثيفة الغابات شأنها في ذلك شأن جبال طوروس شمال بلاد الشام والقسم الشمالي الشرقي من تركستان والتبت.

وما أن انتصف القرن الثالث الهجرى حتى كانت دولة الإسلام دولة مترامية الأطراف تمتد من المحيط الأطلنطي غرباً حتى بلاد السند وما وراء النهر شرقاً وتشغل أراضي فسيحة من قارات العالم القديم الثلاث، تتباين في سهولها ووديانها وصحاريها وجبالها، وكان المسلمون الأوائل ينظرون إليها على أنها وحدة واحدة لا تفرقها حواجز طبيعية أو حدود أقسام سياسية، وتجلى ذلك في المؤلفات الجغرافية التى عبرت عن (وحدة دار الإسلام) كما جاء عن المقدسي (حوالى ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م) في كتابه « أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم » وقد لعبت الصحارى والجبال دوراً كبيراً في تحديدها بالإضافة إلى وجود مناطق حدودية انتقالية أنشأ فيها المسلمون ثغوراً (تحصينات) دفاعية لحماية دار الإسلام وأبرزها منطقة الثغور في جنوب شرق هضبة الأناضول بين المسلمين والروم ومنطقة الثغور في شمال الأندلس بين المسلمين والقوط. وهكذا كان العالم الإسلامى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى دولة إسلامية موحدة يحكمها خليفة واحد مقره المدينة في العصر الراشدى ودمشق في العصر الأموى وبغداد في العصر العباسى.

وقد ضمت دولة الإسلام الموحدة أقاليم جغرافية عديدة في هذا الامتداد العظيم من الشرق للغرب، واحتوت تباينات مختلفة، ففيها مساحات ضخمة من الأراضى السهلية والأراضى الجبلية والهضاب، كما

أن معظمها صحراوى وعلى أطرافها الشمالية والشمالية الغربية أراضى ذات أمطار شتوية فى نطاق حوض البحر المتوسط، وبها أحواض نهرية كبرى مثل حوض الدجلة والفرات وحوض النيل الأدنى، وسرداريا وأموداريا والسند شرقا وأنهار المغرب والأندلس غرباً.

ورغم أن الجغرافيين القدامى ومنهم المقدسى قسموا دولة الإسلام إلى أربعة عشر إقليما تضم أراضى العرب والعجم، فإنه يمكن تقسيمها إلى تسعة أقاليم جغرافية متميزة بدءاً من منطقة القلب نحو الأطراف، وهى شبه جزيرة العرب، والعراق، وفارس، والسند، وخراسان، وإقليم ما وراء النهر، وبلاد الشام، ومصر، والمغرب، والأندلس.

وكان العرب يطلقون على غيرهم من غير المتحدثين بالعربية إسم الأعااجم، وعندما جاء الإسلام لم يكن لسلالة معينة أو شعب بذاته ورغم أن القرآن نزل عربياً فإن ذلك لم يعنى أنه جاء للعرب وحدهم بل جاء عالمياً لكل الناس من كل الأصول والسلالات، ولذلك قبلته شعوب وأقوام تنحدر من كل السلالات الكبرى فى العالم ولم يحل الجهل باللغة العربية دون فهمها لمعانى الإسلام والقبول بتعاليمه.

وقد عملت الفتوح الإسلامية على اختلاط القبائل العربية التى خرجت مجاهدة من شبه الجزيرة والتأليف بينها وامتزاجها بالمجتمعات الجديدة، وكان تزاوج القبائل واختلاطها يتم فى المدن المفتوحة حين تستقر بها الجيوش. ومن المؤكد أن الهجرات العربية التى كانت العامل الأول في تعريب المناطق التى فتحها المسلمون لم تكن تكفى أعدادها لهذه الرقعة الواسعة فيقدر أن العرب الذين خرجوا من شبه الجزيرة إلى بقية دولة الإسلام حتى أواخر القرن الهجرى الأول نحو مائتى ألف عربى، وجاء

التعريب تدريجيا بعد ذلك، واستمر الصراع بين اللغة العربية ولغات البلاد المفتوحة أمداً طويلا انتهى بتغلب العربية التى أصبحت لغة الدين والدولة معاً ويلجأ إليها الذين يسلمون أو الذين يتعربون، وتناقص عدد المتكلمين باللغة الآرامية فى بلاد الشام مثلا، وباللغة القبطية فى مصر، والتى تلاشت نهائيا بعد الفتح العرب لهما بنحو قرن وأصبحت قاصرة على دراستى هذه اللغة وبعض ورجال الدين من الأقباط.

أهم المراجع العربية

- السيد عبد العزيز سالم، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، ١٩٦١ .

- المقدسى المعروف بالبشارى، أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم، طبع ليدن، ١٩٠٦.

- بارتولد (ف)، تاريخ الحضارة الإسلامية، ترجمة حمزة طاهر، القاهرة، ١٩٨٣ .

- جودة حسنين جودة وعلى هارون، جغرافية الدول الإسلامية، الأسكندرية،١٩٨٤ .

- حسن عبد القادر صالح، البلدان الإسلامية فى قارة أسيا، ضمن كتاب : البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة فى العالم المعاصر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٧٩ .

- حسين مؤنس، أطلس تاريخ الإسلام، الزهراء للإعلام العربى، القاهرة، ١٩٨٧ .

- سليمان حزين، المشرق العربى بين الماضى والحاضر، امجلة الجغرافية العربية، السنة الأولى، العدد الأول، القاهرة، ١٩٦٨ .

- شكرى فيصل، المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول، القاهرة، ١٩٥٢

- صلاح الشامى وزين عبد المقصود، جغرافية العالم الإسلامى، منشأة المعارف، الأسكندرية، ١٩٧٤ .

- عبد الرحمن حميدة، أعلام الجغرافيين العرب، دار الفكر، دمشق، ١٩٨٤ .

- محمد أحمد حسونة، الجغرافيا التاريخية للإسلام، القاهرة، ١٩٥٠

- محمد السيد غلاب، البلدان الإسلامية فى قارة أفريقيا، ضمن كتاب. البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة فى العالم المعاصر، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الرياض، ١٩٧٩ .

- محمد عبد الغنى سعودى، الوطن العربى، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٦٧ .

- محمد عبد المنعم الشرقاوى ومحمد محمود الصياد، ملامح المغرب العربى، القاهرة، ١٩٥٩ .

- محمد محمد سطيحه، الجغرافيا الإقليمية، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٧٥ .

- محمود طه أبو العلا، جغرافية شبه جزيرة العرب، القاهرة، ١٩٧٢ .

- محمود طه أبو العلا، دراسات فى جغرافية العالم الإسلامى، القاهرة، ١٩٦١ .

- يوسف أبو الحجاج، نظرات فى خريطة العالم الإسلامى، المجلة الجغرافية المصرية، العدد ١٦، القاهرة، ١٩٨٤ .

الباب الثانى

جغرافية شبه جزيرة العرب المعاصرة

الفصل الأول

الملامح العامة ومشكلات السكان



الفصل الأول
الملامح العامة ومشكلات السكان

مقدمة

تمثل شبه جزيرة العرب كتلة واسعة من الصخور القديمة تمتد بين البحر الأحمر غربا والخليج العربى شرقا، ومن مشارف تدمر شمالا حتى المحيط الهندى جنوبا، ويكمل وحدتها فى التركيب الجيولوجى تشابه كبير فى الظروف المناخية، فهى – باستثناء اليمن وعمان – لاتزيد أمطارها السنوية على ١٠ بوصات سنويا، كما أن الحرارة بها تعد من أعلى درجات الحرارة فى العالم وأنعكست هذه الوحدة الطبيعية على المظاهر البشرية بها.

وتبلغ المساحة الكلية لشبه الجزيرة العربية حوالى ٢٫٩ مليون كم – تشغل المملكة العربية السعودية ثلاثة أرباعها تقريبا وينقسم الربع الباقى إلى ستة دول تكون خمس منها مع السعودية مجلس التعاون لدول الخليج العربى وهى الكويت والبحرين وقطر والامارات وسلطنة عمان، أما اليمن فقد توحد شطرها الشمالى والجنوبى فى دولة واحدة فى مايو ١٩٩٠. وتتميز شبه الجزيرة العربية بظاهرات تضاريسية أبرزها تلك الهضبة التى تطل على البحر الأحمر بحافة شديدة، فى الوقت الذى تنحدر فيه تدريجيا نحو الخليج العربى (شكل رقم ١).

وتتغطى كتلة شبه الجزيرة بغطاءات شاسعة من الرواسب الحديثة التى تتكون فى معظمها من الحجر الجيرى أو الحجر الرملى، وفى الغرب توجد طفوح اللافا البركانية كمظهر واضح، ورغم أن سطح الأرض يرتفع فى الغرب والوسط الى ١٠٠٠ متر فان هناك حافات تصل إلى ارتفاعات أكثر من ذلك وتبقى السمة الرئيسية فى ارتفاع الحافة الغربية ارتفاعا أكبر كثيراً من المناطق الشرقية حتى أنه إذا تصورنا خطاً يمتد من أبو كمال على نهر الفرات شمالا إلى جزر كوريا موريا جنوبا فان الاراضى الواقعة الى الشرق منه ينخفض سطحها من ٣٥٠ متراً (باستثناء

عمان) بينما ترتفع الهضاب إلى الغرب منه حتى تصل إلى نحو ٣٢٢٥ متراً فى بعض الهضاب البازلتية والبركانية وتسود الصخور النارية فى هذا الاتجاه بل وتمتد على الحافة الغربية من جنوب غرب سوريا شمالا حتى عدن جنوبا بينما تختفى هذه الصخور فى الشرق.

ورغم أن شبه الجزيرة العربية لاتجرى على أرضها أنهار دائمة، إلا أنها تقطعت بشدة بمجموعة من الأودية الجافة العميقة التى تجرى بها المياه عقب العواصف الممطرة، وتتغطى بطون هذه الأودية برواسب صلصالية سميكة.

وتتجه الأودية الرئيسية تبعا للانحدار من الغرب إلى الشرق، والشمال الشرقى نحو الخليج العربى ووادى الفرات، كذلك تنحدر مجموعة من الأودية القصيرة والعميقة نحو البحر الاحمر.

ويمكن تقسيم شبه جزيرة العرب إلى الاقاليم الجغرافية الرئيسية الآتية:-

١- المرتفعات الغربية التى تمتد من خليج العقبة حتى السواحل الجنوبية (تشمل الحجاز وعسير فى غرب المملكة العربية السعودية - والجمهورية اليمنية).

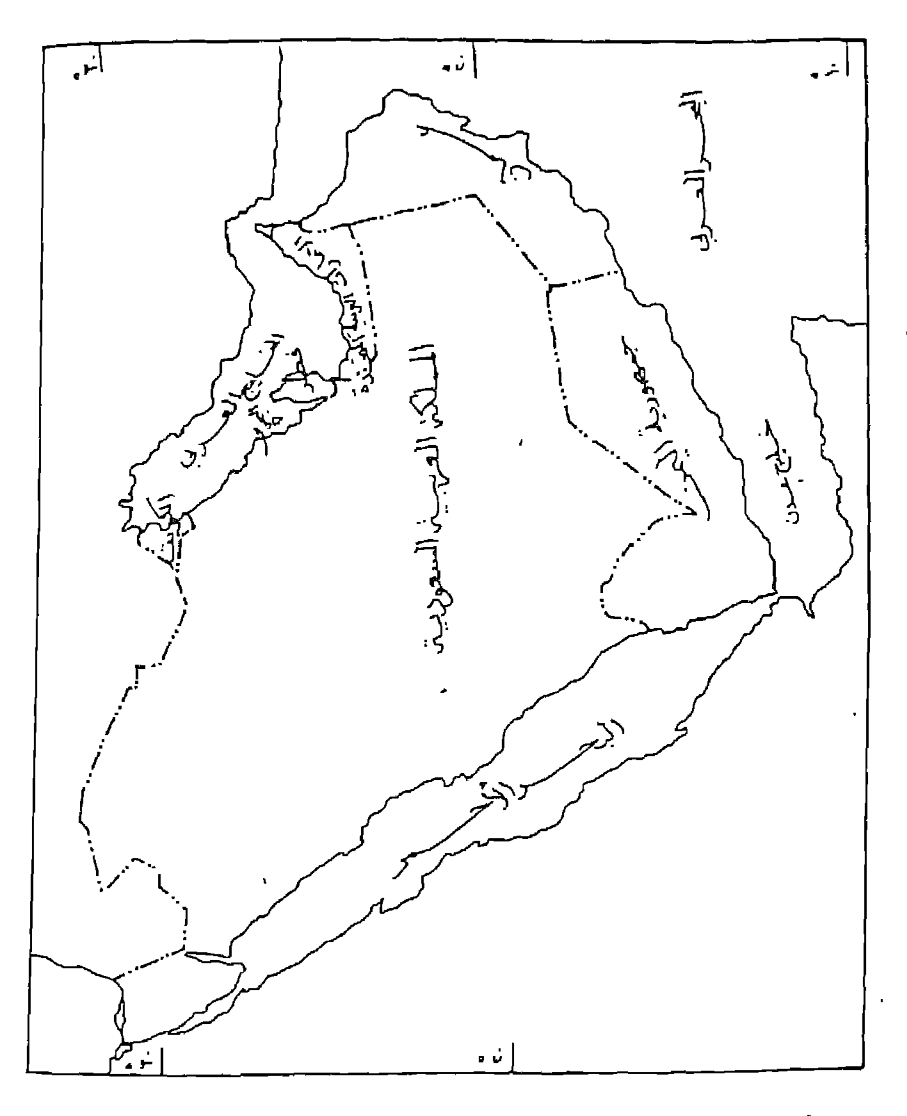
٢- إقليم مسقط وعمان (ويضم سلطنة عمان).

٣- ساحل النفط (الاراضى الساحلية الشرقية) وتشمل دولة الإمارات العربية وقطر والبحرين واقليم الإحساء بالسعودية ثم دولة الكويت).

٤- الاقليم الصحراوى الداخلى (ويشمل نجد والربع الخالى والنفوذ والدهناء فى المملكة العربية السعودية).

وتبدو شبه الجزيرة العربية إقليما جغرافيا متميزا على خريطة الوطن العربى الكبير تبرز فيها المملكة العربية السعودية كدولة عملاقة ورغم أن هذا الأقليم ينقسم إلى عدة وحدات سياسية إلا أن أبرز ما فيه إجتماع إرادة ست من دوله على إنشاء مجلس التعاون لدول الخليج العربية والذى تكون فى مايو ١٩٨١

ويضم الإمارات العربية المتحدة والبحرين، والمملكة العربية السعودية وسلطنة عمان ودولة قطر ودولة الكويت وذلك لتحقيق حرية الإنتقال والعمل والإقامة لأبناء كل دولة فى بقية دول المجلس وحق ممارسة النشاط الاقتصادى وتحقيق التعاون الأمنى وإقامة قوة خليجية موحدة فى إطار سياسة دفاعية متكاملة وتتوفر لمجلس التعاون لدول الخليج العربية مقومات الوحدة السياسية والإقتصادية والإجتماعية، فمساحته حوالى ٢,٥ مليون كيلو متر مربع وسكانه قرابة ٢٥ مليون نسمة (سنة ١٩٩١)، ويحوى أرضه نحو ثلث الإحتياطى العالمى من البترول، وتمثل دوله سوقا هاما للسلع المستوردة، كما تمثل مجالا هاما للعمالة العربية من الدول المجاورة، ويبين الجدول رقم (١) مقارنة رقمية من دولة الست، وكذلك بين جمهورية اليمن - إحدى دول شبه الجزيرة العربية والتى توحد شطرها فى مايو ١٩٩٠.



شكل رقم (١١) دول شبه الجزيرة العربية

جدول رقم (١) مقارنة رقمية لاقطار شبه الجزيرة العربيه –١٦٦١

(مرتبة حسب المساحة)

البيان / القطر	المساحة بالكيلو متر مربع	عدد السكان	نسبة سكان المدن (٪)	نسبة التعليم (٪)	معدل نمو السكان ٪ سنويا	إجمالى الناتج القومى (مليار دولار)	نصيب الفرد من الناتج القومى بالدولار سنويا
(١) مجلس التعاون لدول الخليج العربية :							
– المملكة العربية السعودية	٢,١٥٠,٠٠٠	١٧,٨٦٩,٠٠٠	٧٣	٦٢	٣,١	٧٩,٠	٤٨٠٠
– سلطنة عمان	٢١٢,٤٦٠	١,٥٣٤,٠٠٠	٩	٢٠	٢,٣	٧,٧	٥٢٢٠
– الإمارات العربية	٨٣,٦٠٠	٢,٣٨٩,٠٠٠	٧٥	٦٨	٣,٥	٢٨,٤	١٢١٠٠
– الكويت	١٧,٨٢٠	٢,٠٢٤,٠٠٠	٩٥	٧١	٢,٧	١٩,٩	١٩٧٠٠
– قطر	١١,٠٠٠	٥١٨,٠٠٠	٧٧*	٧٦*	٥,٤	٦,٦	١٢٥٠٠
– البحرين	٦٢٠	٥٣٦,٠٠٠	٨٢*	٧٧*	٢,٤	٣,٤	٧٣٠٠
الجملة	٢,٤٧٥,٥٠٠	٢٤,٨٧٠,٠٠٠	٧٢	٦١	٣,١	١٤٥,٠	٥٨٣٠
(٢) اليمن	٥٢٧ ٩٧٠	١٠٠٦٢٠٠٠	٣٠	٣٨	٣,٥	٥,٣	٥٤٥
جملة شبه الجزيرة العربية	٣,٠٠٣,٤٧٠	٣٤,٩٣٢,٠٠٠	٥٩	٥٥	٣,٢	١٥٠,٣	٤٣٠٠

المصدر : (١) The Wold Almance and Book of Facts 1993.

(٢) المعهد الدولى لشئون البيئة والإنماء ومعهد الموارد العالية – موارد العالم ٨٨ – ١٩٨٩

أولا - توزيع السكان:

نمط التوزيع السكانى بشبه الجزيرة العربية:

يختلف التوزيع السكانى بشبه الجزيرة العربية اختلافا كبيرا عن أنماط التوزيع فى أقاليم الوطن العربى الأخرى، ويبدو ذلك فى حجم السكان بهذه الأقطار ومستويات الكثافة وتطورها ومؤثراتها، فشبه الجزيرة العربية بأكملها - فيما عدا اليمن - صحراء حارة، اتخذ طابع الإستيطان السكانى بها نمطين مميزين: الأول يمتاز بالكثافة السكانية العالية (فى المدن الكبرى والمتوسطة) وفى الثانى يمتاز بالكثافة السكانية المنخفضة (القبائل البدوية والتجمعات المتفرقة التى تتواجد حول مناطق توفر المياه وأسباب الحياة البدوية). وارتبط التوزع السكانى بها على مر التاريخ بالوحدات المبعثرة وبطون الأودية ومن ثم تتضاءل للغاية أهمية الزراعة ومن ثم مساحة الأرض الزراعية ويصبح من غير المنطقى الحديث عن كثافة نظرية فى هذه الصحراء الشاسعة التى تقارب مساحتها ٢،٥ مليون كيلومترا مربعا ويسكنها ٢١،٩ مليون نسمة سنة ١٩٩١.

ويتركز سكان هذا النمط الخليجى فى أربعة أقاليم هى الإقليم الشرقى. أو ساحل النفط، ثم إقليم الباطنة والجبل الأخضر فى سلطنة عمان، والإقليم الأوسط فى منطقة نجد، ثم الإقليم الغربى فى مثلث المدينة المنورة -مكة المكرمة- جدة وأمتداده نحو الجنوب حتى أبها وجيزان.

ويعيش معظم سكان الإقليم الشرقى المطل على الخليج العربى فى مدن يتفاوت حجم سكانها تفاوتا كبيرا، بل أن هذا الإقليم تتركز به الظاهرة الفريدة فى التوزع السكانى التى ارتبطت ببنائه السياسى وهى الظاهرة المعروفة «بدولة المدينة» والتى كانت أساسا لقيام بعض دول مثل الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة إلى حد كبير، وقد ترتب على ذلك ارتفاع نسبة سكان

الحضر فى هذه الأقطار لتصل إلى أعلى مستوياتها فى الوطن العرب بأكمله، فقد بلغت هذه النسبة ٩٥ ٪ فى الكويت و٨٨ ٪ فى قطر، و٨١ ٪ فى البحرين و٧٨ ٪ فى الإمارات العربية المتحدة. وعلى ذلك تصبح كثافة السكان الفعلية فى هذه الأقطار كثافات مدن تأخذ فى الاعتبار حجم السكان فى المساحة المأهولة وليس المساحة الزراعية فى الدولة. ففى الكويت على سبيل المثال بلغت مساحة الجزء المعمور من أراضيها نحو ١٦٠ كيلومترا مربعا يعيش عليها نحو ١,٦ مليون نسمة سنة ١٩٨٣ مما يعطى كثافة فعلية قدرها ١٠٤٢٧ نسمة فى الكيلومتر المربع، وقد بلغت الكثافة فى مدينة الكويت ذاتها ١٠٥٨٠ نسمة/كم٢ وفى حولى ١٦٦٤٧ نسمة، والفحاحيل ٢٥٨٠ نسمة وينطبق هذا الوضع بصورة عامة على باقى دول الإمارات حيث تتجمع الغالبية العظمى بين السكان فى المناطق الحضرية.

ويتوزع سكان الكويت فى أربع محافظات هى حولى التى يعيش بها ٥٥ ٪ من جملة السكان والأحمدى (١٨ ٪) والجهرة (١٦,٥ ٪) والعاصمة (٩,٩ ٪) وذلك وفق تعداد ١٩٨٥ ، وتتزايد الكثافة باستمرار عوامل الجذب الكامنة والناجمة عن استثمار عوائد النفط وخطط الحكومة من خلال برامج الاسكان الحضرى.

أما البحرين -فهى أصغر أقطار الوطن العربى مساحة (٦٦٢ كيلومتر مربعا) وسكانا (٤٠٠,٠٠٠ سنة ١٩٩١)، ومن ثم فهى أعلى الأقطار العربية كثافة. فقد بلغت الكثافة النظرية بها ٦٠٤ نسمة/كم٢، إلا أن أكثر من أربعة أخماس سكانها يتركزون فى العاصمة وضواحيها ويتبع ذلك ارتفاع الكثافة الحقيقة التى ارتفعت من ٧٠٠٠ نسمة لكل كيلومتر مربع سنة ١٩٧٤ إلى ١٠١٨٠ نسمة سنة ١٩٩١ . وليست هذه الكثافة العالية وليدة عصر النفط وإنما هى قديمة بسبب العراقة التاريخية لحرف التجارة وصيد الأسماك والغوص والزراعة المحلية.

ويميل سكان البحرين إلى التركز فى شمال الجزر خاصة فى منطقة المنامة، وجزيرة المحرق، ويسكنهما وحدهما نحو ثلثى السكان. ويقل السكان جدا بالاتجاه فى الجزر جنوبا وغربا، ويندرون فى جنوب جزيرة البحرين وجزر حوار وأم النعسان.

وفى قطر يعيش ٨٨٪ من السكان فى مدينة الدوحة وضواحيها مثل الريان والوكرة وأم صلال رغم أن مساحتها تبلغ نحو ١٦٪ من جملة مساحة البلاد، بينما تكاد المنطقة العربية الجنوبية تخلو من السكان فلا يقطنها سوى نصف فى المائة من جملة السكان يعيشون فى ٣٦٪ من مساحة قطر، ويكثر السكان فى مراكز الاستقرار الساحلية، نظرا لأن فقر البيئة دفع السكان منذ القدم نحو البحر طلبا للرزق، وتزايدت أحجام بعض المراكز الساحلية حديثا لأسباب خاصة، فتكاثر فيها السكان منها ميناء أمسيعيد حيث مصب النفط ودخان التى يقع فى ظهيرها حقل البترول البرى الكبير.

ورغم تشابه نمط التوزع السكانى فى الإمارات العربية المتحدة مع بقية أقطار النفط بشبه الجزيرة العربية، ومن تدنى الكثافة العامة وتركز السكان فى الحضر مما يجعل الكثافة الفعلية عالية، فان هناك تباينا أقليميا فى الإمارات السبع المكونة للدولة، ويتوزع السكان الذين بلغ عددهم ٥٥٧٨٨٧ نسمة فى تعداد ١٩٧٥ وقدروا بنحو ٢,١ مليون نسمة سنة ١٩٩١ فى مساحة بلغت ٧٧٧٠٠ كيلومترا مربعا بكثافة عامة بلغت ٢٧ نسمة. وحسب تعداد سنة ١٩٧٥ كان هناك ٣٤٠ مركزا عمرانيا ٧٠٪ منها عبارة عن قرى صغيرة لايتعدى عدد سكان كل منها ٢٠٠ نسمة فقط. وذلك فى الوقت الذى استحوزت فيه المدن على ٨٤٪ من جملة السكان.

ويتباين التوزع السكانى بين الإمارات السبع تباينا كبيرا، فتعد إمارة أبو ظبى

أكبر هذه الإمارات مساحة وسكانا، غير أن كلا من إمارتى دبى والشارقة تستحوزان على ما يقرب من نصف السكان رغم أن مساحتهما لاتزيد عن ٨٪ إلا قليلا. (جدول رقم ٢) ثم تأتى بعد ذلك أصغر الإمارات فى المساحة والسكان وهى أم القيوين والفجيرة وعجمان حيث لاتزيد نسبة كل منها عن ١,٥٪ و٣٪ على الترتيب فى أية إمارة من هذه الإمارات.

ومن ذلك يبدو أن أبرز مظهر للتوزع السكانى فى الإمارات هو التركز السكانى فى نويات مركزية تكون قلب كل إمارة فى الواقع وبكثافة فعلية عالية،ويعيش فى هذه النويات النسبة العالية من السكان، بينما تتبعثر النسبة القليلة الباقية على رقعة الإمارة. وتبدو نويات التركز السكانى بوضوح شديد فى إمارات دبى وعجمان وأم القيوين والشارقة. أما باقى الإمارت فتختلف عن هذا النمط حيث يتوزع سكان إمارة أبوظبى فى العاصمة وفى مدينة العين بنسبة كبيرة، والباقى فى الصحراء وعند حقول النفط. وتعد إمارة الفجيرة أكثر الإمارات السبع فى التجانس الإقليمى للتوزع السكانى على رقعتها، وكذلك الحال فى أمارة رأس الخيمة، وإن كانت العاصمة المحلية والمنطقة الشمالية تحظيان بأعلى نسبة فى توزع السكان فى هذه الإمارة.

وتختلف صورة التوزع السكانى فى سلطنة عمان عن بقية إقليم ساحل النفط فى شبه الجزيرة العربية، وذلك انعكاسا للتباين البيئى فيها بين سهل الباطنة ومرتفعات الجبل الأخضر وإقليم ظفار. وقدر عدد السكان بحوالى ٧٦٦٠٠٠ نسمة سنة ١٩٧٥ ارتفع تقديرهم إلى ١,٦ مليون نسمة سنة ١٩٩١، ويشكل سكان الريف قرابة ٧٥٪ من إجمالى السكان بينما لاتتعدى نسبة سكان الحضر ١٦٪ والبدو الرحل ١٠٪ تقريبا.

جدول رقم (٢)

التوزع النسبى للسكان والمساحة ونسبة التحضر

فى الإمارات العربية المتحدة – ١٩٧٥

الإمارة	المساحة	عدد السكان ٪	سكان المدن ٪
أبو ظبى	٨٦٫٧	٣٨٫٠	٨٤٫٢
دبى	٥٫٠	٣٢٫٨	٩٨٫٢
الشارقة	٣٫٣	١٤٫١	٨١٫٣
رأس الخيمة	٢٫٢	٧٫٩	٥٢٫٣
عجمان	٠٫٣	٣٫٠	٨٦٫٠
الفجيرة	١٫٥	٣٫٠	١٧٫٥
أم القيوين	٠٫١٠	١٫٢	٨١٫٧
الجملة	١٠٠٫٠	١٠٠٫٠	٨٣٫٩

المصدر:

هيئة الأمم المتحدة – اللجنة الاقتصادية لغربى آسيا – الوضع السكانى فى منطقة غربى آسيا – الإمارات العربية المتحدة – بيروت – ١٩٨٠ – ص٥.

وفى ضوء ذلك فليست كثافة السكان فى سلطنة عمان كثافة سكانية مدنية عالية، بل تبدو الكثافة الحقيقية منخفضة نسبيا بسبب اتساع الرقعة المأهولة بالسكان سواء فى سهل الباطنة أو الجبل الأخضر. وقد قدرت مساحة الأرض الزراعية بالسلطنة نحو ٤١٠٠٠ هكتاراً فقط (٤١٠ كيلومترا مربعا) مما يجعل كثافة السكان الحقيقية تقدر بحوالى ٣٩٤٧ نسمة فى الكيلومتر المربع، ورغم ارتفاع هذه الكثافة نسبيا إلا أنها لاتعبر عن ضغط سكانى على أرض السلطنة. ويتوزع سكان عمان على أربع مناطق رئيسية بنسب متفاوتة وأكبرها المناطق الجبلية التى يعيش بها أكثر قليلا من خمسى $\frac{٢}{٥}$ عدد السكان. ويليها الباطنة الذى

يتركز به ربع عدد السكان ثم منطقة العاصمة ويعيش بها قرابة عشر عدد السكان، ويأتى بعدها إقليم ظفار بنسبة مماثلة. ومعنى ذلك أن المرتفعات الجبلية فى مسقط بمقدماتها المواجهة للبحر أو بأوديتها الجبلية هى منطقة التركز السكانى الرئيسية فى سلطنة عمان وإذا أضيف إليها سكان منطقة العاصمة –مسقط وتوأمها مطرح– ارتفع سكان هذه الأقاليم إلى قرابة نصف سكان السلطنة ويلى ذلك سهل الباطنة بمراكزه العمرانية العديدة مثل صحم وصحار وشناص.

أما بقية عمان، فيتبعثر فيها السكان بشكل واضح، ويزداد التبعثر فى المناطق الغربية والجنوبية، إلا أن منطقة ظفار تحظى بعدد وفير نسبيا من السكان إذا قورنت بالمناطق المجاورة، وتعد هذه المنطقة فى الواقع منطقة تركز سكانى ثانوى مركزها صلالة، يفصلها عن منطقة التركز الرئيسية بعيدا فى الشمال صحراء جدة الحراسيس.

وتعد المملكة العربية السعودية مثلا فريدا فى الوطن العربى على التغير المثير فى توزع السكان بها فى النصف الثانى من القرن العشرين، فقد شهدت بعد تكونها فى أوائل الثلاثينات طفرة فى نمط التوزع أرتبطت منذ البداية بالنفط الذى شكل الخريطة العمرانية للمملكة وتخللت انعكاساته أنماط تجمعاتها السكانية وأثرت فى توزع السكان فى البادية والريف والحضر على السواء. ويمثل النزوح من البادية أهم ديناميات هذا التغير لدرجة أنها قد أصبحت تواجه مشكلة تفريقها من سكانها القليلين أصلا. ولم تعد تستوعب سوى نسبة ضئيلة من السكان بينما ارتفعت نسبة سكان المدن بصورة مثيرة من حوالى ٩٪ سنة ١٩٥٠ إلى ٢٥٪ سنة ١٩٧٠ ثم إلى ٧٢٪ سنة ١٩٨٤.

وقد تغيرت الخريطة السكانية المعاصرة للمملكة وعكست بدرجات متفاوتة التغيرات الحضارية التى نجمت عن الإستفادة بعوائد النفط، فقد تغيرت خصائص

التوزع السكانى من التبعثر المرتبط بحرفة الرعى وبعض المراكز الحضارية والريفية المتباعدة إلى درجة من التجمع المرتبط بالمراكز الحضرية القديمة والبازغة. وهذا الاتجاه المعاصر نحو التركز السكانى الشديد -يعد استمراراً بشكل ما -ولكن بمقياس أكبر- لصورة التوزع السكانى القديمة.

وتتميز المملكة العربية السعودية بقلة عدد سكانها الذين بلغ عددهم ٦٫٧ مليون نسمة وفق تعداد ١٩٧٤ وقدروا بنحو ١٥٫٥ مليون نسمة سنة ١٩٩١، وذلك بالقياس لمساحتها التى تبلغ ٢٫١ مليون كيلومترا مربعا. فهى شبه قارة صحراوية ضخمة، تخلو بها مناطق واسعة من السكان مثل منطقة الربع الخالى ذات المليون كيلومتر مربع.

ويتوزع سكان السعودية على وحداتها الإدارية الكبرى التى تنقسم إليها وعددها ١٤ إمارة تتباين فيما بينها فى حجم السكان ونسبتهم (جدول رقم ٣) وتأتى إمارة الرياض على رأس القائمة حيث ضمت أكثر قليلا من ربع عدد سكان المملكة سنة ١٩٧٤، وتليها إمارة مكة التى احتوت قرابة الخمس ثم المنطقة الشرقية وإمارة عسير بنسبة مشابهة، والمنطقة الشرقية هى منطقة انتاج النفط، أما عسير فتمثل الإقليم الجبلى الذى يتمتع بأحسن مناخ فى السعودية بل وتسقط به أمطار كافية للانتاج الزراعى بدون رى.

وتدل أرقام الجدول المذكور أن ثلثى سكان المملكة يعيشون فى أربع إمارات هى: الرياض، مكة المكرمة، والمنطقة الشرقية، وعسير. ويتوزع الثلث الباقى على الإمارات العشر الباقيات وبنسب متفاوتة، ومعظمها إمارات الأطراف والحدود الشمالية مثل حائل والجوف والقريات أو الجنوبية مثل نجران.

جدول رقم (٣)
توزع السكان في المملكة العربية السعودية في عامي ١٩٦٢، ١٩٧٤

المنطقة الإدارية	عدد السكان (بالألف)			
	١٩٦٢	٪	١٩٧٤	٪
الرياض	٦٣٧٫٠	١٩٫٣	١٫٧٥٤٫٠	٢٦٫١
مكة المكرمة	٥٧٥٫٠	١٧٫٤	١٫٢٧٢٫٠	١٨٫٩
المنطقة الشرقية	٣٦٠٫٨	١٠٫٩	٧٦٩٫٦	١١٫٤
عسير	٣٩٣٫٦	١١٫٩	٦٨١٫٤	١٠٫١
المدينة المنورة	١٥٩٫٧	٤٫٨	٥١٩٫٣	٧٫٧
جيزان	٣٦٥٫١	١١٫١	٤٠٣٫١	٦٫٠
القصيم	٢٢٢٫٨	٦٫٧	٣١٦٫٦	٤٫٧
حائل	١٨٧٫٨	٥٫٧	٢٥٩٫٩	٣٫٩
تبوك	٧٥٫٨	٢٫٣	١٩٣٫٨	٢٫٩
الباحة	١٢٠٫٥	٣٫٦	١٨٥٫٩	٢٫٨
نجران	٥٦٫٥	١٫٧	١٤٨٫٠	٢٫٢
الحدود الشمالية	٧٧٫٨	٢٫٣	١٢٨٫٧	١٫٩
الجوف	٤٤٫٠	١٫٣	٦٥٫٥	١٫٠
القريات	٢٠٫٩	٠٫٦	٣١٫٤	٠٫٥
المجموع	٣٢٩٧٫٣	١٠٠٫٠	٦٧٢٩٫٢	١٠٠٫٠

المصدر:

١- حسب أرقام حصر وتعداد السكان ١٩٦٢م. ١٩٧٤م، وقد استبعد من مجموع السكان ٢٨٣٠٠٠ نسمة هم عدد السعوديين المقيمين بالخارج وعدد البادية على الحدود وهم غير مرتبطين بإمارة عن:

عبد الرحمن صادق الشريف: جغرافية المملكة العربية السعودية – الطبعة الأولى – الرياض – ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م – ص ١٣٠.

ولايشذ التوزع السكانى فى المنطقةالشرقية من المملكة عن نمط التوزع الصحراوى بخصائصه المعروفة، فالتركز يوجد حيثما وجد تموارد المياه ومن ثم الزراعة، ويبدو ذلك فى سلسلة من الواحات من أهمها الاحساء والقطيف، ويبدو التوزع السكانى هنا فى تجمعات سكانية كبيرة نسبيا ساعد عليها ووجهها بعد ذلك استخراج النفط وتصديره واستثمار عائداته، ويتمثل ذلك فى كوكبة من المدن لعل أبرزها الدمام والهفوف والخبر والظهران والمبرز.

أمنا منطقتا الرياض والقصيم الإداريتان فتشملان معظم الإقليم الطبيعى المعروف بهضبةنجد، وتعرفان معا باسم (المنطقة الوسطى) والتى تمتد إلى الشرق مباشرة بين سلاسل الحجاز الجبلية. ويرتبط توزع السكان فى هذا الإقليم بتوفر موارد المياه ومن ثم الزراعة وهى تتركز فى الأراضى ذات التربة الرسوبية التى كونتها الوديان وتشكلت بها ما يشبه السهول فى مناطق الخرج والأفلاج والزلفى وبريدة وعنيزة.

وتميل مراكز السكان إلى التجمع فى نقاط محددة، وتحيط هذه التجمعات بحواف الهضبة كدائرة غير كاملة أو كهلال، وتقل كثافتها بالاتجاه من محيط الدائرة نحو مركزها، وتمثل واحات الخرج وحريملاء والزلفى ثم مدينة الرياض أهم التجمعات السكانية فى هذا الإقليم. بل أن الرياض فى الواقع هى أهم تجمع سكانى حضرى فى السعودية، وقد شهدت تمواً سكانيا مثيرا منذ بداية الستينيات عندما قفز حجم السكان بها من ربع مليون نسمة إلى ٦٦٦٨٤٠ نسمة سنة ١٩٧٤ ثم قدروا بحوالى ١٫٥ مليون نسمة سنة ١٩٨٣.

وأصبحت الرياض تمثل نوعا من التكثيف السكانى الشديد الذى ارتبط بالنزوح البدوى نحوها وباستثمار عوائد البترول وتحولها إلى منطقة جذب هجرى قوى للغاية.

أما إقليم الحجاز فيتوزع بين ست إمارات هى المدينة المنورة ومكة المكرمة وعسير والباحة ونجران وجيزان. وتستوعب كلها حوالى نصف سكان المملكة سنة ١٩٧٤ . ويميل السكان هنا إلى التبعثر فى تجمعات صغيرة ترتبط بالساحل والسهل والمرتفعات الجبلية، وتزداد هذه التجمعات جنوبا فى جبال عسير بينما تقل شمالا فى مرتفعات الحجاز، ويتوزع فى السهل الساحلى عشرات من القرى التى تزداد كثافة وحجما فى تهامة مع ظهور مجموعة من المدن الهامة مثل مكة المكرمة والمدينة وجدة ونجران وأبها.

والكثافة النظرية فى المملكة العربية السعودية ضئيلة ومضلله (٣ أشخاص فى الكيلومتر المربع سنة ١٩٧٤ وقرابة ضعف ذلك سنة ١٩٩١). أما الكثافة الفعلية فترتبط بالأرض الزراعية التى قدرت بحوالى ٤٥٠٠ كيلومترا مربعا سنة ١٩٧٤، وحوالى ١١١٧٠ كيلومترا مربعا سنة ١٩٨١ (٣٥٫٤٪ منها تعتمد على الرى والباقى على الأمطار)، وبذلك وصلت الكثافة الفعلية إلى ١٥٥٠ نسمة سنة ١٩٧٤، وتقدر بحوالى ١٣٨٨ نسمة سنة ١٩٩١.

وغنى عن الذكر أن الكثافة السكانية تختلف من إمارة لأخرى فى السعودية، وذلك وفق توفر عوامل الاستيطان البشرى ومساحة الأرض الزراعية والصحراوية فى كل إمارة مما يمكن معه تقسيمها إلى ثلاث فئات أولاها ذات كثافة سكانية مرتفعة نسبيا وتضم إمارة واحدة هى إمارة جيزان (كثافتها النظرية سبعة أمثال متوسط الكثافة بالمملكة) وهى إمارة زراعية يعتمد معظم سكانها على الأنتاج الزراعى وتتضاءل بها مساحة الصحراء. ويلى ذلك فئة الكثافة المتوسطة (تتراوح كثافتها النظرية بين متوسط الكثافة بالمملكة وستة أمثال هذا المتوسط) وتتمثل فى إمارات مكة المكرمة والباحة وعسير والقصيم. والأولى ثانية الإمارات فى حجم السكان وبها عدد كبير من مدن المملكة، أما الباحة وعسير فهما إمارتان جبليتان مناخهما جيد وأمطارهما غزيرة وتحويان أراضى زراعية واسعة، أما القصيم فهى

الإمارة الزراعية بحق فى وسط إقليم نجد الصحراوى. (شكل رقم).

وتسود أدنى الكثافات فى إمارات الفئة الثالثة والتى تتسع بها الأرض الصحراوية، وتضم إمارة الرياض فى وسط المملكة، وإمارة المدينة المنورة فى الحجاز الشمالى. كما تضم بقية الإمارات وهى التى تقع على الأطراف الشمالية والشرقية، وتحوى ضمن ما تحوى صحراء الربع الخالى.

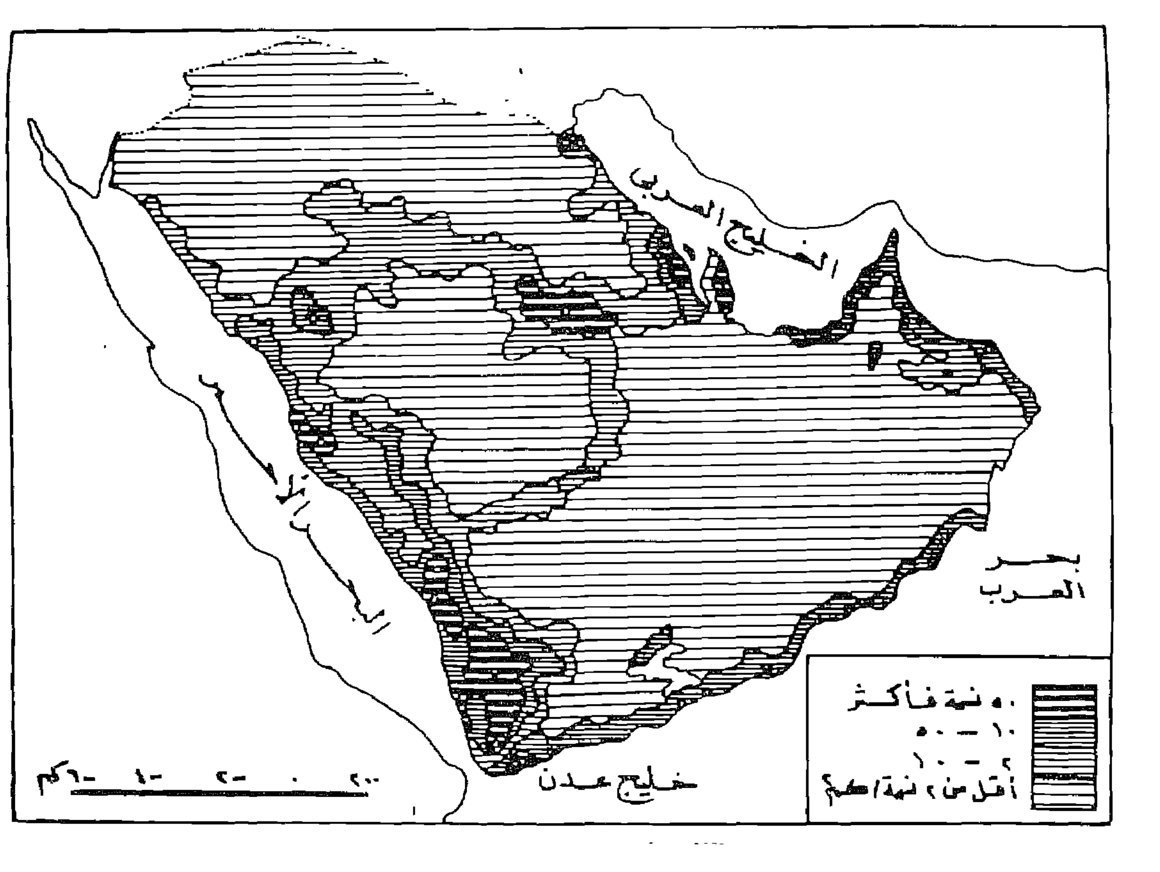
العوامل المؤثرة فى توزيع السكان:

العوامل الطبيعية والاقتصادية:

تسهم الأمطار مع العوامل الطبيعية الأخرى -كالسطح والحرارة وخصوبة التربة بدور رئيسى فى التوزع الجغرافى للسكان فى شبه الجزيرة ولعل تركز السكان فى المناطق الجبلية فى اليمن وتوزعهم حول الآبار والعيون (الغيول)، والأودية التى تجرى فيها السيول أكبر دليل على ارتباط توزيع السكان بعناصر البيئة الطبيعية. فقد كان لعامل الارتفاع دور بارز فى خلق بيئة معتدلة فى الأراضى اليمنية حيث تنخفض الحرارة بالنسبة لبقية أقاليم شبه الجزيرة العربية مما ساعد على الاستقرار والتوطن فيها حيث يبعث مناخها على النشاط وبذل الجهد.

وتعد الأمطار أهم عناصر المناخ التى وجهت التوزع السكانى فوق أرض اليمن، فهى تتمتع بنصيب وفير منها مما ساعد على ممارسة الزراعة وقيام حياة مستقرة فى معظم أنحائه وتتركز الغالبية العظمى من السكان فى الأودية حيث يتوفر الماء، كما استغل السكان مياه الأمطار المنحدرة على جوانب الجبال باقامة المدرجات ذات التربة الخصبة على تلك الجوانب واستثمارها فى الزراعة حيث ترتوى من مياه الأمطار المتساقطة عليها.

ويتركز سكان اليمن فى الهضبة الوسطى (١٥٠٠-٣٠٠٠ مترا) وذلك



شكل رقم (١٢) كثافة السكان فى شبه الجزيرة العربية

لوفرة الأمطار (من ٦٠٠-١٠٠٠ ملليمترا فى السنة) وخصوبة التربة وبالتالى ازدياد كثافة الانتاج الزراعى، فقد ساعد انتظام سقوط الأمطار وخصوبة التربة على استخدام نظام مكثف للزراعة وانتاج المحاصيل الغذائية. وعلى العكس من يقل عدد السكان وتنخفض كثافتهم بالاتجاه نحو الأطراف حيث تتناقص الأمطار وتقل خصوبة التربة مما يترتب على ذلك من قلة كثافة الأنتاج الزراعى وسيادة حرفة الرعى.

أما الصناعة والتعدين فيبدو أثرهما فى توزع السكان فى شبة الجزيرة فى مظهرين أحدهما مباشر ويرتبط بالتركيز السكانى حول الأقاليم الصناعية، والآخر غير مباشر ويتمثل فى أن الصناعة كثيرا ما تتوطن فى المدن وتجذب إليها كثيرا من مهاجرى الريف مما يؤدى إلى احداث تعرية سكانية فى المناطق الريفية مقابل ارساب سكانى فى مناطق الحضر. وتعد المدن الكبرى مراكز صناعية هامة تزايد فيها التصنيع بشكل واضح فى العقدين أو العقود الثلاثة الأخيرة، وأدى ذلك إلى تزايد مقومات الجذب فى هذه المدن ومن ثم إعادة توزيع السكان والميل نحو التركز وليس التشتت.

وتحظى الصناعة والتعدين بأهمية كبرى فى اقتصاديات معظم الأقطار العربية، وقد شهدتا نموا كبيرا منذ أوائل الخمسينات ارتبط باستخراج النفط والغاز الطبيعى واستغلال بعض الموارد المعدنية الأخرى، ووضعت كثير من الدول خططا اقتصادية للتنمية الصناعية من خلال انشاء صناعات جديدة وتطوير القائم منها. وتشير البيانات المتاحة سنة ١٩٨٩ أن الصناعة والتعدين تسهمان بنصيب كبير فى الناتج القومى يصل إلى أربعة أخماسه فى عمان وحوالى نصفه فى السعودية والكويت.

ويعد النفط واستثمار عوائده من أهم عناصر الاقتصاد العربى الذى أثر فى

التوزع السكانى فى الأقطار المنتجة له خاصة فى شرق شبه الجزيرة العربية. فقد استخدمت عوائد النفط فى تطوير المراكز العمرانية القائمة وإنشاء بعض المدن التى استوعبت أعدادا غير قليلة من السكان سواء من المواطنين الأصليين أو من المهاجرين الوافدين. وقد تحولت مدن شرق السعودية والكويت والإمارات العربية إلى مناطق جذب سكانى قوى غير من صورة التوزع بها، وزاد من كثافتها بشكل لم يحدث فى تاريخها من قبل.

ولم يقتصر دور النفط على إعادة توزيع السكان فى شرق شبه الجزيرة العربية فقط، بل امتد أثره خارج مناطق استخراجه بشكل واضح. فقد انعكست بعض عوائده على تنمية مدن أخرى وتطوير البنية الأساسية بها مما ساعد على تقوية عوامل الجذب الهجرى نحوها ومن ثم اتجهت إليها تيارات هجرة ريفية قوية أدت إلى تضخم السكان بها ونموهم بمعدلات عالية.

وفى بعض أقطار الجزيرة العربية يعد النظام القبلى الدعامة التى ترتكز عليها حياة المجتمع كما هى الحال فى شبه الجزيرة العربية. ففى ظل هذا النظام تتركز كل قبيلة فى منطقة أو واد معين وكثيرا مايسمى الوادى أو المنطقة باسم القبيلة، ويبدو ذلك بوضوح فى اليمن فقد كان لظروف البيئة الطبيعية أكبر الأثر فى هذا الشكل التوزيعى القبلى وما يتبعه من قيام جيوب قبلية لها حدودها المعروفة بحيث لايمكن تجاوز هذه الحدود وإلا أدى ذلك إلى نشوب صراع بين القبائل. وقد أدى استمرار هذا الصراع إلى قيام العديد من التكتلات القبلية فى أنحاء عديدة من اليمن.

وقد كان لبعض أشكال الصراع القبلى تأثير على توزع السكان وتشييد الطرق فضلا عن استخدامات تقسيمات إدارية جديدة بما يتلازم مع التجمعات القبلية. فقد فرضت الصراعات القبلية على السكان أن يشيدوا مساكنهم فوق

قمم الجبال، وهى مستوطنات لايمكن أن تجمع سوى عدد قليل من المساكن والسكان. وقد زاد من أهمية هذا النمط السكانى عدم استقرار الدولة واقتصار سلطتها على العاصمة والمدن الكبرى.

ويضاف إلى ذلك أن العامل الإدارى يؤثر فى توزع السكان، حيث يساعد وجود المركز الإدارى على تزايد السكان حيث يصبح مركزا لتجمع الدوائر الحكومية والخدمات والتى تتباين تبعا للمرتبة الإدارية. لذا يفضل سكان المناطق الحضرية استيطان عاصمة الدولة أولا ثم المحافظة ثم عاصمة القضاء أو المركز فى حين تكون الخدمات محدودة للغاية فى القرى والمحلات العمرانية الأصغر، ولذا تضم المدن تجمعات سكانية كبيرة بسبب تركز الأجهزة الإدارية ومختلف الخدمات الحكومية والاقتصادية.

الهجرة الوافدة :

شهدت شبه جزيرة العرب بعد الحرب العالمية الثانية نمطا فريدا من أنماط الهجرة الوافدة صاغه وحدده النفط العربى واستثمار عوائده فى دول الخليج، وأدت الطفرة الاقتصادية التى شهدتها هذه الدول إلى تزايد هائل للطلب على القوى العاملة زاد من حدته التخلف الكبير فى الموارد البشرية المحلية، وتمكنت هذه الأقطار من جلب قوى عاملة عربية وغير عربية بأجور عالية عوضتها عن المناخ الصحراوى القاسى مما أدى إلى تدفق كثيف للغاية للعمالة الوافدة باتجاه هذه الأقطار.

وكانت الكويت منطقة الجذب الأولى للهجرة العمالية الوافدة منذ أواخر الأربعينات وسرعان ما حذت أقطار خليجية أخرى حذوها فى استيراد العمالة مما أدى إلى تزايد كبير بشكل لم تشهده منطقة الخليج من قبل وتزايدت معدلات النمو السكانى حتى وصلت إلى أرقام فريدة تتراوح بين ٢٠٪ و٣٠٪ سنويا فى بعض الأقطار الخليجية فى الفترة من ١٩٦٥–١٩٧٠.

وقد أشتد تيار الهجرة نحو أقطار الخليج منذ سنة ١٩٧٤ بصورة واكبت تصاعد أسعار البترول واستثمار عوائده وصاحب ذلك التدفق الهجرى القيود التى وضعت بشأن الهجرة نحو الدول الصناعية الغربية، وأدى تزايد الطلب على القوة العاملة الأجنبية فى دول النفط إلى اتجاهها نحو شبه القارة الهندية وجنوب شرق آسيا لتأمين احتياجاتها منها وأدى ذلك إلى تصاعد مفاجئ فى أعداد الاسيويين من عدة آلاف سنة ١٩٧٥ إلى أكثر من نصف مليون سنة ١٩٨٠ (٥٦٤ ألف مهاجر) جاء معظمهم من الهند (٤٢ ٪)، والفلبين (٢٣٫٣ ٪) وكوريا (٢١٫٤ ٪) وبنجلاديش (٥٫٤ ٪) وسرى لانكا (٤٫٣ ٪) وتايلاند (٣٫٦ ٪).

ويبين الجدول رقم (٤) أن التيار الاسيوى يعظم بشكل ملفت للنظر فى دولة الإمارات العربية (٤٧٫١ ٪ من الاسيويين فى الخليج) وسلطنة عمان (١٥٫٧ ٪) والسعودية (١٤٫٣ ٪)، أى أن أكثر من ثلاثة أرباع الاسيويين يوجدون فى هذه الأقطار الثلاثة ويتوزع الباقى بنسبة متقاربة فى الكويت وقطر والبحرين.

ويبين الجدول رقم (٤) حجم تيارات الهجرة العربية نحو دول النفط ومنه يبدو أن أكبر التيارات تتجه نحو السعودية والكويت ودولة الإمارات، وقد أثرت هذه التيارات تأثيرا جذريا فى تركيب القوة العاملة بهذه الأقطار حيث أصبحت تمثل ما يزيد على ثلثى حجم العمالة بها بل تقترب من أربعة أخماس هذا الحجم فى الكويت وقطر والإمارات (جدول ٤).

جدول رقم (٤)

الهجرة الدولية نحو دول النفط العربية بالخليج وليبيا بالالف (١٩٨٠)

دول مستقبلة / دول مصدرة	السعودية	الإمارات	الكويت	قطر	البحرين	عمان	دول مجلس التعاون	ليبيا (١٩٧٦)
الأردن / فلسطين	٣٥٧	٣٧	٣ر٤	١٧	٣	٥	٨٠٣	١٨
اليمن الشمالى	٣٢٢	٦	٥	٢	٢	(*)	٣٣٧	–
مصر	٢٠١	١٢	٦١	٤	٣	١٠	٣٠٠	٣٨٠
اليمن الجنوبى	١٥٣	٩	١٢	٢	٢	(*)	١٧٨	–
سوريا	٤٤	١١	٤١	٢	(*)	١	٩٩	١٧
السودان	٧٢	٣	٢	١	(*)	١	٧٠	٩
لبنان	٣٨	١١	٢٥	١	(*)	٣	٧٨	٧
عمان	٤١	٢١	٧	٣	٢	(*)	٧٤	–
العراق	٥	١	٤٥	(*)	(*)	(*)	١٥	–
جملة العرب	١٤١٣	١٢٠	٤٠٢	٣٢	١٢	٢٠	١٩٩٩	٤٣١
ايران	١٣	١٥	٤١	٥	٤	(*)	٧٨	–
دول أسيوية	٩٤	٣١١	٥٦	٥٨	٣٧	١٠٤	٦٦٠	–
دول أخرى	٤٥	١١	٤	٢	٣	٨	٧٣	٨٨(**)
الجملة	١٥٦٥	٤٥٧	٥٠٣	٩٧	٥٦	١٣٢	٢٨١٠	٥١٩
٪	٥٥ر٧	١٦ر٣	١٧ر٩	٣ر٤	٢ر٠	٤ر٧٠	١٠٠ر٠	–

(١) المصدر:

(أ) ج.س. بيركس، س. سنكلير –١٩٨٠– الهجرة الدولية والتنمية بالمنطقة العربية (جدول ١٤).

(ب) مساعد العصيم –العوامل المحددة لمستويات الاستخدام. ومعدلات مختلف نوعيات الهجرة (دراسة حالة الكويت) فى سياسات الاستخدام وانتقال العمالة العربية –١٩٨٦– ص ٣٢٣.

(جـ) ج.س. بيركس، س.ستكلير – السكان والهجرة الدولية فى الدول العربية: المعطيات الأساسية –بيروت– ١٩٨٠.

(*) أقل من ٥٠٠

(**) يشمل ٥١ ألف تونسى.

الخصائص العمرية - النوعية للمهاجرين

إذا كانت الهجرة الدولية فى شبه الجزيرة العربية متعددة الأنماط فإن لها خصائص مميزة أبرزها أن التيار الأكبر من حركة السكان الخارجية هو تيار القوة العاملة. كذلك فإن الحجم الأكبر من المهاجرين العرب خارج أوطانهم يتكون من الذكور فى سن العمل.

وتبدو ظاهرة الانتقاء العمرى النوعى فى الهجرة من كل الأقطار العربية دون استثناء ولكنها تظهر بشكل حاد فى الهجرة من اليمن حيث تكاد تكون فى معظمها هجرة ذكور للعمل فى الخارج، فقد بلغت نسبة المهاجرين الذكور ٦٨٫٨٪ من جملة عدد اليمنيين فى الخارج وعددهم ١٫١٦٨٫٢٠٠ وفق تعداد ١٩٨٦ . كما بلغت نسبة النوع ٢٢١ من الذكور مقابل كل مائة من الأناث.

ويبين الجدول رقم (٥) نسبة النوع من أهم دول استقبال المهاجرين وارسالهم، ومنه يبدو بوضوح ظاهرة الانتقاء الهجرى العمرى النوعى فى مناطق الاستقبال حيث تتكاثف الهجرات الوافدة، ويتركز التراكم الهجرى للذكور خاصة فى المرحلة العمرية الوسطى (٢٠-٥٠ سنة) وتلك حقيقة أظهرتها كل تعدادات الدول النفطية المستوردة للعمالة على نطاق واسع ويرجع ذلك فى المقام الأول إلى أن هجرة العمالة نحو الدول النفطية ليست هجرة إستيطانية بل مؤقتة، ومن ثم تكون هجرة ذكور لايصطحبون عائلاتهم فى الأعم وتشتد رغبة الأقطار المستوردة للعمالة فى هذا النوع من الهجرة.

جدول رقم (٥)

نسبة النوع فى أهم دول الهجرة الوافدة والمفادة ولدى المهاجرين فى منطقة الخليج

فئات السن	نسبة النوع لدى المهاجرين(٢)	دول استقبال			دول ارسال		
		السعودية	الكويت	الإمارات	اليمن	الاردن	مصر
أقل من ٥	١٤٤	١١٣	١٠٣	١٠٥	١٠٦	١٠٨	١٠٦
٥-٩	١٤٨	١١٣	١٠٥	١٠٥	١٠٧	١٠٩	١٠٦
١٠-١٤	١٧١	١٢٠	١٠٢	١٠٦	١٠١	١١١	١٠٥
١٥-١٩	٢٥٥	١٤٣	١١٧	١٠١	١٠٢	١١٠	١٠٧
٢٠-٢٤	٣٨٣	١٦٥	١٣٧	٢٢٦	١٠١	١٠٥	١١١
٢٥-٢٩	٤٠٨	١٧٥	١٦٥	٣٦٦	٧٨	٩٥	١٠٩
٣٠-٣٤	٤٢٠	١٧٨	١٦٧	٤٣٨	٦٠	٩٦	٩٨
٣٥-٣٩	٤٤٦	١٧٤	١٨١	٤٥١	٦١	٩٦	٩٣
٤٠-٤٤	٤٤٢	١٥٦	٢١٣	٤٦٥	٦٧	١٠١	٩٥
٤٥-٤٩	٤٤٥	١٤٠	٢١١	٣٩٠	٧٤	١٠٥	٩٥
٥٠-٥٤	٣٥٥	١٣٥	٢١٤	٢٨٠	٧٨	١٠٨	٩٧
٥٥-٥٩	٣٣٧	١٢٠	١٧١	٢١٣	٨٢	١١٣	٩٦
٦٠-٦٤	٢٣٥	١٢١	١٢٦	١٥٥	٨٥	١٠٩	٩٥
٦٥-٦٩	١٧٨	١٠٦	١١٤	١٣٣	٨٦	١٠٦	٩٦
٧٠ +	-	-	٩١	١١٨	٩١	١١٠	٩٢
المتوسط	١٣٥	١٣٥	١٣٤	٢٢١	٩٣	١٠٦	١٠٣

المصدر :

١- مصدر البيانات: تقديرات اللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا - كشوفات البيانات الديمرغرافية ... بغداد ١٩٨٥.

٢- متوسط نسبة النوع لدى المهاجرين الوافدين فى السعودية والكويت والإمارات والبحرين وقطر.

ومن الواضح أن سرعة وفود المهاجرين إلى دول النفط الخليجية قد أدى إلى زيادة كبيرة فى نسبة الذكور وإن كانت بيانات الكويت فيما بين عامى ١٩٥٧ ، ١٩٨٠ تشير إلى نسبة الإناث بين المهاجرين قد زادت بعد سنة ١٩٧٠ عما كانت عليه سابقا. وتعد نسبة النوع بين المهاجرين الذين هم دون سن الخامسة عشرة طبيعية فى الكويت والإمارات مما يشير إلى أن معظم هؤلاء ربما ولدوا فى بلدان الاستقبال، فإذا استمروا فيها وإذا تدنت سرعة التدفقات الجديدة بين المهاجرين فإن نسبة النوع بينهم ستعكس زيادة فى نسبة الإناث بين البالغين أيضا.

والإناث المهاجرات يدخلن البلاد المستقبلة بصفتهن أفراد أسرة وليس للعمل وذلك باستثناءات قليلة بطبيعة الحال - ورغم التزايد فى استخدام الإناث غير المواطنات فمازال معظمهن يفضل البقاء فى المنزل مما يخفف الدوافع لخفض الخصوبة بينهن. ونتيجة لذلك يزداد عدد الأطفال غير المواطنين فى البلدان المستقبلة للمهاجرين.

وكما سبق القول تعد اليمن - وهى دولة هجرة مغادرة رئيسية - مثالا واضحا على الخلل فى توزيع السكان عمريا ونوعيا بها بسبب الهجرة.ويظهر ذلك بوضوح فى انخفاض عدد الذكور عن الإناث فى المدى العمرى ٢٥-٧٥ سنة، ويبلغ غياب الذكور عن المجتمع أقصاه فى فئة العمر ٣٠-٣٤ حيث بلغت نسبة النوع ٦٠ من الذكور مقابل كل مائة أنثى. ويعنى ذلك ضمنا غياب الأزواج الأباء لفترات طويلة مما يحدث تصدعاً فى النسيج الاجتماعى للدولة.

جدول رقم (٦)

حجم الهجرة الدولية الوافدة فى معظم الأقطار العربية

الدولة	السنة	عدد السكان (بالالف)	عدد الأجانب (بالالف)	٪ من عدد السكان
الامارات	١٩٨٥	١١١٧	٧١٣	٦٣٫٨
الكويت	١٩٨٥	١٦٩٥	١٠١٥	٥٩٫٩
قطر	١٩٨٥	٢٤١	١٢٦	٥٢٫٣
البحرين	١٩٨٥	٤٣٥	١٥٩	٣٦٫٥
السعودية	١٩٨٥	١٢٦٤٣	٣٨٧٨	٣٠٫٧
عمان	١٩٨٥	١٢٩٣	٣٢٠	٢٤٫٧

(١) المصدر :

- دول الخليج تقديرات الاسكوا استنادا إلى التعدادات والمسوحات الرسمية راجع: المعهد العربى للتخطيط بالكويت واللجنة الاقتصادية والاجتماعية لغربى آسيا - سياسات الاستخدام وانتقال العمالة العربية - ١٩٨٦ - ص ١٣٨.

أثر المشكلات السياسية فى الهجرة الدولية لشبه جزيرة العرب:

ترتبط الهجرة الدولية فى شبه الجزيرة ارتباطا وثيقا بالمشكلات السياسية والعلاقات التى تربط دولها بعضها ببعض وكذا التى تربطها بغيرها من دول العالم الأخرى. وليست تلك المؤثرات وليدة العقود الأخيرة فقط بل هى سمة مميزة على امتداد القرن العشرين فى الواقع. فمنذ منتصف الثلاثينات وقبلها بقليل جلبت الشركات البريطانية عمالة هندية للعمل فى مشروعات البحث عن النفط واستخراجه من إمارات الخليج العربى، وانعكست المشكلات السياسية التى شهدتها بعض الأقطار العربية فيما بعد الحرب العالمية الثانية على حجم الهجرة واتجاهاتها. فقد أدت حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ وقيام اسرائيل إلى طرد الفلسطينين من ديارهم إلى الدول العربية المجاورة لفلسطين بل وإلى دول الخليج العربى التى استقبلت عددا كبيرا من فلسطينى المهجر وذلك للإسهام فى عمليات التنمية المختلفة بها. وكانت الكويت أبرز الدول الخليجية التى أدت الهجرة الفلسطينية نحوها إلى مضاعفة حجم سكانها فى ثمان سنوات فقط فيما بين عامى ١٩٤٩، ١٩٥٧. كذلك أدت حرب يونية ١٩٦٧ إلى طرد موجة ثانية من الفلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة قدر حجمها بما يتراوح بين ١٥٠,٠٠٠ إلى ٢٥٠,٠٠٠ فلسطينى واتجه الكثير منهم إلى الكويت أيضا. وقد أدت هذه الموجة إلى مضاعفة عدد الفلسطينيين والأردنيين فى الكويت من ٧٨٠٠٠ نسمة إلى ١٤٨,٠٠٠ نسمة فيما بين عامى ١٩٦٥ و١٩٧٠.

وقد بدأ عدد كبير من المصريين فى الهجرة خارج بلادهم عقب حربى ١٩٦٧ و١٩٧٣ وما أعقبها من تغيرات سياسية واقتصادية خاصة منذ منتصف السبعينات وبعد أن تبنت مصر سياسة الانفتاح الإقتصادى. وإضافة إلى ذلك فقد اتجه عدد كبير من اللبنانيين إلى دول الخليج وغيرها فى أعقاب نشوب الحرب الأهلية فى لبنان سنة ١٩٧٥.

وقد أدت طفرة العائدات النفطية منذ حرب أكتوبر (تشرين) ١٩٧٣ إلى توليد حافز قوى للهجرة الدولية نحو منطقة الخليج، وقد ترتب على التوسع فى خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية بهذه الأقطار تزايد الاحتياجات للقوة العاملة الوافدة ونتج عن ذلك تدفق موجة كبيرة من العمالة العربية وغير العربية نحو منطقة الخليج.

غير أن أبرز تغيير مفاجئ شهدته العمالة الأجنبية الوافدة فى دول الخليج جاء فى أعقاب الغزو العراقى لدولة الكويت فى الثانى من أغسطس (آب) ١٩٩٠. وكان تأثير هذا الغزو على العاملين الأجانب فى الكويت والعراق أكبر بكثير من تأثيره على العاملين فى باقى دول الخليج الأخرى. حيث ترتب على هذا الغزو – ولأول مرة فى تاريخ الهجرة الوافدة إلى خروج جماعى من الكويت ومن العراق استمر قرابة عام كامل فيما بين منتصف ١٩٩٠ وحتى منتصف ١٩٩١.

قبل الغزو العراقى للكويت قدر عدد المهاجرين المقيمين فى العراق بحوالى ١٫٣ مليون مهاجراً وافداً كان حوالى ٧٠٪ منهم من المصريين الذكور الذين هاجروا للعمل فى الزراعة أو الخدمات فى العراق خاصة أثناء حربه مع إيران. كذلك كان بالكويت وحدها مهاجرون ينتمون إلى ٤٨ دولة.

ويعد الاضطراب المفاجئ والخروج الجماعى للسكان والوافدين فى أعقاب الغزو العراقى للكويت واحداً من أكبر مظاهر الخروج الجماعى وإكثرها أثرا فى التاريخ الديموغرافى لمنطقة الخليج، فعلى مدى ١٢ شهرا فقط قدر أن عددا يتراوح بين ٤–٥ مليون نسمة انتزعوا وأجبروا على الخروج فى موجات متعاقبة، وحدثت الموجة الأولى فى الشهور الأربعة الأولى التى أعقبت الغزو مباشرة وفيها اضطر نحو ٢ مليون مهاجر فى العراق والكويت والسعودية للعودة إلى أوطانهم الأصلية. وقد شملت هذه الموجة معظم الوافدين الآسيويين، كما شملت أعداداً

كبيرة من الوافدين العرب. وقدر عدد العائدين الأردنيين - الفلسطينيين بنحو ٢٥٠,٠٠٠ مهاجراً من الكويت ومن ٧٥٠,٠٠٠-٨٥٠,٠٠٠ يمنى طردوا من السعودية فى أكتوبر ١٩٩٠ وذلك بعد إعلان اليمن مساندتها للغزو العراقى. كذلك غادر عدة آلاف من الأجانب العراق معظمهم من الدول الأوربية. وبانتهاء عام ١٩٩٠ فإن من بقى فى كل من الكويت والعراق لم يتجاوز مليون مهاجر أجنبى من أصل ثلاثة ملايين كانوا بالدولتين قبل الغزو.

وجاءت الموجة الثانية لعودة المهاجرين وذلك فيما بين اشتعال حرب تحرير الكويت فى يناير ١٩٩١ وحتى وقف اطلاق النار بعد ذلك. وقد عاد فى هذه الموجة نحو ٦٥٠٠٠ مهاجراً إلى أوطانهم.

وبعد أسابيع قليلة من تحرير الكويت فى آخر فبراير ١٩٩١ انتقل النزاع المسلح إلى العراق ذاته حيث بدأت معارك أخرى قام بها المتمردون الشيعة فى جنوب العراق والمعارضة الكردية فى الشمال ضد القوات الحكومية العراقية. ففى خلال مارس وأبريل ١٩٩١ حدثت موجة ثالثة من الازاحة السكانية الضخمة والتى وصفها البعض بأنها أسرع أضخم حركة لاجئين فى تاريخ الأمم المتحدة، فقد هرب نحو ٢ مليون كردى وشيعى من العراقيين إلى تركيا وإيران. ولكن عقب التدخل الدولى لحماية هذه الجماعات بدأت موجة العودة فى مايو من نفس العام.

وقد تعاونت كثير من دول العالم فى إجلاء كثير من المهاجرين العائدين من دول الخليج أثناء الغزو العراقى للكويت. وأصبحت كل من عمان والعقبة فى الأردن نقطتين مركزيتين لتجميع المهاجرين ونقلهم إلى بلادهم. وقد قدر عدد الذين تم إجلاؤهم عبر الأردن نحو ٧٥٠,٠٠٠ عائدا.

وقد أنشئت لجنة للتعويضات تابعة للأمم المتحدة، وقامت من خلال منظمة

العمل الدولة بمساعدة طالبى التعويضات على مستوى عالمى أظهر دور العلاقات الدولية فى الهجرة ونتائجها فى مثل تلك الأزمة الضخمة التى تعرض لها الوطن العربى. ووفقا لتقديرات الأمم المتحدة قدر عدد طالبى التعويضات بنحو مليونى متضرر بلغت التعويضات المطلوبة لهم ٥ مليار دولار. وذلك إضافة إلى الخسائر الجسيمة الأخرى التى لحقت بدول الخليج وباقى الدول العربية الأخرى بسبب هذا العدوان العراقى الغاشم والذى لم يكن له ما يبرره على الإطلاق جغرافيا أو تاريخيا أو سياسيا.

الفصل الثاني

المملكة العربية السعودية

تشغل المملكة العربية السعودية الجزء الأكبر من مساحة شبه جزيرة العرب حيث تصل مساحتها إلى ٢٫١٤٩٫٦٩٠ كيلومترا مربعا أى نحو أربعة أخماس شبه الجزيرة العربية، وقدر عدد سكانها بحوالى ١٧٫٨ ميلون نسمة سنة ١٩٩١. وتحدها العراق والأردن من الشمال واليمن وسلطنة عمان من الجنوب والجنوب الشرقى والإمارات العربية وقطر من الشرق.

وتطل السعودية على البحر الأحمر من الغرب، كما تطل على الخليج العربى من الشرق وذلك بجبهة بحرية تقدر بنحو ٢٤١٠ كيلومترا. ويبلغ طول الساحل الغربى للمملكة الذى يحاذى البحرِ الأحمر ١٨٠٠ كيلومتراً بين العقبة شمالاً وجيزان جنوباً، وتتبعثر على الساحل موانى عديدة أبرزها الوجه وضباء وينبع وجدة والليث والقنفذه وجيزان. أما الساحل الشرقى المطل على الخليج العربى ويبلغ طوله ٦١٠ كيلومترا وتقوم عليه موانى هامة هى موانئ سعود والجبيل ورأس تنوره والدمام والعقير. ويزيد طول حدود المملكة فى الجنوب وفى الشمال على ١٢٧٠ كيلومترا[1].

وكانت أراضى المملكة موطن العرب الأوائل، ومشرق رسالة الإسلام ومهوى أفئدة المسلمين، فالمملكة عربية إسلامية، وهى طبيعة صاغت طابع المملكة منذ بداياتها التاريخية وشكلت علاقاتها الدولية ومن ثم برز دورها فى العالم كله من خلال جهود متواصلة لتحقيق التضامن الإسلامى وأبراز الشخصية الإسلامية العالمية وذلك كله تدعمه سياسة حكيمة واقتصاد قوى وإيمان بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام.

---

(١) حسن عبد القادر صالح – البلدان الإسلامية فى قارة آسيا – ضمن كتاب البلدان الإسلامية والأقليات المسلمة فى العالم المعاصر – جامعة بن سعود الإسلامية – الرياض ١٩٧٩ – ص ٤٧.

الأقاليم الجغرافية في السعودية

نظراً لأتساع مساحة المملكة العربية السعودية فإنها يمكن أن تنقسم إلى الأقاليم الرئيسية التالية:

أولا: اقليم المرتفعات الغربية:

تعرف الاراضى الممتدة من رأس خليج العقبة حتى خط عرض ٢٠ شمالا باقليم الحجاز، وتمتد مرتفعاته موازية للبحر الأحمر وتفصل بينهما سهول ساحلية تعرف بساحل تهامة، وتضيق هذه السهول فى الشمال الغربى ولكنها تتسع بالإتجاه جنوبا، وتتميز بجفافها وارتفاع حرارتها وزيادة نسبة الرطوبة الجوية بها مما يجعل مناخها قاسيا.

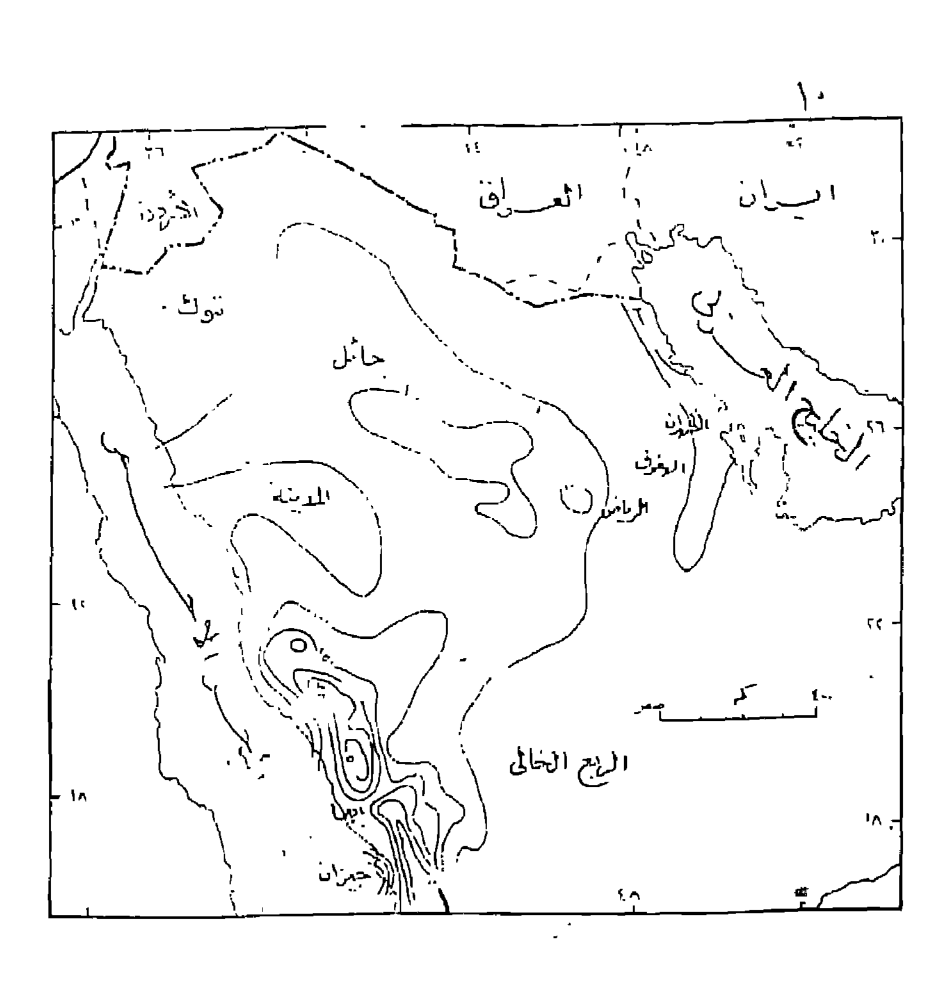
أما المرتفعات الغربية ذاتها فتتميز بوجود فوالق كثيرة نتيجة حركة الرفع التى أصابت حافة الهضبة الغربية، وتتكون من صخور بللورية ترجع إلى ماقبل الكمبرى (الجرانيت والشست خصوصا) مع تدفقات من اللافا البركانية (الحرة) وتصل هذه المرتفعات إلى حوالى ٣٠٠٠ متر فى كثير من الأماكن وتعرف فى إقليم الحجاز باسم جبال مدين، بينما تعرف فى الجنوب فى اقليم عسير باسم جبال السراة.

وقد تأثرت السفوح الغربية لهذه المرتفعات بفعل الوديان التى قطعتها تقطيعا شديدا، ورغم أن المياه لا تجرى فى هذه الأودية الا نادرا – ربما كل بضع سنين ولايام معدودات – إلا أن أثرها فى النحت يكون كبيرا حيث تسقط الامطار النادرة وتكون سيولا جارفة يساعد على شدة تدفقها الانحدار الشديد للجبال نحو البحر الأحمر، ويمكن تتبع مجارى هذه الأودية بما تخلفه من حصى وحصباء وجلاميد ورواسب تتركها السيول عقب انتهائها، ومن أهم هذه الأودية وادى الحمض الذى ينتهى إلى البحر الاحمر قرب ميناء الوجه.

أما على المنحدرات الشرقية لمرتفعات الحجاز فتكون التضاريس أقل حدة وأكثر تجانسا وتنحدر تدريجيا نحو الشرق. ومن هنا كانت الأودية بها أقل عمقا وأكثر طولا، وتبعثرت بها مراكز الاستيطان البشرى وامتدت طرق المواصلات، ورغم أن الأمطار شحيحة (أقل من ٥ بوصات فى معظم الاقليم سنويا) إلا أن المياه يمكن الحصول عليها بسهولة من بطون أودية السفوح الشرقية لهذه الجبال، ومن هنا تقوم الزراعة فى بعض الواحات المحدودة التى تبدو على هيئة خط من الواحات على هذه السفوح مثل واحة المدورة - على الحدود السعودية الاردنية وتبوك ومدائن صالح والعلا والمدينة المنورة حيث قامت بها زراعة الفاكهة والخضراوات على نطاق ضيق وحيث امتدت طرق التجارة منذ القدم ممتدة من الشمال إلى الجنوب (شكل ١٣).

وإلى الجنوب من خط عرض ٢٤° شمالا تتناقص الجبال فى ارتفاعها تناقصا ملحوظا حتى لايصل اقصى أرتفاع إلى أكثر من ١٠٠٠ متر، ويتسع السهل الساحل بصورة واضحة، ونظرا لانخفاض المرتفعات الجبلية - فإن الاتصال بين الساحل والداخل يكون ميسرا، وتبلغ سهول تهامة اقصى إتساع لها وتبدو بذلك كبوابة نحو وسط شبه جزيرة العرب ليس لأنها منخفضة السطح فقط - بل لأنها تقع فى وسط غرب شبه الجزيرة تقريبا ولذا تخرج منها أقصر الطرق نحو الخليج العربى، ورغم أن الأمطار لاتزيد هنا عن أمطار مدين إلا أن هناك تركز سكانيا أكبر بكثير وذلك لأسباب أهمها موقع الاقليم بالنسبة لطرق التجارة منذ القدم وقيام سكان تهامة كوسطاء وناقلين للتجارة وفوق ذلك كله نزول الرسالة الاسلامية فيها ووفود الحجاج المسلمين كل عام إلى مكة والمدينة.

ويعد النبات الطبيعى نادرا فى اقليم الحجاز ولاتنمو الا احراج قزمية، ومن هنا كانت الزراعة - أو حتى الرعى مستحيلة - فيما عدا بعض الأودية الداخلية القليلة حيث توجد بها تربة صلصالية تحتفظ بالمياه القليلة التى تجرى بها، وفى هذه البقع الملائمة نسبيا للحياة النباتية تقوم زراعة القمح والذرة الرفيعة والشعير



شكل رقم (١٣) الأمطار السنوية في السعودية
(بالمليمتر)

وحتى بعض الفاكهة والزيتون والنخيل - كذلك تقوم حرف الرعى الفقير فى حواف هذه المناطق.

وقديما كانت مدن اقليم الحجاز - محطات تجارية تكتفى ذاتيا بالمواد الغذائية وان كانت تعتمد فى نواحى حياتها الأخرى على طرق القوافل الطويلة التى تمر بها ممتدة من الشمال إلى الجنوب ولكن بظهور الاسلام وتدفق الحجاج. أصبح موسم الحج هو المورد الرئيسى لهذه المدن حيث تصل فيه إلى قمة نشاطها ولولا هذا المورد - لما استطاعت مكة المكرمة أو المدينة المنورة أو جدة أن تنمو لتصل إلى احجامهاالحالية.

ومكة المكرمة نفسها يبلغ عدد سكانها نحو ٤٧٣٫٠٠٠ نسمة (١٩٨٦) وتقع فى واد تغطيه الرواسب الفيضية ولايكفى انتاج واحاتها أكثر من ١٦٠٠٠ نسمة تقريبا ولكن يعوض هذا النقص الكبير أنه يزورها كل عام مايقرب من مليون نسمة من الحجاج من كل انحاء العالم الاسلامى (ومن كل فج عميق).

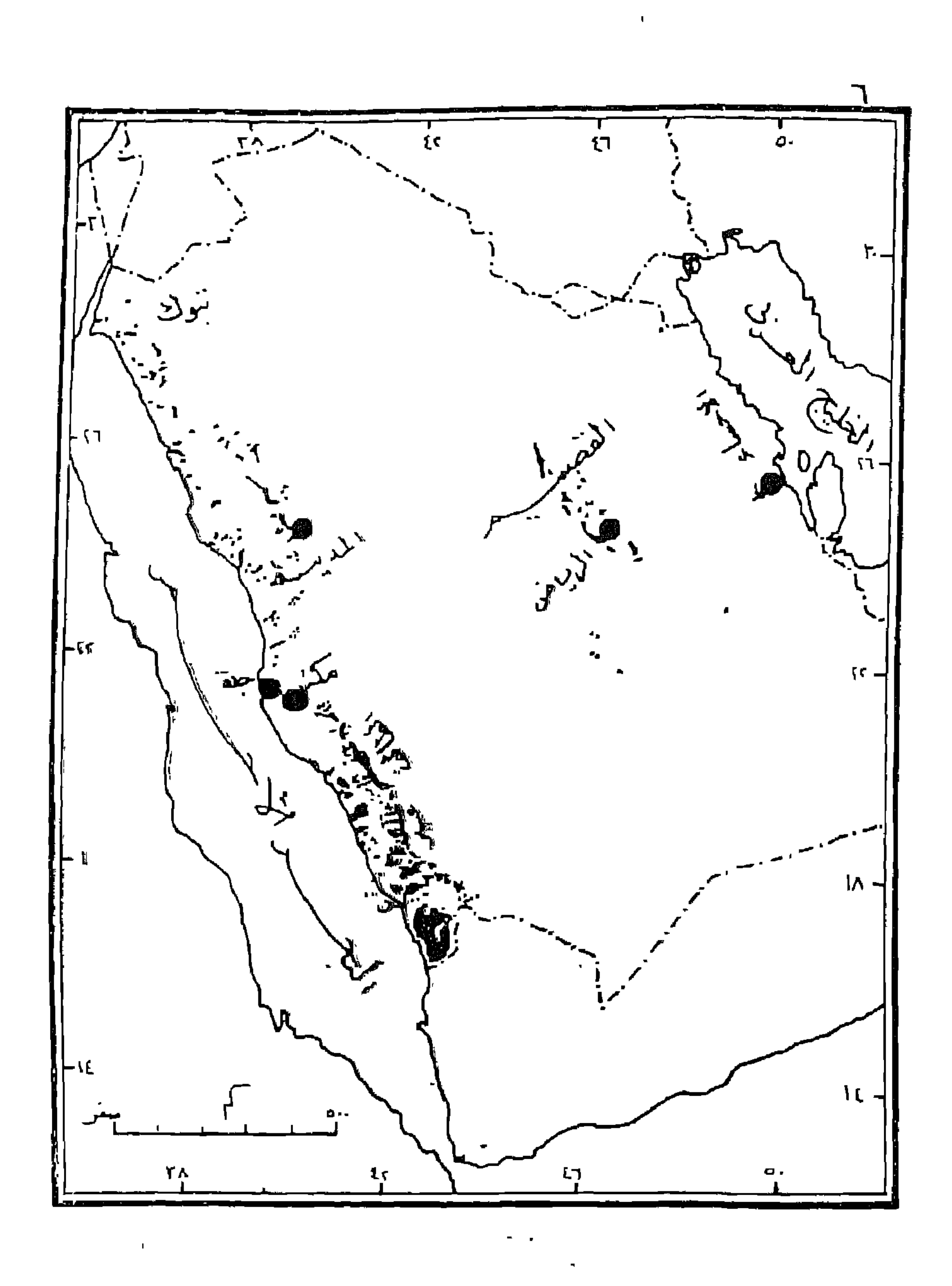
أما المدينة المنورة فقد قدر عدد سكانها بنحو ٢٥٠٫٠٠٠ نسمة سنة ١٩٨٦ (بلغ هذا العدد ٧٢٫٠٠٠ نسمة سنة ١٩٦٣)، وكانت فى وقت أكثر أهمية من مكة لان واحاتها أكثر ومواصلاتها أسهل، ورغم أن بعض الحجاج يزور قبر الرسول (عليه الصلاة والسلام) إلا أن مكة قد وضعتها فى منطقة الظل أو التبعية لها.

أما جدة فقدر عدد سكانها سنة ١٩٨٦ بنحو ١٫٢١٠٫٠٠٠ نسمة (١٤٨٠٠٠ نسمة سنة ١٩٦٣) وهى ميناء السعودية الرئيسى على البحر الأحمر وتستقبل الواردات المختلفة للمملكة - التى تزايدت زيادة كبيرة فى العشرين عاما الماضية. وإن كانت أهمية جدة كميناء تبدو فى استقبال سفن الحجيج من شمال افريقيا على وجه الخصوص.

وإلى الجنوب من خط عرض ٢٠° شمالا يقع اقليم عسير حيث تضيق سهول تهامة مرة أخرى وحيث تظهر مرتفعات السراه وتتميز بالفوالق والكسور فى سفوحها الغربية، ويعلو معظم منطقة عسير على ١٧٠٠ متر تقريبا وان كانت بعض النقاط تعلو بها على ٣٣٠٠ متر، وبسبب ارتفاعها فان نصيبها من الامطار يكون أوفر من مرتفعات الحجاز، وقد تكون أمطارا صيفية - أو يكون التساقط من الضباب والندى، ونتيجة لذلك توجد بعض الأودية يجرى فيها الماء لبضعة أشهر من السنة رغم أنها لاتصل إلى البحر فيما عدا بعض السنوات التى تغزر فيها الأمطار ومايعقبها من فيضان غير عادى.

وتبدو الأودية فى هذا الاقليم وخاصة فى مجاريها العليا عميقة ذات انحدار شديد تنمو بها حياة نباتية قد تبدو على هيئة (أدغال) كثيفة من الشجيرات دائمة الاخضرار ومن النخيل وتقل كثافة هذه الحياة النباتية بالابتعاد عن قيعان الاودية حيث تبدو على هيئة حشائش كثيفة تتخللها أشجار طويلة وقد ازيلت النباتات الطبيعية من المدرجات العليا لهذه الأودية وتمت زراعتها بالذرة الرفيعة والقمح والموز والبلح والبن والكروم أما فى الغرب، وعند التقاء المرتفعات بالسهل الساحلى الضيق فان هذه الأودية تنتهى فى رمال السهل الرملى - ولكن ذلك لايمنع من وجود مساحات لزراعة الذرة الرفيعة واحراج من نخيل الدوم الذى ينتج نوعا من الثمار يأكلها بدو المنطقة (شكل ١٤).

وكان للظهير الجغرافى لاقليم عسير الذى يتمثل فى وجود شبه السفانا فى أعالى الأودية ونظام الامطار الصيفية بها والحياة الحيوانية الطبيعية وأكواخ السكان التى تبدو على شكل خلية النحل والمصنوعة من القش والطين وانتشار زراعة الذرة الرفيعة والموز والبن - كان ذلك كله مدعاة لبعض الباحثين الى القول بأن هذا الاقليم أقرب إلى شرق افريقيا والسودان منه إلى شبه جزيرة العرب - بل أن الزراعة المتنقلة التى يمارسها بعض سكان عسير قد لاتوجد فى أى مكان آخر بشبه الجزيرة، فعندما لاتسقط الامطار فى واد معين - كما يحدث غالبا - فان



شكل رقم (١٤) مواضع الزراعة فى المملكة العربية السعودية

كل سكان هذا الوادى يتجهون فى هجرة جماعية إلى منطقة أخرى يكون التساقط فيها وفيرا - وهناك يساعدون فى كل العمليات الزراعية ويعودون بعد ذلك إلى قراهم بنصيب من المحاصيل التى أسهموا فى زراعتها، وكذلك فقد علمتهم البيئة أن سكان مناطق أخرى قد لاتسقط عندهم امطار، ويجدون فى أودية غيرهم متسعا للعمل يعودون بعده إلى أماكنهم الأصلية.

وبانحدار الارض وانخفاضها نحو ساحل البحر الاحمر يزداد جفافها بصورة واضحة، وهنا نجد على حواف المرتفعات عددا من القبائل الرعوية يقدمون على رعى قطعان الماعز وبالقرب من الساحل يقل عدد السكان جدا حتى يكاد يكون مقفراً منهم.

ثانيا: الصحارى الداخلية (وسط شبه الجزيرة العربية):

رغم أن وسط شبه الجزيرة العربية يشار اليه عموما باسم الصحراء إلا أنها لا تظهر نمطية على شاكلة واحدة، فالى الشمال من خط يمتد تقريبا من خليج العقبة مارا بواحة الجوف حتى الكويت، تقع بادية الشام، وهى هضبة منبسطة تبدو أحيانا صحراء حقيقية وأحيانا نطاقا من الأستبس، وإلى الجنوب - فيما بين الجوف - وحائل تظهر صحراء النفود الكبرى، وهى منطقة ذات صخور جرداء تغطيها رمال متحركة فى بعض الأحيان، وتمتد النفوذ باستمرار نحو الجنوب الشرقى وأن كانت تتميز بمسطحات رملية شاسعة ما تلبث أن تتقوس على شكل قوس عظيم بين الهفوف والرياض، وتعرف هنا بأسم صحراء الدهناء ثم تستمر فى إمتدادها نحو الجنوب لتشمل فى معظم وسط شبه جزيرة العرب فيما بين عمان وحضرموت واليمن وعسير وتعرف هنا باسم صحراء الربع الخالى، وهى واحدة من أقسى الصحارى الحارة فى العالم وإلى الغرب - فيما بين النفوذ والربع الخالى تقع صحراء نجد والتى تبدو أقل قحولة وقسوة.

وأما عن صحراء النفود الكبرى فتمتد إلى الجنوب من بادية الشام، وفى شمال شبه جزيرة العرب، بمساحة تصل إلى ٥٦,٠٠٠- كيلو مترا مربعاً، وتتكون فى معظمها من صخور الحجر الرملى الصلبة التى تظهر حافاتها فى كثير من إنحائها بفعل حركات الرفع، وتأثرت بعوامل التعرية المائية والهوائية مما أدى إلى ظهور أشكال متباينة من الظاهرات التضاريسية المميزة لسطح الأرض، وفيما بين هذه الحافات تقع بعض المنخفضات الصحراوية التى تغطيها الرمال غير المتماسكة والتى تظهر أحيانا عل شكل كثبان رملية ترتفع إلى عدة مئات من الأقدام.

والأمطار نادرة هنا إلى حد كبير، تسقط مرة أو مرتين فى السنة، أو ربما مرة واحدة كل عدة سنوات، ونظرا للطبيعة الغلقة لهذه الأحواض الصحراوية، فان هناك تباينا كبيراً فى درجات الحرارة، ففى فصل الصيف يصل المدى الحرارى اليومى إلى ٢٠م، وكثيرا ما تصل درجة حرارة النهار إلى ١٢٠°ف (٥٠°م)، ويعد الصقيع من الظاهرات الشائعة فى الشتاء، ومن الظاهرات غير المحببة فى صحراء النفود، هبوب الرياح العنيفة التى تتحرك فجأة مثيرة للرمال، ولكنها ما تلبث أن تختفى فجأة كذلك.

وفى بعض منخفضات النفود الكبرى تحتفظ بعض الطبقات الصخرية غير المنفذة للمياه - ببعض كميات من الماء ويساعد ذلك على إقامة زراعة واحية تتمثل فى محاصيل مميزة مثل التمر والشعير، وتوجد أكبر هذه الواحات فى الغرب حيث تتزايد كمية الأمطار الساقطة على جبال الحجاز وتتسرب مع إنحدار الطبقات نحو الشرق لتظهر فى الأحواض الأرتوازية، وتكون الآبار غير عميقة فى هذه الأحواض، حتى أن بعضها يصل فى واحة تيماء إلى عمق ٢٠ مترا فقط ويؤدى ذلك إلى تركز السكان فى هذا الأقاليم حتى أن بعض الواحات يعيش به قرابة ٣٥٠٠٠ نسمة.

وتمتد صحراء الدهناء كنطاق من الكثبان الرملية فيما بين صحراء النفود شمالا والربع الخالى جنوبا ولمسافة تصل إلى ١٣٠٠ كيلومترا، وبأتساع يتراوح بين ٢٥-٨٠كم وتتفاوت الكثبان فى أرتفاعها فبعضها قد يصل إلى ٣٠ مترا وقد أشتقت من صخور الحجر الرملى فى شمال شبه جزيرة العرب جنوبا تحت تأثير الرياح الشمالية ورمال الدهناء بعامة من النوع الدقيق أو المتوسط ويميل لونها إلى الحمرة بسبب وجود أكاسيد الحديد.

أما صحراء الربع الخالى، فتشغل مساحة شاسعة تصل إلى ٦٤٠,٠٠٠كم٢ تغطيها الرمال، وتتمثل فى حوض عظيم تحده مرتفعات عمان شرقاً، والهضبة التى تقع خلف الساحل الجنوبى ومقدمات مرتفعات اليمين وعسير فى الغرب، ويبلغ أقصى طول لصحراء الربع الخالى نحو ١٢٠٠كم وأقصى إتساع لها ٦٥٠كيلومترا، ويعد الرحالة الأوروبى برترأم توماس Bertram Thomas أول من عبر هذه الصحراء من الأجانب سنة ١٩٣٠، من بلدة صلالة على الساحل الجنوبى إلى شبه جزيرة قطره وتبعه جون فيلبى J. Philby فعبر الأجزاء الشمالية والوسطى منها سنة ١٩٣٢، ووصفها فى كتابه (الربع الخالى)، وأخيرا تمكنت طائرات شركة أرامكو من كشف هذه الصحراء.

وتتكون صحراء الربع الخالى من هضبة تنحدر نحو الشرق والجنوب الشرقى، وهناك عديد من الأودية الجافة التى دفنتها الرمال أو جزئياً، ويتميز سطح الصحراء بالكثبان الرملية المتحركة تتخذ أشكالا هلالية أو قبابية ويبلغ سمك الرمال هنا أو هناك مابين ١٥٠-٣٠٠متر. ويمكن أن نقسم الربع الخالى إلى قسمين : شرقى وغربى وتكثر فى القسم الشرقى الآبار غير العميقة التى تتميز بأن مياهها مالحة غير مستساغة، ولكن قد توجد بعض الآبار العميقة التى تصلح مياهها للشرب، أما القسم الغربى الذى يمتد حتى وادى الدواسر نجران فصحراء مقفرة قلما يسقط عليها شئ من المطر.

أما هضبة نجد فهى متنوعة فى سطحها معقدة فى تركيبها البنيوى، والنجد هوما أرتفع من الأرض، ويطلق فى جزيرة العرب على الأراضى العالية التى تشغل القسم الأوسط منها ممتدة من جبل السراة فى الغرب وصحراء الدهناء فى الشرق وبين النفود الكبير فى الشمال وصحراء الربع الخالى فى الجنوب، وتظهر هضبة نجد ذات حافات وأودية عكس النطاقات الرملية التى حولها، وتظهر صخور القاعدة الجرانيتية فى بعض المناطق على هيئة كتل يتراوح أرتفاعها بين ١٣٠٠-١٧٠٠ مترا، وكذلك تظهر الحافات التى يمثل جبل طويق أحداها - وهو يرتفع عن سطح المناطق المجاورة له بنحو ٣٠٠ متر تقريبا، ويتكون من صخور الحجر الجيرى الجوارس.

وقد كان لارتفاع نجد أثر واضح فى سقوط قدر ضئيل من الأمطار الشتوية يسمح بنمو حشائش الاستبس التى تقوم عليها حياة الرعاة، وكذلك فان المياة التى تنصرف نحو الأودية وتتسرب حتى الطبقات غير المسامية تظهر مرة أخرى فى المنخفضات ومن ثم قامت زراعة واحية كثيرة، ومن أهمها نطاق واحات جبل شمر فى الشمال ومنطقة العارض فى الشرق، وتمتد منطقة جبل شمر بين النفود الكبير فى الشمال ووادى الرمة فى الجنوب، ومن واحة تيماء فى الغرب إلى رمال الدهناء فى الشرق، وأهم الواحات بهذا النطاق واحة حائل التى تقع فى الطريق بين العراق والحجار.

وجنوب منطقة جبل شمر يوجد إقليم القصيم وتتوفر فيه المياه قرب السطح وتتخلله بعض ألسنة من صحراء النفود ويمر به وادى الرمة أكبر أودية شمال نجد، وتقوم على هذا الوادى عنيزة وبريدة، وهما أهم مدن نجد الشمالية، وإلى الشرق من جبل طويق يقع أقليم العارض الذى تفصله عن الرمال الدهناء حافة مرتفعة نسبياً، ويقطعة عدد من الأودية التى تجرى فى إتجاهات مختلفة وأهمها وادى حنيفة، وتقوم على جانبه مدينة الرياض، عاصمة السعودية، ويصل إلى

واحة الخرج باسم وادى السهباء، وتقع واحة الخرج جنوب الرياض بنحو ٩٥ كم، وتزرع بالخضر والفاكهة .

ثالثا: اقليم الاحساء بالمملكة العربية السعودية

يمتد هذا الاقليم الساحلى موازيا للساحل حتى الكويت شمالا والنطاق الساحلى منه قاحل وغير مسكون إلا فى مناطق الواحات - وحقول البترول وتحف بسواحله شعاب مرجانية كما تنتشر البحيرات الساحلية والمستنقعات الملحية والتى تزداد اتساعا فى الشمال الغربى فى مواجهة المنطقة المحايدة بين الكويت والسعودية والتى تم تقسيمها بين الدولتين.

وتعد منطقة الهفوف أهم المناطق الغنية بانتاجها الزراعى فى سهول الاحساء بالسعودية، ففى منطقة الهفوف وحدها يعيش مايزيد على مائتى الف نسمة بين بساتين النخيل التى تتخللها عيون المياه العذبة بمساحتها التى تبلغ ٣٠٫٠٠٠ فدانا، ويبلغ عدد هذه العيون بنحو ٤٠ عينا، أكبرها عين الحقل التى تعطى نحو ٢٢ ألف جالون، من المياه العذبة فى الدقيقة الواحدة، وقد مدت قنوات من معظم هذه العيون لرى بساتين النخيل والخضراوات وحقول صغيرة للحبوب وحدائق الفاكهة، وهذه المنطقة تعد أكبر واحات شبه الجزيرة العربية، بل ومن أكبر الواحات فى العالم، وقد شملها التقدم الذى شمل المملكة السعودية بأكملها منذ نحو ثلاثة عقود.

ويعد التمر أهم المحاصيل الزراعية، ويستهلك معظمه محليا كذلك تنتج الهفوف الفاكهة والخضر، والحبوب مثل الذرة الرفيعة والشعير والقمح، بل والأرز أيضا اعتمادا على وفرة مياه الرى.

وإذا تركنا منطقة الواحات الهامة كالهفوف والقطيف، ويصبح البترول هو وسيلة الجذب البشرى فى هذا الاقليم، وقد أدى إلى طفرة سكانية وعمرانية ليس فى منطقة الاحساء وحدها بل وفى المملكة العربية السعودية بأكملها.

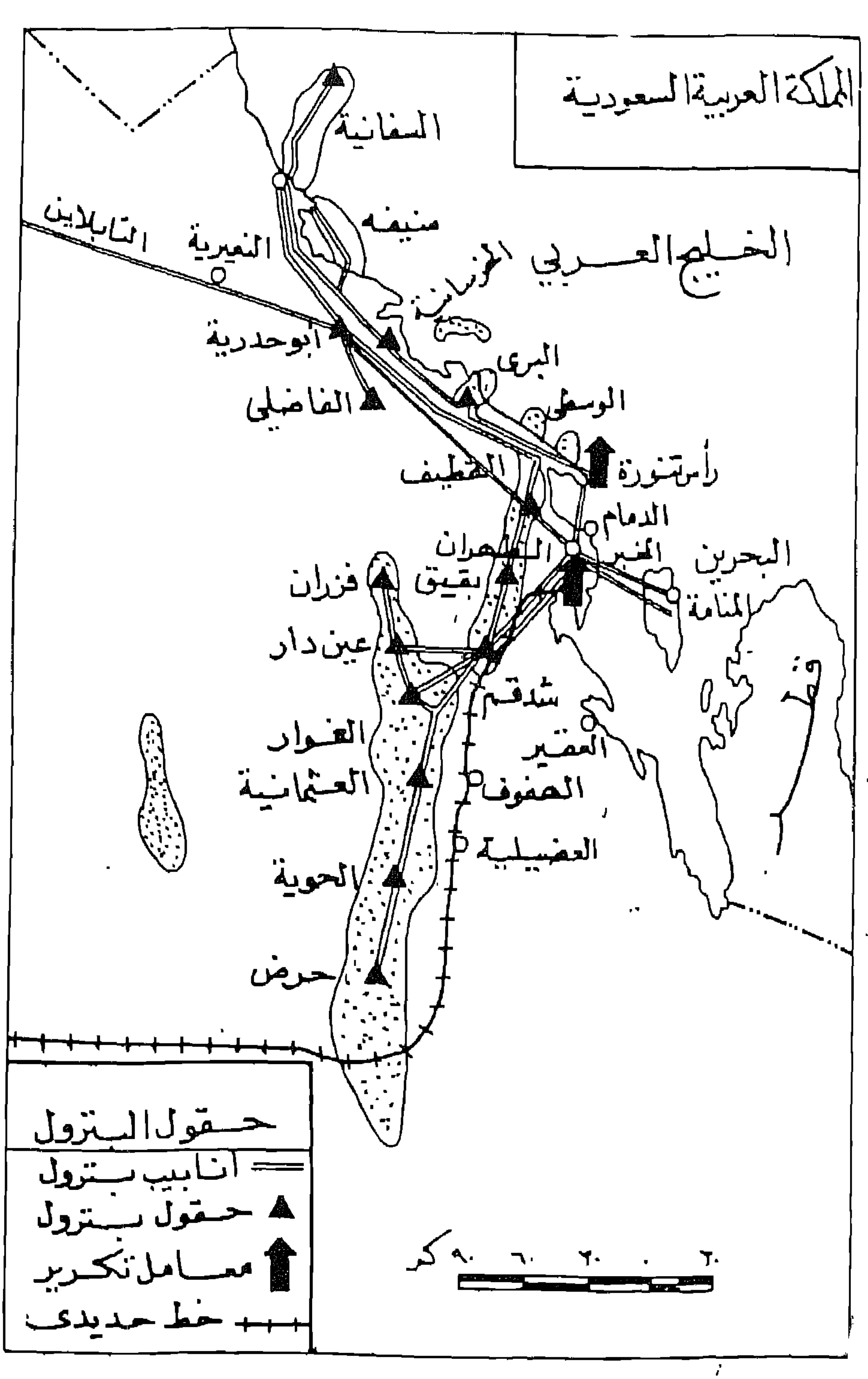
وقد بدأ النشاط البترولى فى السعودية منذ سنة ١٩٣٣ على يد شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا، واستغرقت عملية المساحة الجيولوجية عامين، وحفرت البئر الأولى سنة ١٩٣٥ ولكن لم يعثر بها إلا على آثار ضئيلة من الزيت الثقيل وفى اللحظة التى كاد اليأس يستولى فيها على الشركة فيدفعها إلى تصفية أعمالها عثرت على حقل غزير جدا هو حقل الدمام سنة ١٩٣٨، ثم توالى بعد ذلك اكتشاف الحقول الأخرى مثل أبو حدرية وبقيق وقطيف والفوار وشدقم ويجدر بالذكر أن شركة ستاندرد أويل أوف كاليفورنيا تحولت سنة ١٩٤٤ إلى شركة الزيت العربية الأمريكية (ارامكو) ودخلت فى تكوينها شركات أخرى، وزادت الشركة الجديدة من نشاطها وقفز الانتاج قفزات واسعة من ١٢ مليون طن سنة ١٩٤٧ إلى ٨١ مليون سنة ١٩٦٣ ثم إلى ٢٨٥ مليون سنة ١٩٧٢ والى ٤٢١ مليون سنة ١٩٧٤ ثم إلى ٤٩٥ مليون طن سنة ١٩٨٠، إلا أن الانتاج انخفض بعد ذلك ليصل إلى ٣٢٥ مليون طن فى سنة ١٩٨٣ ثم إلى ٢٦٣ مليون طن سنة ١٩٨٦ ورغم ذلك فإن السعودية ثالث دول العالم فى انتاج البترول بعد كمنولث الدول المستقلة والولايات المتحدة الأمريكية.

أهم حقول البترول فى المملكة السعودية:

١- حقل الغوار ويمتد فى منطقة متسعة ليشمل حقول عين دارا العثمانية وحرض وينتج هذا الحقل الكبير نصف انتاج السعودية من البترول تقريبا (شكل رقم ١٥)

٢- حقل بقيق شمال شرق حقول الغوار وينتج نحو ربع الانتاج السعودى.

٣- حقل السفانية: تحت مياه الخليج العربى وامتدت منه أنابيب إلى رأس التنورة، ويعد أضخم الحقول البحرية فى العالم كله.


المملكة العربية السعودية
السفانية
منيفه
الخليج العربي
النعيرية
التابلاين
الجزيرة
أبوحدرية
البري
الفاضلي
الوسطي
رأس تنورة
القطيف
الدمام
الظهران
الخبر
البحرين
المنامة
فزران
بقيق
عين دار
شدقم
العقير
الغوار
العثمانية
الهفوف
العضيلية
الحوية
حرض
حقول البترول
انابيب بترول
حقول بترول
معامل تكرير
خط حديدي
٦٠ ٠ ٣٠ ٦٠ ٩٠ كم

شكل رقم (١٥)

٤- حقل الخراسانية ويقع على الشاطىء جنوب السفانية ويمتد داخل مياه الخليج العربى.

وبالإضافة إلى هذه الحقول الرئيسية. هناك حقول أخرى أقل أهمية مثل الدمام الذى تقع فيه مدينة الظهران، مقر شركة آرامكو، وكذلك حقل القطيف وأبو حدرية والفاضلى وحرض.

تكرير البترول السعودى ونقله:

انشأت شركة أرامكو معملا لتكرير البترول فى رأس التنورة سنة ١٩٤٤ وذلك بسبب ضرورات الحرب فى الشرق الأقصى، وقد تزايدت كفاءة معمل التكرير هذا من ٢,٥ مليون طن فى بداية سنوات تشغيله إلى ٢٠,٧ مليون طن سنويا، ولايقتصر أهمية رأس التنورة على التكرير بل تتعداها إلى شحن البترول الخام والمكرر، وقررت شركة أرامكو إدخال تعديلات كبيرة على ميناء رأس التنورة منها بناء (جزيرة صناعية) فى المياه العميقة لزيادة طاقة الشحن وتسهيل تحميلات ناقلات البترول الضخمة، كذلك فان جزءا من البترول السعودى يكرر فى معمل سترة فى البحرين كما سبق القول.

وبالإضافة إلى خط التابلاين الذى كان ينقل البترول من حقول شرق السعودية إلى ميناء الزهرانى جنوب صيدا وبطول كلى قدره ١٨٠٠ كيلومترا فإن بترول السعودية ينقل بالناقلات من موانى الخليج العربى وأهمها ميناء رأس التنورة، والدمام، ويعد هذا الميناء الأخير من أكبر موانى شحن البترول فى العالم.

والى الجنوب مباشرة من الكويت تقع منطقة كانت تعرف بالمنطقة المحايدة. وتبلغ مساحتها ٥٧٠٠ كيلومترا مربعا، واتفقت كل من السعودية والكويت على تقسيمها فيما بينهما بالتساوى وأصبح النصف الشمالى منها جزءا متكاملا من دولة الكويت والجزء الجنوبى جزءا من المملكة العربية السعودية وذلك من حيث السيادة والسيطرة. أما انتاجها من البترول، فقد استمر على ماهو عليه أى أن يقسم بين الدولتين بالتساوى أيضا.

وقد بدأت أعمال البحث عن البترول فى هذه المنطقة المقسمة فى سنة ١٩٤٩ على يد كل من شركتى امنيويل Aminoil جيتى Getty واكتشف البترول بالمنطقة سنة ١٩٥٣ فى حقل وفرة ومد خط انابيب طوله ٤٨كم إلى ميناء عبد الله الذى شيد خصيصا على ساحل الكويت، وفى سنة ١٩٥٥، أنشىء ميناء ثان لشحن البترول هو ميناء سعود.

وفى سنة ١٩٥٧ حصلت شركة الزيت العربية اليابانية من حكومتى الكويت والسعودية على امتياز العمل فى الرصيف القارى للمنطقة المحايدة وعثرت على البترول فى حقل الخافجى البحرى، وقد قفز انتاج المنطقة المقسمة قفزات واسعة، ففى سنة ١٩٥٦ لم يكن يتعدى ١٫٥ مليون طن، إذا به يصل إلى ١٦٫٧ مليون طن سنة ١٩٦٣ ثم إلى ٢٦٫٥ مليون طن سنة ١٩٧٣، وبعد أن قسمت المنطقة بين الدولتين أصبحت بيانات انتاجها ضمن انتاج كل منهما من البترول.

وغنى عن القول أن البترول هو أكبر موارد المملكة العربية السعودية الذى يشكل انتاجه قرابة اربعة اخماس الناتج القومى وحوالى ٩٥٪ من الصادرات. وقد نجحت المملكة العربية السعودية فى استثمار عوائد البترول فى إقامة دولة حديثة ترتكز على مقومات اقتصادية متكاملة بالإضافة إلى تحديث المجتمع السعودى ذاته، فقد اقامت الدولة مصانع حديثة للكيماويات والتكرير بشكل يدعو للاعجاب واستطاعت أن ترتفع بالانتاج الزراعى حتى حققت الاكتفاء الذاتى منه بل وصدرت منه كميات إلى الخارج فى سنة ١٩٨٧.

إضافة إلى ذلك فقد توسعت المملكة فى بناء محطات وإعذاب ماء البحر لتوفير مياه الشرب والاستخدامات الأخرى لمدن المملكة كلها تقريبا مثل جدة ومكة والمدينة والطائف ومدن الساحل الشرقى وحتى الرياض ذاتها التى تعتمد جزئيا على هذه المياه.

الفصل الثالث

الجمهورية اليمنية

تقع الى الجنوب من اقليم عسير ممتدة بين خطى عرض ١٢°، ١٨° شمالا تقريبا وبمساحة تبلغ ٥٢٨ الف كيلو مترا مربعا وبسكان قدر عددهم سنة ١٩٩١ بنحو ١٠ مليون نسمة، ويعد شمال اليمن - امتدادا فى تضاريسه وفى تركيبه الجيولجى لاقليم عسير وأن كانت ظاهراتها أكثر وضوحا، فهناك مساحات واسعة تقع بين ٢٤٠٠ - ٣٣٠٠ متر وتوجد بها أعلى قمة فى كل شبه جزيرة العرب - هى قمة النبى شعيب (١٤٠٠٠ قدم - أو ٣٧٦٠ متر فوق سطح البحر) وتقع على بعد نحو ٤٥ كيلو مترا غرب صنعاء، وقد تعرض سطح الهضبة للتعرية المائية بشكل واضح وتوجد مساحات مستوية واسعة تستغل فى الزراعة بدرجة كثيفة، وتطل الهضبة على البحر الأحمر بالتدريج حتى تنتهى إلى سهل ساحلى يعد امتداداً لساحل تهامة فى عسير وإن كان أوسع منه، وتتكرر هنا ظاهرة الأودية التى تنصرف نحو البحر ولكنها تنتهى فى السهل الساحلى قبل أن تصل اليه، كذلك تسوده ظاهرة الطفوح البركانية على سطح الهضبة وقد أعطت اليمن تربتها البركانية الخصبة.

ونظرا لاختلاف مستويات التضاريس فى اليمن، فإن هناك تباينا كبيرا فى الأحوال المناخية، فعلى الهضبة تنخفض درجة الحرارة شتاء إلى أقل من ٥° مئوية (٤٠° ف) ويتكون الصقيع - بل والثلوج احيانا على القمم الأكثر ارتفاعا ولكن تكون الثلوج هنا يعد ظاهرة أقل من مثيلتها فى مرتفعات الحجاز الشمالية ويلجأ اليمنيون آنذاك إلى الملابس الثقيلة والتى تصنع من جلود الأغنام اتقاءً لبرد الشتاء.

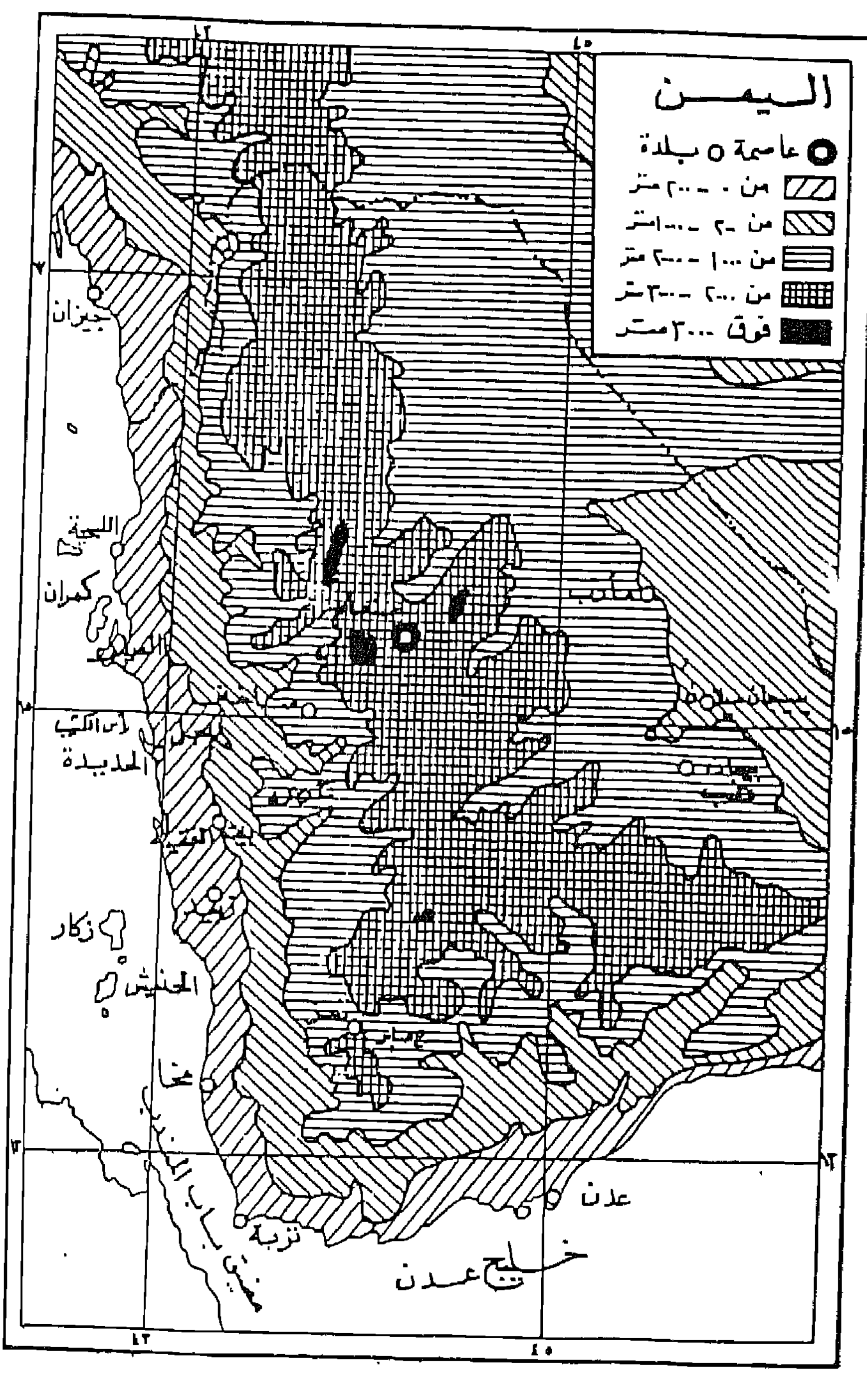
أما فى الصيف وبسبب القرب من خط الاستواء، فان درجات الحرارة تكون مرتفعة، وإن كانت أقل من مثيلتها فى بقية أقاليم شبه الجزيرة العرب الأخرى وذلك بسبب ارتفاع هضبة اليمن بطبيعة الحال من ناحية ولسقوط الأمطار صيفا

من ناحية أخرى، وفى هذا الفصل توجد طبقة من السحب خلال أشهر يولية (تموز) واغسطس (آب) وسبتمبر (أيلول).

ويصل متوسط كمية الأمطار الساقطة سنويا على هضبة اليمن إلى مايزيد على ٢٠ بوصة، ولكنها قد تصل إلى ٤٠ بوصة فى القمم العليا، وتسقط الأمطار بغزارة - وفى رخات شديدة غالبا أثناء الليل، ويوجد فصلان متميزان لسقوطها، الفصل الممطر الرئيسى من يولية (تموز) إلى سبتمبر (أيلول) والذى يرتبط بالأحوال الموسمية التى تتعرض لها هضبة الحبشة والهند، وفصل ممطر ثانوى فى شهر مارس - والذى قد يكون متأثرا بنظام أمطار البحر المتوسط التى يتعرض لها بقية الشرق الأوسط. ومن الجدير بالذكر أن هذه الظروف المطرة تسود فقط فى الأجزاء العليا من هضبة اليمن بينما تندر الأمطار فى السهول الساحلية المجاورة للبحر الأحمر.

ونظرا للانتقال المفاجىء من السهل إلى الهضبة الداخلية فان هناك تتابعا للاقاليم المناخية (ومن ثم تغيرا فى نمط الاستقرار والحرف البشرية)، فالسهل الساحلى المموج أو المنبسط الذى يتسع إلى ٥٠ ميلا (٧٥كم) يكاد يكون مهجورا من السكان ولايعيش به الا اعداداً محدود للغاية من السكان المختلطين ذوى الأصل الافريقى (الدناقل والصوماليون والاحباش)، وبالقرب من ساحل البحر الأحمر تكثر المستنقعات والبحيرات الساحلية، أما بعيدا فى الداخل فتظهر الأودية التى يغطى قيعانها الحصى والرمال التى قد تذروها الرياح بشدة وقت العواصف. وعلى الساحل تقوم ميناءان صغيران: الحديدة ومخا، وهما منفذان لتجارة اليمن الشمالى وخاصة الهضبة الداخلية بينما يقل اتصالهما بظهيرهما المباشر، أى باقليم السهل الساحلى، وبطبيعة الحال فلولا الهضبة ماقامت هذه الموانى أو استمرت.

وإذا توغلنا نحو داخل هضبة اليمن تواجهنا منحدرات متخفضة فى أول الأمر


اليمن
عاصمة ○ بلدة
من ٠ - ٢٠٠ متر
من ٢٠٠ - ١٠٠٠ متر
من ١٠٠٠ - ٢٠٠٠ متر
من ٢٠٠٠ - ٣٠٠٠ متر
فوق ٣٠٠٠ متر
جيزان
اللحية
كمران
رأس الكتيب
الحديدة
زكار
الحنيش
مخا
عدن
خليج عدن
تربة

شكل رقم (١٦)

عمقت فيها عوامل التعرية الفتحات وأظهرت بها الكتل الصخرية ومن ثم كان التوغل صعبا، وكان ذلك أحد عوامل عزلة اليمن وبقائها بمنأى عن العالم الخارجى وعلى حواف الهضبة - أولا - نلاحظ قدرة النبات - ويتكون من الصبار وأشجار التمر هندى والسنط والنخيل، وتعول هذه الأشجار بعض السكان من أشباه الرعاة هنا، أما إذا توغلنا فى الداخل وارتفعنا إلى أكثر من ١٠٠٠ متر تبدأ نباتات البحر المتوسط فى الظهور مثل أشجار التين والخروب، وعلى ارتفاع ١٥٠٠ متر قدم تبدأ أغنى مناطق اليمن انتاجا فى الزراعة، حيث تزرع الحبوب مثل القمح والذرة الرفيعة والشعير حيثما سمحت التربة بذلك، أو حيثما تمكن السكان من عمل المدرجات على الجبال، ويلمس المرء تنوعا كبيرا فى أشجار الفاكهة والخضر - فيزرع المشمش والحمضيات والكروم والبصل والطماطم (البندورة) والجزر وغيرها.

غير أن هذه المنطقة الزراعية فى اليمن تتميز بمحصولين رئيسيين هما البن، والذى تزرع أشجاره على ارتفاعات تتراوح بين ١٣٠٠- ١٦٠٠ متر - والقات، ولايزرع البن فى الوقت الحاضر على نطاق واسع، وتتحدد مناطق زراعته فقط في السفوح الغربية الرطبة للهضبة المرتفعة فى منطقة ماخه - جنوب غرب صنعاء، والتى تقع فيما وراء ميناء مخا الذى كان أكثر أهمية فى الماضى عما هو عليه الآن، بل أنه اعطى للبن اليمنى شهرته فى الخارج تحت اسم مخا، وتمتد المنطقة المنتجة للبن جنوبا حتى تعز، وتقدر المساحة المنزرعة به بنحو ١٥ الف فدان، وتصل اشجار البن التى تزرع على المدرجات الجبلية مرحلة النضوج بعد ٥ سنوات ترتفع فيها الشجرة حتى يصل طولها الى ٢,٥ - ٤,٥ متر، وتستمر فى الانتاج بعد ذلك لمدة تصل إلى عشرين سنة ورغم صعوبة الاحصاءات فى اليمن - إلا أنه يقدر أن انتاجه من البن يصل إلى ٤٠٠٠ طن سنويا الذى يصدر معظمه إلى الخارج، ويعد البن عماد الثروة الاقتصادية لليمن حيث يسهم بنسبة كبيرة من صادرات البلاد.

خطوط المطر المتساوى
في اليمن

شكل رقم (١٧)

وقد أصبحت شجرة القات منافسا خطيرا للبن، والقات Gatha adulis شجرة تشبه شجرة الشاى إلى حد ما ويصل طولها إلى نحو ٣ أمتار وتمضغ أوراق هذا النبات التى تحتوى على سائل قوى التخدير مثل الكحول، وينتشر مضغ القات فى اليمن بين كل فئات الشعب، ونظرا لذلك تنتشر زراعته فى مساحات واسعة فى البلاد، وقد وجد طريقه كسلعة تصدير إلى الخارج ومن هنا بدأ كمنافس شديد لشجرة البن، وخاصة وأن زراعته لاتحتاج لمجهود كبير بعكس البن، ورغم زراعته فى كل مناطق اليمن إلا أن منطقة تركزه هى حول تعز فى الجنوب الغربى. ويصدر بكميات كبيرة إلى المناطق المجاورة خاصة اليمن الجنوبى الذى لا تصلح المرتفعات المنخفضة فيه لزراعته، وقد تباينت الآراء فى دور القات وتأثيره على اقتصاديات شعب اليمن وبنائه الاجتماعى، وإن كانت معظم الآراء ترى أن فيه خطرا شديدا على صحة السكان لانه يفقدهم الكثير من نشاطهم ويجعلهم عزوفين عن التغذية السليمة وميالين إلى الكسل – ورغم ذلك فهناك بعض الآراء تخالف ذلك. ولكن تبقى حقيقة هامة وهى أن التنمية الاقتصادية والاجتماعية فى اليمن مرهونة بتغيير التركيب الاقتصادى والاعتماد على محاصيل أخرى – يمكن أن تسهم فى رفع المستوى المنخفض السائد حاليا.

وصنعاء – عاصمة اليمن واحدى المدن القلائل فيه ، يبلغ عدد سكانها نحو ٤٢٧٫٠٠٠ نسمة (سنة ١٩٨٦) وتقع على ارتفاع يصل إلى ٢٥٠٠ متر ووسط اقليم زراعى غنى بالحبوب والفواكه والخضر، وتعتمد على الرى من الآبار وخزانات المياه، ولاينضج البلح فى مثل هذه الارتفاعات ولكن هناك مجموعة من فواكه البحر المتوسط، كما تربى الأغنام والماشية والابل، أما المدن الأخرى فأهمها عدن (٢٥٠٠٠٠نسمة) وتعز (١٥٠٫٠٠٠ نسمة) والحديدة (١٥٠٫٠٠٠ نسمة) وصعده (٧٥٫٠٠٠ نسمة).

والظاهرة الرئيسية فى جنوب اليمن هى الانحدار التدريجى من الغرب إلى الشرق ففى أقصى الغرب توجد هضبة أقل قليلا فى ارتفاعها من مثيلتها فى

شمال اليمن ولكن نحو الشرق يصل متوسط الارتفاع إلى أقل من ١٠٠٠ متر في اقليم سيحوت وإلى أقل من ٢٠٠ متر قرب خليج صوقرة في عمان.

وتتميز المنطقة الجنوبية بظاهرة خاصة هي وجود وادى عريض واضح الملامح وهو وادى حضرموت والذى يجرى موازيا للساحل وعلى بعد ١٩ كيلومترا من هذا الساحل ويمتد لمسافة تصل إلى ٣٢٠ كيلومتر وقبل أن ينحنى بشدة نحو الجنوب الشرقى مخترقا السلاسل الساحلية حتى ينتهى إلى المحيط الهندى قرب سيحوت، ومن الظاهرات الهامة لهذا الوادى الانكسارى أن جزءه الأعلى يبدو أكثر اتساعا عن جزئه الأدنى، ويمكن تفسير ذلك فى ضوء ظاهرة الأسر النهرى حيث استطاع نهر صغير يتجه من المرتفعات إلى البحر العربى أن يأسر نهرا أكبر كان يتجه من الغرب إلى الشرق على امتداد الانحدار العام للهضبة.

والأقاليم الساحلية الجنوبية تشبه من حيث التركيب الجيولوجى والبنية - الأقاليم الغربية التى سبق ذكرها، فهى ترتكز على صخور قاعدية ترجع إلى ماقبل الكمبرى متكونة من الصخور الجرانيتية والمتحولة، ويعلوها طبقات من الحجر الجيرى والرمال مع وجود بعض المناطق التى تتميز بالصخور البازلتية، وبعض الطفوح البركانية، وفى غرب هذه الاقاليم الجنوبية يوجد سهل ساحلى ضيق يبلغ اتساعه من ٨ - ١٦ كيلومترا ثم يؤدى إلى هضبة يتراوح ارتفاعها من ١٣٠٠ - ٢٣٠٠ مترا فوق سطح البحر وقد قطعتها الأودية الجافة، وإلى الشمال من هذه الهضبة يوجد وادى حضرموت يليه مباشرة هضبة أقل ارتفاعا (تتراوح من ٣٠٠ - ٦٥٠ مترا) وهى تعد امتداداً لهضبة قلب شبه جزيرة العرب.

والأمطار هنا تقل كثيرا عن أمطار شمال اليمن، وعلى بعض المرتفعات القليلة لحضرموت وظفار، وتسقط كمية من الأمطار تتراوح من ٢٥ - ٣٠ بوصة سنويا، وتسقط الامطارصيفا، ولكن على معظم جنوب شبه جزيرة العرب يقل المتوسط السنوى للامطار إلى أقل من ٧ بوصات وتسقط هذه الكمية فى

أواخر الشتاء بينما يكون الصيف جافا. وبصفة عامة فان ارتفاع تضاريس الاقاليم الغربية يؤدى إلى زيادة امطارها عن الاقاليم الشرقية نحو ٥ بوصات بل إن بعض الأجزاء الشرقية يسقط مطرها مرة كل ٥ أو ١٠ سنوات، فعلى عدن يسقط سنويا كل نحو ٥ أو ١٠ سنوات. وكذلك فقد أدى انخفاض السطح – بالمقارنة مع اليمن الشمالية إلى ارتفاع درجات الحرارة، وتسود هذه الظاهرة فى كل جنوب شبه الجزيرة، وانعكس ذلك على فقر الاقليم فى الزراعة التى اقتصرت على بقع مبعثرة وقليلة كما هى الحال فى المدرجات الفيضية وبطون الأودية التى تحتفظ بمياه من امطار الشتاء أو بالقرب من التلال حيث يمكن حفظ المياه الموسمية فى خزانات.

وتختلف الزراعة فى جنوب شبه الجزيرة العربية اختلافا كبيرا عن بقية أقاليم الشرق الأوسط، فقد كان لموقع الاقليم (الجنوب العربى) مطلا على المحيط الهندى – وتحده الصحراء من الشمال أن يكون اتجاه السكان بدرجة أكبر نحو الشرق والجنوب الغربى مما جعل الغلات الزراعية أقرب إلى غلات الهند وشرقى أفريقيا، فيعد الذرة الرفيعة المحصول الرئيسى – أما الشعير والقمح فهما ثانويان، كما تنمو بعض الأشجار المثمرة مثل نخيل الملح والمانجو والموز والجوافة بالإضافة إلى القطن والخروع والنيلة والطباق.

وتكثر الواحات بصفة عامة فى الغرب عنها فى الشرق. وأكبرها واحة لحج وواحة الساحل (شمال المكلا)، غير أن وادى حضرموت يعد المنطقة الزراعية الرئيسية فى كل الاقليم – وقد ساعدت على ذلك بطبيعة الحال المياه الباطنية المتوفرة فيه مما أدى إلى تنمية زراعيا اعتمادا على مياه الآبار وتتركز الزراعة فى الوقت الحاضر فى النطاق الأوسط من هذا الوادى حيث تنساب المياه به لفترة من السنة، وحيث ترفده بعض أودية جانبية اقيمت سدود عند التقائها بالوادى الرئيسى لاستخدام مياهها فى الرى بعد ذلك، وقد ساعد استخدام روث الحيوانات وبقايا الأسماك على تسميد عضوى للارض الزراعية وأدى ذلك إلى

زراعة مجموعة متنوعة من المحاصيل بعضها (أفريقى) والآخر (آسيوى) وذلك جنبا إلى جنب مع المحصول الرئيسى وهو الذرة الرفيعة والبلح، أما على السفوح الدنيا للمنحدرات نحو البحر فان ندره المياه جعلت الزراعة نادرة هى الأخرى.

وإلى الشرق من حضرموت يستمر السطح فى الانخفاض وتأخذ الأمطار فى التناقص وتقل الزراعة قلة واضحة ويصبح صيد الأسماك هو الحرفة الرئيسية للسكان. وتصاد كميات كبيرة من سمك القرش والتونة والسردين، ويجفف معظم الانتاج السمكى كغذاء للانسان وللجمال على سواء فضلا عن استخراج الزيت الذى تدهن به السفن وبعض المنتجات الخشبية الأخرى، وتعد موانى شحر والمكلا مراكز صيد الاسماك الرئيسية فى اليمن على ساحل البحر العربى، وفى هاتين البلدتين تجفف صفوف عديدة من الأسماك فى الشمس وتعد للغذاء.

ونظرا لجدب الظهير الخلفى الداخلى فان معظم اوجه النشاط البشرى تتجه نحو البحر خاصة صيد الاسماك وركوب البحر للتجارة التى اشتهر بها الحضارمة منذ القدم فيما بين جنوب شبه الجزيرة والخليج العربى والهند من ناحية. وبين شرق افريقيا من ناحية أخرى، بل ووصلوا أيضا إلى أندونيسيا – وقد حدا ذلك إلى أن اطلق عليهم بعض الكتاب بأنهم (يونانيو المحيط الهندى)[1].

(The Arabs of the South are the Greeks of the Indian Ocean)

وقد تمكن الحضارمة بفضل نشاطهم التجارى البحرى من كسب عيشهم واستيراد الكثير من المواد الغذائية إلى بلادهم وذلك لسد حاجة الاستهلاك الذى لايكفيه الانتاج المحلى، وقد أثر هذا النشاط التجارى فى شخصية الحضارمة حيث اصبحوا أبعد نظرا وأوسع أفقا، ويبدو ذلك بوضوح فى الكثير من مظاهر حياتهم فهناك النماذج العمرانية وأشكال المبانى التى تشبه الى حد كبير مثيلتها فى جزر الهند الشرقية، وهناك المنازل المتعددة الطوابق وشبه المحمية والتى تتميز بالاشغال الخشبية المحفورة، وبعد حياة السفر وركوب البحر ومشتقاته فان ساكن الجنوب

العربى مايلبث أن يعود إلى عدن وحضرموت بثروة صغيرة يعيش منها بقية حياته.

وتعد عدن المدينة الرئيسية فى الاقليم، ويعد مرفأها أحسن مرافىء الساحل الجنوبى كله من بابْ المندب حتى مسقط، وذلك لأنه تكون فى خليج عميق شبه مغلق بمخروطين بركانين، ويبلغ عدد سكانها ربع مليون نسمة، وتعد سوقا هامة لمنتجات متنوعة شرقية وغربية يأتيها المر واللبان من ظفار والبن والقات من اليمن والحبوب والمواد الغذائية من شرق أفريقيا، والاخشاب لبناء السفن والمساكن من ميانمار (بورما سابقا) واندونيسيا وذلك كله بالإضافة إلى أنها ميناء هام لتموين السفن ومركز لتكرير البترول معتمدا على بترول الخليج العربى.

الفصل الرابع
سلطنة عمان

تشغل سلطنة عمان الركن الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة العربية، وتبلغ مساحتها ٣٠٠،٠٠٠ كيلو مترا مربعا وطول سواحلها نحو ١٧٠٠ كيلو مترا من مضيق هرمز فى الشمال إلى الحدود المتاخمة لجمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية، ويفصل أراضى السلطنة عن رأس مسندم فى أقصى الطرف الشمالى من عمان جزء من أراضى الامارات العربية المتحدة، كذلك يتبع عمان بعض الجيوب الصغيرة فى هذا الجزء الفاصل وهو اقليم الدبا ووادى مدحا، كذلك يتبعها العديد من الجزر الصغيرة الواقعة فى خليج عمان وفى مضيق هرمز (سلامة وبناتها) والقريبة من الساحل، هذا بالإضافة إلى جزيرة مصيرة ومجموعة جزر الحلانيات (كوريا موريا) فى بحر العرب.

والواقع أنه رغم موقع عمان المتطرف فى أقصى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية، إلا أنها لعبت دورا حضاريا كبيرا نبع من نشاطها التجارى المبكر مع جنوب شرق آسيا من ناحية وشرق أفريقيا من ناحية أخرى، وتجلى دورها الحضارى فى نشر الاسلام ونقل المؤثرات العربية إلى المناطق التى وصل إليها العمانيون مبكرا. وقد تبوأت عمان مركزا مرموقا خلال القرن السابع عشر عندما استطاع العمانيون تحت قيادة قبيلة اليعاربة – من طرد البرتغاليين الذين كانوا قد غزوا بعض أجزاء الساحل العمانى فى القرن السادس عشر، بل وخلفوا البرتغاليين فى السيطرة على ساحل أفريقيا الشرقى، وتواصل النفوذ العمانى أيام حكم أسرة آل بوسعيد حيث حظيت عمان بمكانة تجارية هامة فى المحيط الهندى والمناطق المطلة عليه من شرق افريقيا إلى الصين واعترف العالم كله بشهرة التجارة العمانية ومجدها.

إلا أن عمان دخلت بعد ذلك مرحلة ركود وعزلة استمرت مايربو على مائة عام حتى سنة ١٩٧٠ عندما بدأت مرحلة هامة من تطورها الحديث،

وتمكنت من استغلال ثروتها النفطية ومواردها الأخرى فى إحداث تغيير حضارى شامل لجوانب الحياة بها، كذلك بدأت تلعب دورا هاما على المستويين الاقليمى والدولى ساعدها فى ذلك موقعها الاستراتيجى الهام وتحكمها فى مدخل الخليج العربى حيث توجد أغنى مناطق انتاج النفط فى العالم، كذلك اشتركت عمان فى مجلس التعاون الخليجى الذى يضم ست دول عربية خليجية هى السعودية وعمان والكويت والبحرين وقطر والامارات.

أ- البيئة الطبيعية:

وتتكون سلطنة عمان من طبقات صخرية ملتوية ترجع إلى عصور مختلفة وإن كانت نواتها الاصلية اركية، وفوق هذه النواة تجمعت التكوينات الرسوبية خاصة الحجر الجيرى، فى غير نظام وقد تعرضت المنطقة إلى تصدع وكسور بدرجة كبيرة مما أدى إلى ظهور الاودية التكتونية والكتل القافزة خاصة فى منطقة رأس مسندم، كذلك أدى تعرض السواحل لطغيان البحر إلى ظهور الأودية الغارقة التى تبدو على هيئة فيوردات ذات شروم عميقة وطويلة محاطة بحواف صخرية شديدة الانحدار ولعل أكبر هذه الشروم المتعمقة فى اليابس هو شرم الفينستون عند رأس مسندم والذى يبلغ طوله نحو ١٦ كيلومترا وتحيط به حواف عالية يتراوح ارتفاعها من ١٠٠٠-١٣٠٠ مترا. وقد أدت هذه الشروم العميقة إلى خلق مرافىء طبيعية ممتازة ولكن العقبة الكبرى فى إنشاء موانئ بها تتمثل فى فقر ظهيرها وصعوبة الوصول للداخل، ولذا فان هذه الشروم تنتهى فجأة فى الداخل، ومن المثالب الأخرى لنشأة الموانى فى هذه المرافىء الطبيعية هى ارتفاع درجة حرارة الهواء مع زيادة الرطوبة فى هذه الشروم المحاطة بحوائط عالية ويكون الهواء ساكنا والجو خانقا يعوق النشاط البشرى الى حد كبير.

وتتميز الاراضى العمانية بوجود نطاقين جبليين يتمثل أحدهما فى سلسلة جبال عمان - والآخر فى سلسلة جبال ظفار. وتمثل هذه المرتفعات الجبلية نحو ١٥٪ من مساحة البلاد، وتلعبان دورا هاما فى تحديد الظروف المناخية السائدة

بسبب قربهما من الساحل وارتفاعهما.

وتمتد سلسلة جبال عمان من رأس مسندم في الشمال على شكل قوس منحن واسع حتى رأس الحد في الشرق، وهي جبال ألبيه ترجع في نشأتها إلى الزمنين الثانى والثالث منذ نحو ١٣٥ مليون سنة، وهى تعد امتداداً لسلسلة جبال زاجروس الايرانية وتعرضت لعمليات التعرية والتصدع بشدة وتصل إلى أعلى أجزائها في منطقة الجبل الأخضر (٣٠٠٠متر) وجبل نخل وتخترقها الوديان العميقة التي تنحدر نحو البحر أو الصحراء وأعمقها وادى السحتن وبنى خروص، وتستقر هذه الوديان في الطبقات الصخرية القديمة متعمقة فى الجبل ويزداد اتساعها عندما تخترق طبقات صخرية هشة يسهل تفتيتها وتمتلىء بالركام والصخور المفتتة.

أما سلسلة جبال ظفار فتمثل كتلا مرتفعة من باطن الارض مكونة من العديد من أنواع الصخور وتصل أعلى ارتفاعها فى جبل القمر(١٤٠٠ مترا) وتنحدر تدريجيا نحو الشمال ونحو الصحراء في الغرب. وتتبع الصخور التي تتكون منها سلسلة جبال ظفار مجموعة الصخور الرسوبية التى نشأت منذ حوالى ٦٠ مليون سنة، وتتصف بالوعورة، وتقاوم الطبقات الصخرية عوامل التعرية بدرجات مختلفة ولذا نشأ العديد من الاشكال المختلفة وتظهر الوديان كلها فى صورة عميقة ذات جوانب قائمة كما تعترضها مساقط أو مرتفعات مفاجئة من صخور صلبة لذلك كان عبور سلسلة جبال ظفار أمرا صعبا إلى جانب أنه يشكل عقبة كبيرة فى سبيل وسائل المواصلات الحديثة كما تنصرف كميات المياه الناتجة عن الامطار فى الصيف سريعا دون الإستفادة الكاملة منها فى الزراعة.

ب- سهول الوديان:

ويتكون الجزء الأكبر من أرض سلطنة عمان من سهول الوديان الممتلئة بالرمال والركام ومن السفوح الجبلية المدرجة والسهول الصحراوية الواسعة. وعلى

العموم فان المرتفعات الجبلية وبعض مناطق السهول الصحراوية تتلقى كميات قليلة من الامطار إلا أنها تلعب دورا هاما فى الحياة البشرية حيث تتسرب فى الطبقات الصخرية وتظهر فى شكل مياه جوفية تتبع فى إنسيابها البطئ انحدار الطبقات الصخرية الحاملة لها. ويتم استغلال هذه المياه الجوفية فى الاستخدامات البشرية خاصة الزراعة - فى المناطق القريبة من سلاسل الجبال وعند مواقع خروج الوديان من سلاسل الجبال - وذلك من الأرباح والافلاج، تزداد ندرة المياه الجوفية بالبعد عن سلاسل الجبال وبالتالى ينخفض مستوى هذه المياه الجوفية بدرجة كبيرة، ويعاود الارتفاع حيث يقارب سطح الأرض تقريبا فى نهايات الوديان، وبالتالى يسهل الحصول عليه للبشر، والزراعة والرعى.

جـ- السهول الصحراوية:

أما السهول الصحراوية فى عمان فتنتمى إلى أكبر مسطح رملى متصل على سطح الأرض وهو صحراء الربع الخالى ورمال الوهيبة. ويصل سمك طبقات الرمال هنا حوالى ٣٠٠ مترا، وتسود به الكثبان الرملية بفعل الرياح وتأخذ أشكالا مختلفة أبرزها الشكل المستطيل فى رمال الوهيبة حيث تبدو متوازية ومتجاورة متجهة من الشمال إلى الجنوب. وقد يصل طول الكثيب الواحد عدة كيلومترات. أما فى الجزء العمانى من الربع الخالى فيندر وجود الكثبان المنتظمة الأشكال وتحل محلها أكوام رملية ضخمة مساحتها كبيرة وتظهر بعض الكثبان المنتظمة الأشكال وتحل محلها أكوام رملية ضخمة مساحتها كبيرة وتظهر بعض الكثبان الهلالية والنجمية على الاطراف كما تظهر سبخات الطين الملحى الشاسعة على امتداد الحد الشرقى للربع الخالى. وتتكون تربة هذه السهول من طين ناعم وبعض الاملاح الذائبة فى المياه الاتية من الوديان، ويكاد يكون عبور هذه السهول الطينية الملحية مستحيلا.

المنطقة التضاريسية	المساحة بالكيلومتر المربع
المناطق الجبلية (٤٥٠ متر فأكثر)	٤٥٠٠٠
السهول الساحلية المأهولة	٩٠٠٠
أودية وصحارى أقل من ٤٥٠ متر	٢٤٦٠٠٠
جملة مساحة الدولة	٣٠٠٠٠٠

السهول الساحلية

ويعد سهل الباطنة واحدا من أهم السهول الساحلية ليس فى عمان فقط بل فى جنوب شرق شبه الجزيرة العربية كلها، ويمتد محصورا بين سلسلة جبال عمان وخليج عمان بامتداد يصل إلى نحو ٢٧٠ كيلومتر وباتساع يتراوح بين ١٠ – ٣٠ كيلومتر وهو القلب الزراعى لسلطنة عمان وان كانت الاراضى الزراعية به محدودة فى شريط ضيق قلما يزيد على ثلاثة كيلومترات بجوار الساحل، وقد نشأت على ساحله المراكز العمرانية الهامة التى تقوم بالزراعة والصيد معا، وتنتهى اليه مجموعة من الأودية التى تنحدر من مرتفعات الحجر والتى يمثل بعضها أهمية كبرى فى إتصال سهل الباطنة بالمناطق الداخلية كما تتبعثر بها بقع زراعية وبعض مراكز العمران الصغيرة.

المناخ

ومناخ سلطنة عمان حار وجاف فيصل متوسط حرارة فصل الصيف إلى نحو ٣٥° مئوية، ونادرا مايقل عن ١٥° مئوية فى فصل الشتاء، كما ترتفع الرطوبة ارتفاعا كبيرا فى السهول الساحلية. والأمطار القليلة تتباين فى كميتها من ٤٠ ملليمترا إلى ١٢٠ ملليمترا. وتزداد الأمطار فى مرتفعات الحجر فى عمان الشمالية وكذلك فى مرتفعات ظفار فى الجنوب (صلالة ١٢٠ ملليمترا فى السنة) وهذه الأمطار رغم قلتها إلا أنها المصدر الرئيسى للمياه الجوفية والتى توجه

بدورها العمران والزراعة فى عمان حيث تتسرب مياه الامطار فى الصخور وتنصرف مع الانحدار فى قنوات باطنية تعرف بالافلاج تنتهى فى واحات تقوم بها الزراعة على الرئ من هذه الافلاج.

ويتباين التوزيع الموسمى للامطار بين شمال عمان وجنوبها تباينا كبيرا، فتسقط الامطار شتاء فى الشمال (بين شهرى نوفمبر وابريل بقمة واضحة فى يناير)، وذلك بسبب الرياح الشتوية التى تجلب معها الرطوبة من منطقة البحر المتوسط أو من الشمال الشرقى من ناحية الخليج العربى أو خليج عمان. أما فى الجزء الجنوبى من عمان - فى اقليم ظفار وعلى الساحل حتى رأس الحد - فتسقط الامطار فى شهرى يوليو وأغسطس، ومصدر هذه الأمطار هى تيارات هوائية هى الرياح الموسمية قادمة من بحر العرب.

ويوجد اختلاف فى التغير السنوى لدرجات الحرارة بين شمال وجنوب عمان مثلما هو الحال بالنسبة لهطول الامطار، فترتفع درجة الحرارة فى شمال عمان ابتداء من شهر يناير (٢٢° مئوية) ارتفاعا بالغ السرعة لتصل إلى حدها الاقصي وهو ٣٤° مئوية فى شهرى يونية ويولية ثم تعود إلى الإنخفاض حتى شهر ديسمبر لتصل إلى ٢٣° مئوية، وتقل درجة الحرارة بين الصيف والشتاء وهو يبلغ فى إزكى ١٥° مئوية، وفى فهو ١٧° مئوية، ويتخذ تغير الحرارة مع فصول العام صورة أخرى على الساحل الجنوبى من عمان، فتصل درجة الحرارة فى صلالة إلى أقصى قيمها خلال الأشهر من ابريل إلى يونية (٣٢° مئرية) وأكتوبر ونوفمبر (٣٠° مئوية) وتصل إلى حدها الأدنى فى شهر يناير (١٧° مئوية).

السكان والنشاط الاقتصادى:

تتشابه سلطنة عمان فى كثير من الوجوه الديموغرافية مع دول الخليج الأخرى وتكمن أبرز مظاهر التشابه فى الحجم السكانى الصغير نسبيا، وفى مستويات الخصوبة السائدة كذلك ارتبط النمو السكانى فى عمان منذ أوائل السبعينات بتغير اقتصادى مفاجىء ترتب على استخراج البترول واستثمار عوائده فى إحداث تغييرات مادية ملموسة فى المجتمع حولت عمان إلى دولة جذب سكانى بعد أن كانت بيئة طاردة من قبل، وقد ظل العمانيون فترة طويلة يكونون أساسا هاما للايدى العاملة فى الدول النفطية الأخرى التى سبقتها فى إستخراج النفط واستغلال عوائده مثل السعودية والكويت.

الا أن مظاهر الاختلاف البشرى بين عمان وجاراتها ان سكانها قد ولوا وجوههم مبكراً شطر البحر وتشابهوا فى ذلك مع أقرانهم فى حضرموت، وكان لهذا التوجيه البحرى أثره المبكر فى اختلاط العمانيين بغيرهم من الشعوب ونقل الثقافة العربية إلى أقاليم بعيدة فى جنوب آسيا وشرق أفريقيا.

والتنمية الاقتصادية والاجتماعية فى عمان حديثة العهد للغاية ترجع بالكاد الى سنة ١٩٧٠ حتى أنه يمكن اعتبار هذه السنة فاصلا بين عهدين: أحدهما قديم وصف بالتخلف والجمود والآخر حديث شهد بداية التحول نحو التحديث حيث بدأت عمان مرحلة تغيير جذرى لوضع أسس تنمية اجتماعية واقتصادية شاملة وتجلى ذلك فى الاهتمام بالتعليم والصحة وإنشاء الطرق وتجهيز الموانى واستغلال الموارد الزراعية والمعدنية والبحرية.

وتقدر الحكومة العمانية عدد سكان عمان بنحو ١٫٥ مليون نسمة، فى أوائل الثمانينات، ويتزايدون بمعدل كبير يصل إلى نحو ٣٫٠٪ سنويا، مما يعنى أن حجم السكان يمكن أن يتضاعف فى مدى زمنى يصل إلى نحو ربع قرن فقط.

وقد إنعكس انتاج البترول وتزايد عوائده على خطط التنمية المحلية الاجتماعية والاقتصادية للسكان، وتجلى ذلك فى توسيع قاعدة الخدمات العديدة خاصة التعليم والصحة، فقد زاد عدد المدارس من ثلاث مدارس ابتدائية عدد تلاميذها ٩٠٩ تلميذا فقط سنة ١٩٧٠ إلى ٤٩٩ مدرسة ابتدائية واعدادية وثانوية جملة تلاميذها ١٦٤٣١٦ تلميذا سنة ١٩٨٤/٨٣، كما زاد عدد المستشفيات من خمس مستشفيات بها ٢١٦ سريرا سنة ١٩٧١ الى ١٥ مستشفى حديثة بها ٢١٣٣ سريرا سنة ١٩٨٣.

ويتركب العمانيون من مجموعات متباينة فى عاداتها وتقاليدها موزعة باختلاف متباين على مساحة البلاد. ويعد العمانيون العرب أهم مجموعة من ناحية التعداد حيث يمثلون نحو ٧٠٪ من اجمالى السكان، وإلى جانبهم توجد مجموعات أخرى أبرزها البلوش (٧٪) وينحدرون من مكران وبلوخستان منذ أجيال عديدة ثم العمانيون الافريقيون (نحو ٨٪) وقد أتى الجزء الأكبر منها منذ أجيال أثناء العلاقات الوثيقة بين عمان وشرق أفريقيا، وبالإضافة لذلك هناك مجموعات أخرى من أهمها الايرانيون والهندوس وظهرت عناصر جديدة بعد سنة ١٩٧٠ ممثلة فى العمال الأجانب القادمين من الهند وباكستان وبعض البلاد العربية كذلك.

ويتميز المجتمع العمانى بأنه مجتمع قبلى مستقر، لكل قبيلة محلاتها الدائمة، ويرجع بعض القبائل فى أصوله إلى قبائل أكبر، ويتفاوت حجم هذه القبائل العمانية تفاوتا كبيرا يتراوح بين بضع مئات من السكان إلى رقم يصل إلى نحو ٥٠٫٠٠٠ نسمة كماهى الحال فى بعض قبائل المنطقة الشرقية، وتتميز القبائل بالتبعثر والتجزئة الى حد كبير،، وارتبطت هذه القبائل بمراكز عمرانية محددة. ولعل من أبرز أمثلتها نزوى وازكى وعبرى وآدم وصور وغيرها.

المنطقة	المساحة المزروعة بالهكتار	٪
الباطنة والعاصمة	٢٠٧٥٠	٥٠,٦
مسندم	١٠٣٠	٢,٥
الحجر الغربى	١٩٥٥	٤,٧
الحجر الشرقى	١٢٣٥	٣,٠
الجو والبريمى	٨٨٥	٢,٢
الظاهرة	٣٣٠٣	٨,١
عمان الداخل	٥١٦٧	١٢,٦
الشرقية وجعلان	٤٢٨٥	١٠,٤
المنطقة الجنوبية	٢٤١٤	٥,٩
الجملة	٤١٠٢٤	١٠٠,٠

الزراعة:

من الواضح أن الزراعة والرعى هما الحرفة الرئيسية لمعظم سكان عمان ولكنها لاتسهم إلا بنسبة ٧٪ من الناتج الاجمالى القومى بينما يسهم البترول بنحو ٦٧٪.

وتصل مساحة الأرض الزراعية فى عمان إلى ٤١٠٠٠ هكتارا موزعة على مناطقها بالنسب التالية[1]:

(١) سلطنة عمان – الكتاب الاحصائى السنوى – ١٩٨٣ – ص ٩٩.

وتتنوع الزراعة بشكل واضح حيث تزرع الفاكهة والخضراوات والحبوب ومحاصيل الاعلاف، ولكن المحاصيل التقليدية فى عمان هى الموالح والتمور والموز والمانجو والبصل. ويعد الصيد من الحرف الهامة فى المناطق الساحلية، ويبلغ انتاج الاسماك نحو ٦٠٫٠٠٠ طن سنويا. وقد اتجهت الحكومة الى تطوير قطاعى الزراعة والصيد عن طريق تقديم مساعدات للمزارعين والصيادين، وقد حقق برنامج المساعدات نتائج طيبة فى الخطة الخمسية الأولى (١٩٧١ - ١٩٧٥) التى شهدت نموا سنويا بنسبة ١٢ ٪. ومن المتوقع أن يكون هذا المعدل قد زاد فى الخطة الثانية (١٩٧٦ - ١٩٨٠). ورغم هذا التطور فى الزراعة فان الانتاج لايكفى الاستهلاك المحلى مما أدى إلى تزايد الاستيراد من الخارج وتبين ذلك الارقام التالية فى الجدول التالى:

جملة الصادرات والواردات الزراعية

وميزانها التجارى فى عمان (مليون دولار) (١)

السنة	صادرات	واردات	العجز
١٩٧٦	٤	١٠٠	- ٩٦
١٩٨٠	٢٤	٢٦٣	- ٢٣٩
١٩٨١	٣٨	٣١٠	- ٢٧٢
١٩٨٢	٢٤	٣٤٣	- ٣١٩

وتتمثل الواردات فى عدد من المنتجات الزراعية، أبرزها القمح والارز واللحوم والحيوانات والفاكهة وبعض المنتجات الأخرى، وقد جاء ذلك تلبية لزيادة الاستهلاك بعد زيادة عدد السكان بسرعة وتدفق المهاجرين إلى عمان مما جعل الانتاج المحلى غير قادر على تلبية الطلب المتزايد.

التعدين والنفط:

تأتي عمان فى المرتبة الخامسة بين دول مجلس التعاون الخليجى فى مجال انتاج البترول حيث وصل انتاجها منه إلى ٢٠ مليون طن سنة ١٩٨٤ وقد بدأ البحث عن البترول فى عمان فى وقت مبكر (سنة ١٩٥٥) إلا أنه لم يكتشف إلا فى سنة ١٩٦٢ فى المناطق الداخلية فى حقل يبيال وناطح وفهود، وصدرت أول شحنة من البترول للخارج فى سنة ١٩٦٧، وتزايد انتاج البترول بعد ذلك وأصبح يمثل أهم فروع الاقتصاد العمانى، ويصدر من ميناء الفحل فى منطقة العاصمة مسقط. وقد ارتبط به إنشاء مصفاة للنفط فى ميناء الفحل بطاقة تكرير مقدارها ٢ر٢ مليون طن، وكذلك استغلال الغاز الطبيعى فى بعض الأغراض الصناعية خاصة تشغيل محطة توليد الطاقة وتحلية مياه البحر فى الغبرة بمنطقة العاصمة وتشغيل مصنع النحاس فى صحار.

وبالإضافة إلى البترول هناك موارد معدنية أخرى أبرزها النحاس والكروم وكذلك رواسب الحجر الجيرى لانتاج الأسمنت.

المدن العمانية

لعبت المدن دورا هاما فى تاريخ عمان. وقد نشأ أكبرها كمراكز تجارية تقع على طول الطرق البرية الرئيسية أو على الساحل العمانى، فقد قامت المدن الداخلية كمراكز رئيسية وسط القرى الصغيرة الواقعة على طرق القوافل والتى تمتد من المدن الساحلية على خليج عمان وعبر المرتفعات الجبلية فى الداخل حتى تصل إلى مراكز العمران على ساحل الخليج العربى. ورغم وجود مراكز عمرانية حضرية كثيرة العدد إلا أن احجامها ضئيلة ولم تتوفر بها المقومات الحضرية التى تجعلها مراكز جذب سكانى قوية على المستوى المحلى - باستثناء مسقط العاصمة ومنطقتها.

وتتركز معظم المدن العمانية فى ساحل الباطنة، وأهمها من الشمال إلى الجنوب شناص وصحار وصحم والخابورة، ثم منطقة العاصمة (السيب ومطرح ومسقط)، كما تعدُ صلالة عاصمة المنطقة الجنوبية (ظفار) وتنمو بمعدل كبير وشهدت تطورا فى وظائفها بدرجة ملحوظة.

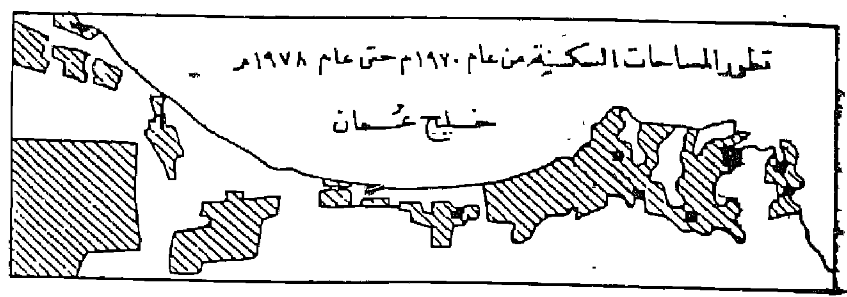
وتعد مدينة مسقط أهم المدن العمانية على الساحل، وقد شهدت توسعا كبيرا فى رقعتها المبنية، وتعد نموذجا واضحا على مدى التغير الحضرى الذى واكب التغير الاقتصادى فى عمان منذ السبعينات، فقد تعدت رقعة المدينة الموضع الاصلى الذى تحده المرتفعات غربا وزحف عمرانها نحو مقدمات هذه المرتفعات كما أمتد على طول الساحل فى شكل شريطى فيما بين مطرح - وهى المدينة التوأم لمسقط - وحتى السيب حيث المطار الدولى للسلطنة. وقد شهدت مدينة مطرح هى الأخرى ثورة عمرانية لعل من أبرز ملامحها إنشاء ميناء قابوس واصبحت بذلك المدينة التجارية الرئيسية فى السلطنة وتتصل بسهولة بالمناطق المجاورة عبر خطوط نقل حديثة.

وترجع الطفرة العمرانية التى شهدتها العاصمة مسقط وتوأمها مطرح إلى عهد قريب جدا، وهى فى ذلك مثل يتكرر فى الدول البترولية التى تكون عواصمها فى أغلب الأحيان - أول مدنها تطورا ونموا - وتعطى الحكومة.

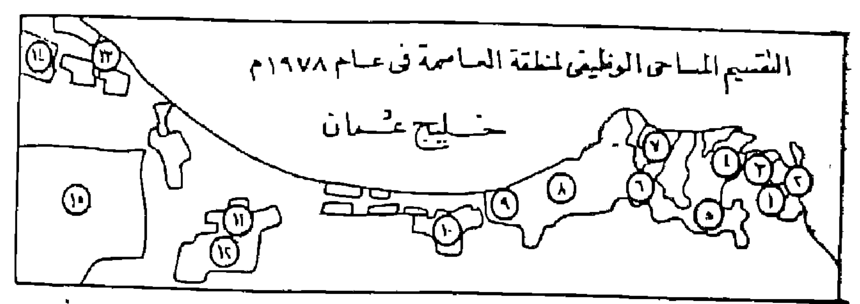
أهمية كبيرة لتطوير الخدمات الأساسية للبنية التحتية فى منطقة العاصمة بصفة خاصة وفى كل أقاليم الدولة على وجه العموم. وقد قدر أن سكان منطقة مسقط الكبرى سيتراوح عددهم بين ١٢٠٫٠٠٠ إلى ١٤٠٫٠٠٠ نسمة فى المستقبل القريب.

ثالثا: أقليم السواحل الشرقية (ساحل النفط):

يمتد هذا الاقليم من رأس مسندم حتي شط العرب، وهو عبارة عن سهل



المساحات السكنية فى عام ١٩٧٠م — المساحات السكنية فى عام ١٩٧٨م



(١) مطرح: قضاء أوقات الفراغ والاستجمام
(٢) مسقط: تمثيل البلاد وإدارتها
(٣) ريام: محطة توليد الكهرباء
(٤) مطرح: التجارة والميناء والسوق
(٥) روي: التجارة والصناعة والبناء والفنادق.
(٦) الوطية: الاستاد الرياضي والمدارس
(٧) ميناء الفحل: النفط والإدارات
(٨) القرم ومدينة قابوس: المساكن والإدارات
(٩) الغبرة: محطة توليد الكهرباء الجديدة ومحطة تحلية مياه البحر
(١٠) مساحات احتياطية
(١١) مطار السيب الدولي
(١٢) ثكنات الجيش والشرطة
(١٣) السيب: قضاء أوقات الفراغ والاستجمام
(١٤) السيب: قصر السلطان قابوس بن سعيد المعظم
(١٥) الرسيل: المنطقة الصناعية المستقبلة

تطور مدينة مسقط (منطقة العاصمة) منذ سنة ١٩٧٠
(نموذج للنهضة العمرانية الحديثة فى عمان)

شكل (١٧)

ساحلى متموج يقل ارتفاعه عن ٢٠٠ متر وتتبعثر به التلال المنخفضة، وتتغطى الأجزاء الشمالية الغربية منه بالقرب من رأس الخليج العربى بالرمال والحصى والقشور الصخرية الناتجة عن عملية التقشر Exfoliation بسبب عوامل التجوية فى هذه الجهات الصحراوية، أما فى الجهات الساحلية قرب الخليج فتكثر ظاهرة البحيرات الساحلية والسبخات الملحية، ونظرا لعملية الارساب النشطة الناتجة عن رواسب شط العرب فقد انعكس ذلك على خط الساحل فى هذا النطاق حيث تكثر الجزر الصغيرة والشطوط الرملية المتحركة.

وتسود فى اقليم الاحساء وفى جزر البحرين ظاهرة الينابيع المتدفقة والتى يرجع مصدرها إلى المرتفعات الغربية فى شط شبه الجزيرة العربية، والتى تتسرب منها المياه متتبعة الانحدار العام للطبقات الصخرية لتظهر فى الشرق فى مناطق متعددة من سهول الاحساء وجزر البحرين، بل أن هناك ينابيع تتدفق من قاع الخليج العربى، وتعطى مياها صالحة للشرب.

ولما كانت كمية الأمطار السنوية لاتزيد على ٤ بوصات (١٠سم) سنويا، فلا تقوم الزراعة إلا حيثما توفرت المياه الجوفية، وأكبر المناطق التى تتمتع بقدر وافر من هذه المياه، هى تلك المنطقة التى تحف بجزر البحرين، وفى اليابس المقابل لها فى السعودية خاصة فى واحات القطيف والهفوف. ويعد التمر المحصول الزراعى الرئيسى، كذلك يزرع الذرة الرفيعة والقمح إذا كانت مياه الرى كافية.

أما الساحل الممتد من رأس مسندم حتى شبه جزيرة قطر، فكان يسمى بالساحل المهادن، واعتمد أهله قديما على البحر سواء للتجارة أو الصيد، ويكون فى الوقت الحاضر دولة الإمارات العربية المتحدة.

وعلى العموم – فإن عملية التنمية والتطوير التى شهدتها عمان تكاد تكون قد بدأت من الصفر وستأخذ هذه العملية وقتاً ليس بالقصير حتى تؤتى ثمارها

فى التغير الديموغرافى للبلاد، وإن كان من الملاحظ أن إيقاع هذه العملية أسرع فى خطاه من بعض الدول الأخرى.

وتتشابه سلطنة عمان فى كثير من الوجوه الديموجغرافية مع دول الخليج الأخرى: الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية، وتكمن أبرز مظاهر التشابه فى الحجم السكانى الصغير نسبياً، كما تتشابه معها فى مكونات النمو الطبيعى إلى حد كبير خاصة مستويات الخصوبة العالية وإن كانت الوفيات فى بعض الدول الخليجية - كالكويت قد وصلت إلى حدود دنيا تجعلها مساوية لكثير من الدول المتقدمة.

كذلك فقد ارتبط النمو الديموغرافى فى عمان فى العقد الأخير بتغير اقتصادى مفاجئ ترتب على استخراج البترول واستثمار عوائده فى أحداث تغييرات مادية ملموسة فى المجتمع، تحولت عمان إلى دولة جذب سكانى بعد أن كانت بيئة طاردة من قبل، وقد ظل العمانيون فترة طويلة يكونون أساسا هاماً للأيدى العاملة فى الدول النفطية الأخرى التى سبقتها فى استخراج النفط وإستغلال عوائدة مثل الكويت والبحرين وقطر والمملكة العربية السعودية، ولكن يبدو أن تيارات الهجرة المرتدة إلى عمان أصبحت تفوق الهجرة المغادرة إلى الخارج والتى مازالت تجذبها الأجور العالية والفرص المتاحة للعمل فى الدول النفطية المجاورة.

على أن سلطنة عمان تختلف عن دول الخليج - باستثناء السعودية - فى ضخامة مساحتها نسبياً فهى تصل إلى نحو ثلاثة أمثال مساحة دولة الإمارات العربية وثلاث عشرة مرة قدر مساحة الكويت ونحو عشرين مرة قدر مساحة البحرين أو قطر، وقد ارتبط بذلك تباين بيئى فى أقاليم عمان المختلفة فهى تتميز بسهل ساحلى كثيف السكان تتركز به مراكز عمرانية هامة، ومن ناحية أخرى فالمرتفعات الجبلية فى سلسلة جبال عمان تحظى بأهمية كبيرة فى توزيع السكان

حيث تسود بها المراكز العمرانية المختلفة كما سنبين فيما بعد.

أما أبرز مظاهر التباين بين عمان وجاراتها فى الشمال والمغرب فتتمثل فى أن سكانها قد ولوا وجوههم مبكراً شطر البحر وتشابهوا فى ذلك مع أقرانهم فى جنوب غرب الجزيرة العربية (الحضارمة)، وكان لهذا التوجيه البحرى أثره المبكر فى اختلاط العمانيين بغيرهم من الشعوب، ونقل الثقافة العربية إلى أقاليم بعيدة وصل إليها العمانيون فى جنوب آسيا وفى شرق أفريقيا.

ومن مظاهر الاختلاف الأخرى أن التنمية فى عمان حديثة العهد للغاية ترجع بالكاد إلى سنة ١٩٧٠، حتى أنه يمكن اعتبار هذه السنة فاصلاً بين عهدين: أحدهما قديم وصف بالتخلف والجمود والآخر حديث شهد بداية التحول نحو الحديث، ذلك لأن عمان منذ ذلك التاريخ بدأت مرحلة تغيير جذرى لوضع أسس تنمية اجتماعية واقتصادية شاملة، وقد تجلت ملامح التغيير فى الاهتمام بالتعليم والصحة فأقيمت المدارس والمستشفيات وأنشئت بعض الطرق الهامة وتم تجهيز الموانئ الساحلية ووضعت خطة للتنمية الزراعية والبحث عن المعادن فى أنحاء السلطنة.

وقد لعبت الهجرة دوراً كبيراً فى التاريخ الديموغرافى لسلطنة عمان، وقد فاقت فى ذلك معظم دول شبه الجزيرة العربية إن لم يكن كلها، وبدأ العمانيون الهجرة مبكراً مدفوعين بعوامل الطرد البيئية وركبوا البحر نحو أقطار بعيدة فى جنوب آسيا وفى شرق أفريقيا، كما اتجهت بعض تيارات هجرتهم إلى الأقطار العربية القريبة فى منطقة الخليج، والتنقل والارتحال سمة تقليدية فى الحياة العمانية ويتميز بها قطاع كبير من الشعب العمانى، فبالإضافة إلى تحركات الرعاة موسمياً، فإن هجرة الريفيين بسبب الجفاف فى بعض السنوات أو لاسباب قبلية أو سياسية تعد من الظواهر الهامة فى العلاقة بين السكان وبيئتهم، وأكبر حركة فى تاريخ الهجرة العمانية من حيث عدد المهاجرين كانت إلى شرق أفريقيا،

وكانت حركة استيطانية فى واقع الأمر خاصة فى زنجبار التى خضعت فترة طويلة لسيطرة عمان.

توزيع السكان :

رغم التناقض الكبير فى تقدير حجم السكان الإجمالى لسلطنة عمان، فقد بذلت بعض المحاولات لتقدير التوزيع الإقليمى للسكان على مناطق السلطنة المختلفة، ولعل أبرزها ما ورد فى دراسة تونسند Twonsend فى منتصف السبعينات، ورغم أن جملة السكان وفق هذا التوزيع قد بلغت أقل من نصف مليون نسمة - أى أقل من ثلث ما تتبناه الدولة لأغراض التخطيط، إلا أن النظر إليه فى ضوء التوزيع النسبى قد يعطى صورة عامة عن شكل التوزيع كما يبدو من الشكل رقم (١٨) والجدول رقم (٧).

جدول رقم (٧) تقدير التوزيع الإقليمى لسكان عمان

(منتصف السبعينات)(١)

الإقليم	عدد السكان	٪
سهل الباطنة	١٠٢٥٠٠	٢٤٫١
منطقة العاصمة (مسقط - مطروح) المناطق الجبلية:	٥٠٠٠٠	١١٫٨
- السفوح الجبلية المواجهة للبحر	٢٨٠٠٠	٦٫٦
- المرتفعات والأودية الجبلية	٢٧٦٠٠	٦٫٥
- السفوح الجبلية الداخلية	١٢٠٤٠٠	٢٨٫٣
منطقة صور	١١٥٠٠	٢٫٧
ظفار	٥٠٠٠٠	١١٫٨
مسندم	١٥٠٠٠	٣٫٥
الصحراء	٢٠٠٠٠	٤٫٧
الجملة	٢٤٥٠٠٠	١٠٠

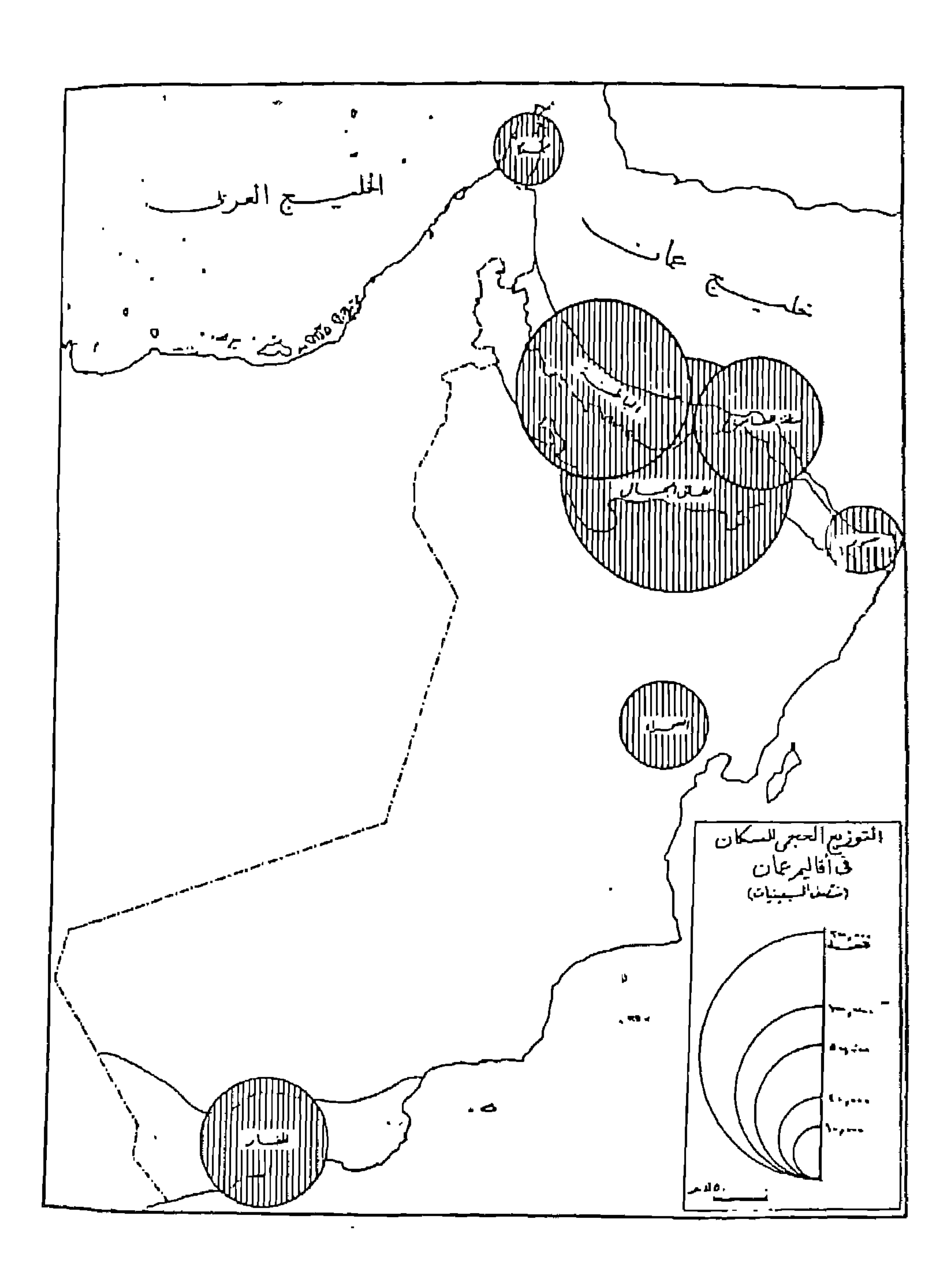
(1) Townsend, J., Oman, The - Making of Modern State, Croom Helm, London, 1977, P. 18

وبصرف النظر عما قد يشوب هذه التقديرات من نقص - أو ربما زيادة - فإن أهم الحقائق التى يمكن أن نستقيها من أرقام هذا الجدول أن سكان عمان يتركزون فى أربعة اقاليم رئيسية أكبرها المناطق الجبلية التى يعيش بها أكثر قليلاً من خمسى عدد السكان ويليها سهل الباطنة الذى يتركز به ربع عدد السكان ثم منطقة العاصمة التى تحظى بنحو عشر عدد السكان، وتأتى بعدها منطقة ظفار بنسبة مشابهة، ومعنى ذلك أن المرتفعات الجبلية فى منطقة مسقط بمقدماتها المواجهة للبحر أو بأوديتها الجبلية وبمقدماتها وسفوحها الداخلية هى منطقة التركز السكانى الرئيسية فى عمان كلها، وإذا أضفنا إليها سكان العاصمة المزدوجة - أرتفع نصيب هذه الأقاليم إلى أكثر من نصف سكان عمان بينما يتركز الربع فى سهل الباطنة بما فيه من مراكز عمرانية عديدة مثل صحم وصحار وشناص وغيرها.

أما بقية البلاد فهى مناطق مبعثرة السكان، ويزداد التبعثر فى المناطق الغربية والجنوبية، ويعد ذلك انعكاسا للظروف الصحراوية القاسية التى تميز هذه الاتجاهات كما هى الحال فى صحراء الربع الخالى غرباً وصحراء جدة الحراسيس جنوباً، إلا أن منطقة ظفار - وهىَ منطقة جبلية ذات أمطار قليلة يزداد بها عدد السكان نسبياً إذا ما قورنت بالأقاليم الصحراوية المجاورة، وتكون فى واقع الأمر منطقة تركز سكانى ثانوى يفصله عن منطقة التركز الرئيسية فى الشمال صحراء جدة الحراسيس.

أما المنطقة الثانوية الأخرى التى يرتكز بها السكان ولكن بنسبة قليلة - فتقع فى أقصى شمال عمان، وتتمثل فى إقليم مسندم - أو روس الجبال - ولا يعيش به سوى ٣٫٥٪ من جملة سكان عمان يتبعثرون فى قرى صغيرة أغلبها ساحلى.

ومن الجدير بالذكر أن صورة التوزيع السكانى فى عمان السبعينيات لاتختلف كثيراً عما كانت عليه فى بداية هذا القرن، فقد ذكر «لوريمر» إن سكان عمان


الخليج العربي
خليج عمان
التوزيع الحجمي للسكان
في أقاليم عمان
(منتصف السبعينات)

شكل رقم (١٨)

فى سنة ١٩٠٨ كانوا نحو نصف مليون نسمة ربعهم تقريباً فى سهل الباطنة، وتحظى المرتفعات الجبلية فى مسقط بالنسبة الكبرى سواء فى مرتفعات الحجر الغربى أو الحجر الشرقى، بينما يتبعثر السكان فى بقية المناطق تبعثراً شديدا[١].

سكان المناطق الريفية

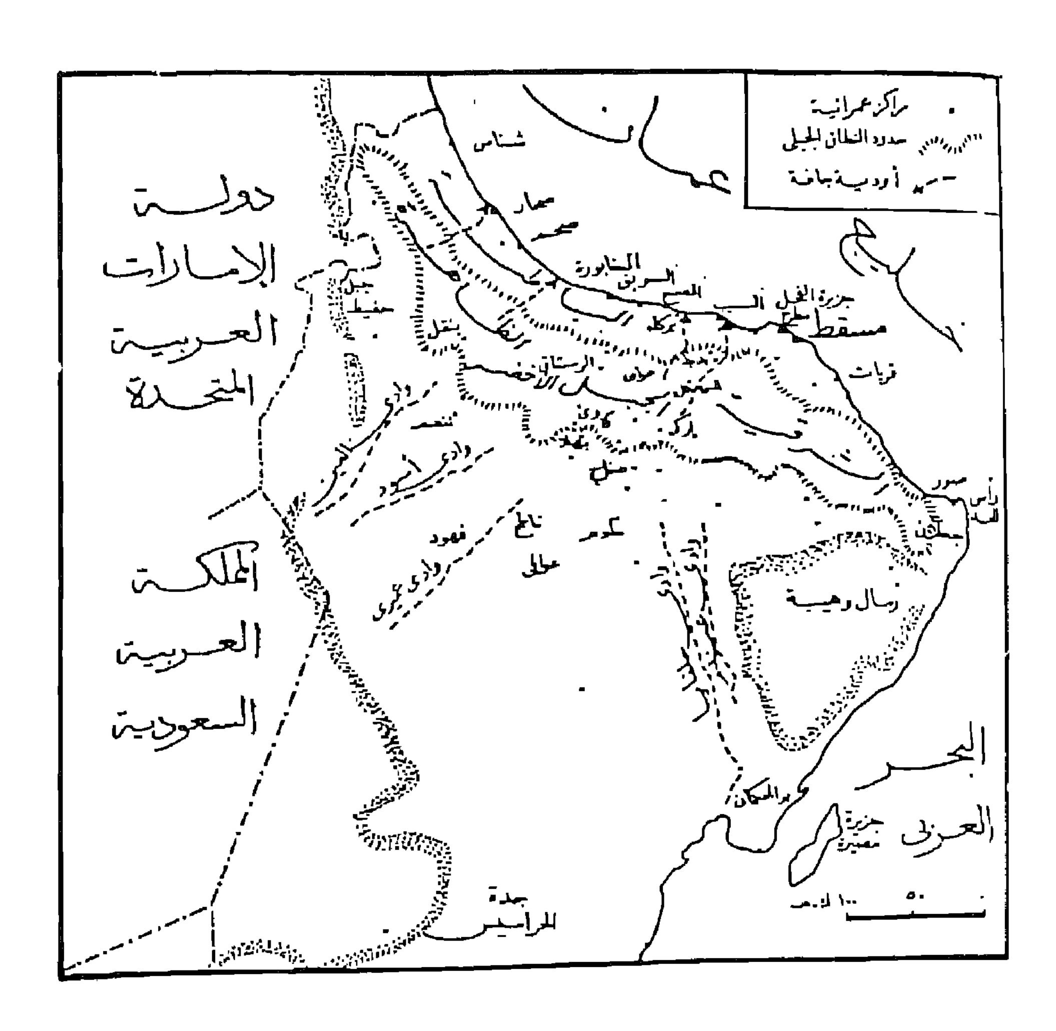
تقدر مساحة الأراضى الزراعية فى عمان بنحو ٣٦٠٠٠ هكتاراً، وهى بذلك تمثل نسبة ضئيلة للغاية تصل بالكاد إلى ١٥٪ من جملة مساحة البلاد، ويعيش بهذه الأراضى الزراعية نحو ٩٠٪ من جملة السكان، ويتركزون فى قرى مبعثرة تبدو كجزر منعزلة خاصة فى الأودية الجبلية والمناطق الصحراوية.

ويمثل سهل الباطنة القلب الزراعى للسلطنة حيث يحوى نحو ٤٠٪ من مساحة الأراضى الزراعية مقابل نحو ٤٪ فى إقليم ظفار و٢٪ فى شبه جزيرة مسندم – والباقى يتبعثر فى جيوب متناثرة فى الأودية الجبلية ومقدمات الجبال العمانية[٢].

وقد حددت موارد المياه توزيع العمران فى عمان – مثلها فى ذلك مثل بقية الأقاليم الصحراوية وشبه الصحراوية، وقد وجهت التركز السكانى – السكنى فى سهل الباطنة والمناطق الجلية ومنطقة ظفار، وتبدو الحلات الريفية على هيئة قرى شبه محصنة قامت حول مورد للمياه، وقد أدى الصراع على هذا المورد وطبيعة الأرض الوعرة إلى جعل الحلة العمانية تبدو كوحدة مغلقة ذاتياً، وفى بيئة قاسية كهذه تعود السكان على تحدى الظروف الطبيعية وغارات جيرانهم بل وغزوات المغيرين من الخارج[٣].

ويتميز المجتمع العمانى بأنه مجتمع قبلى مستقر – لكل قبيلة حلاتها الدائمة

(١) لوريمر : دليل الخليج – الجزء الرابع والخامس – ص ٢٥٢٣.
(2) Towsend, J., Oman, Op. Cit., PP. 15-17.
(3) Middle East Economic Digest, London, 1976, vol. 20, No. 26, P. 24.



شكل رقم (١٩)
مراكز العمران الرئيسية فى الأقاليم الجبلية فى عمان

ويبلغ عدد هذه القبائل نحو ۲۰۰ قبيلة على أقل تقدير، ويرجع بعضها فى أصوله إلى قبائل أكبر، ويتفاوت حجم هذه القبائل العمانية تفاوتاً كبيراً يتراوح بين بضع مئات من السكان إلى رقم يصل إلى نحو ۳۰۰۰۰ نسمة كما هى الحال فى بعض قبائل المنطقة الشرقية، وعلى العموم فإن القبائل المستقرة يقدر أنها تشكل نحو أربعة أخماس سكان عمان(۱).

وبالإضافة إلى ذلك - فهناك بعض القبائل البدوية المتنقلة الصغيرة العدد، ولاتتعدى نسبتها ٥٠ ٪ من جملة عدد السكان، ويمارسون حرفة الرعى البدوى المتنقل فى مناطق صحراوية واسعة تصل إلى نحو ٨٠ ٪ من مساحة السلطنة.

وتتميز القبائل العمانية - المستقرة منها والمتنقلة - بالتبعثر والتجزئة إلى حد كبير - لدرجة يصبح معها رسم خريطة توضح حدود كل قبيلة أمراً غير واقعى، ولكن كما سبق القول - فقد ارتبطت القبائل المستقرة بمراكز عمرانية محددة، ولعل من أبرز أمثلتها نزوى وأزكى، وقبيلة الحرث فى المنطقة الشرقية ومركزها عبرى، وقبيلة بو حسن فى منطقة جعلان بجوار مسقط وبنى بو على وبعضهم فى صور، وآل بو سعيد فى آدم ونزوة ... وهكذا.

ولكن بالرغم من ذلك فإن هناك قبائل كبرى لاتتمركز فى محلة عمرانية محددة بل وتنتشر فى أنحاء السلطنة ولعل من أهم أمثلتها قبيلة بنو هناءة - وهى من أكبر القبائل العمانية (نحو ۲۰٫۰۰۰ نسمة) وكذلك قبيلة الحبوس ۲٥۰۰۰) وتقيم أساسا فى المنطقة الشرقية، والحراسيس (۱٥٫۰۰۰) فى نخل والحجريون (۱٥٫۰۰۰) فى المنطقة الشرقية وبنو عمر (۱۳٫۰۰۰) فى الباطنة وال وهيبة فى الشرقية (۳۰٫۰۰۰) ثم قبيلة الدروع (۱٦٫۰۰۰) وعاصمتهم تنعم، وهى بلدة صغيرة جنوب عبرى ويشتهرون باستخراج الملح من ملاحات كبيرة تقع عند الطرف الشرقى للربع الخالى ويبيعونه فى عبرى ونزوى.

(1) Ibid., P. 52.

وتعد قبيلة الشحوح فى روس الجبال (مسندم) فى الشمال قبيلة بدائية لايعرف عنها إلا القليل، ويعمل أفرادها فى صيد الأسماك والرعى البدائى، ولايزيد عددهم على ١٥٫٠٠٠ نسمة، ويتحدثون العربية والفارسية، أما فى أقصى الجنوب – فى إقليم ظفار فأهم القبائل قبيلة القراء الرعوية – والتى تعيش فى منطقة جبلية تحمل نفس الاسم – ولايزيد عددهم على ٢٠٫٠٠٠ نسمة، ويختلفون فى مظهرهم عن بقية سكان عمان – بل وفى لغتهم أيضا، وتشتهر منطقتهم باستخراج اللبان من أشجاره المزروعة وتصديره إلى الخارج، كما تنمو على أطراف السهول أشجار البخور والصمغ، والمراكز العمرانية هنا – مثلها مثل بقية البلاد – صغيرة الحجم وتتميز بموقعها الساحلى وأهمها بلدة صلالة ومرباط وريسوت.

ومن المتوقع أن التغير الاقتصادى والاجتماعى الذى تشهده عمان منذ السبعينيات وحتى الوقت الحاضر سينعكس بالضرورة على النظام القبلى التقليدى السائد، وذلك كله نتيجة انتشار التعليم والتوسع فى خدماته ومظاهر التنمية الأخرى، ويضاف إلى ذلك أن حركة الهجرة الداخلية والخارجية والتى تستوعب أعداداً كبيرة من أبناء القبائل الذى ينتقلون إلى مجتمعات مختلفة ستؤدى إلى تقليص النفوذ القبلى عليهم وبالتالى تدهور النظم القبلية إلى حد ما، ومع ذلك كله فما زالت العلاقات القبلية قوية فى عمان وليس من السهل فهم البناء الاجتماعى فى الدولة دون أن ندرس بالتحليل – النظام القبلى السائد فيها ومدى تأثيره وتأثره بمظاهر التغير الذى يعترى السلطنة، ويخرجها من النظم التقليدية السابقة.

سكان المدن

لعبت المدن دوراً هاماً فى تاريخ عمان، وقد نشأ أكبرها كمراكز تجارية تقع على طول الطرق البرية الرئيسية، أو على الساحل العمانى، فقد قامت المدن

الداخلية كمراكز رئيسية وسط القرى الصغيرة القريبة على طرق القوافل التى تمتد من المدن الساحلية على خليج عمان وعبر المرتفعات الجبلية فى الداخل حتى تصل إلى مراكز العمران على ساحل الخليج العربى.

وتعد عمان من أقل الدول العربية فى نسبة سكان المدن والتى تقدر بحوالى ٥٠ ٪ فقط من إجمالى السكان، ويبدو النمط الحضرى هزيلاً نتيجة الركود الاقتصادى الذى عاشته البلاد طويلا قبل السبعينيات، ورغم وجود مراكز عمرانية حضرية كثيرة العدد إلا أن أحجامها ضئيلة ولم تتوفر بها المقومات الحضرية التى تجعلها مراكز جذب سكانى على المستوى المحلى.

ومن الواضح - من دراسة البيانات المتاحة عن أحجام المدن العمانية - أنها ذات أحجام متواضعة إلى حد كبير، كما أنها - باستثناء العاصمة منذ سنة ١٩٧٠ فقط - لم تشهد تغيراً يذكر فى أحجامها على امتداد النصف الأول من القرن العشرين كما تبين أرقام الجدول رقم (٨)، وقد يكون مرجع ذلك الثبات الحجمى هو تباين التقديرات ولكن الأرجح أن هذه المدن لم تكن مراكز جذب سكانى يضيف إليها بل ظلت تدور فى حلقة الثبات الديموغرافى الذى تعوض المواليد فيه الوفيات، وتتجه الزيادة السكانية إلى الهجرة الخارجة.

وتتركز معظم المراكز العمرانية الحضرية فى ساحل إقليم الباطنة، وأهمها من الشمال إلى الجنوب شناص وصحارى وصحم والخابورة ثم السيب ومطرح ومسقط (شكل رقم ٢٠) وتقوم مدن الباطنة كموان بحرية ومراكز للتجارة خاصة تجارة التمور، وتعتبر صحار المدينة الرئيسية وتقع على الساحل عند نهاية طريق القوافل، الذى يتجه نحو الغرب، وهى سوق تجارية للجلود وغيرها من الغلات التى ترد من المرتفعات الغربية، كما أنها تزود هذه المناطق الداخلية بما يرد إليها من الخارج من أرز وأقمشة ومصنوعات مختلفة.

جدول رقم (٨) تقديرات المدن العمانية(١)

المدينة	تقدير لوريمر ١٩٠٨	تقدير الأمم المتحدة ١٩٦٣	تقدير الأمم المتحدة ١٩٧٣
مسقط	١٠,٠٠٠	٥,٠٠٠	١٨,٠٠٠
مطرح	١٤,٠٠٠	١٤,٠٠٠	١٥,٠٠٠
صحار	٧,٥٠٠	٨,٠٠٠	١١,٠٠٠
صور	١٢,٠٠٠	٨,٠٠٠	١١,٠٠٠
نزوى	٦,٠٠٠	٨,٠٠٠	١٣,٠٠٠
شناص	٢,٠٠٠	٢,٠٠٠	*
عبرى	٥,٠٠٠	٥,٠٠٠	*
ازكى	*	٤,٠٠٠	*
بهلا	*	٣,٠٠٠	*
الخابورة	٨,٠٠٠	*	٨,٠٠٠

وتبدو صحارى مدينة مكدسة، يحيط بها سور وخندق، ويعيش كثير من سكانها الذين يصلون إلى حوالى ١١,٠٠٠ نسمة تقريباً خارج السور، فى عشش من حصير النخيل، وينتجون بعض المصنوعات المحلية خاصة الأقمشة الحريرية والقطنية(٢).

(١) أ - لوريمر - دليل الخليج - المرجع السابق.

ب - مصطفى الدباغ - جزيرة العرب - الجزء الثانى - بيروت - ١٩٦٣ - ص ١١٧ - ١٢٥.

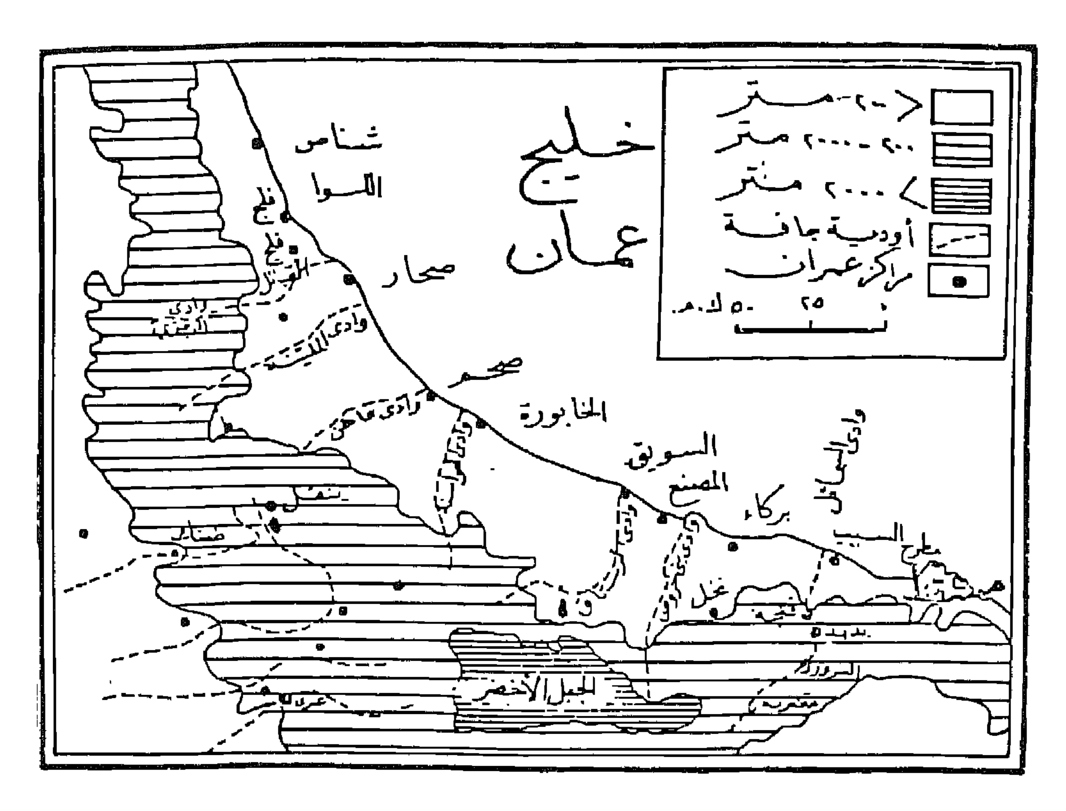
جـ - A. G. Hill, The Gulf States, ... Op. Cit.

د - U. N. National Experience, P. 6.

هـ - محمد متولى - حوض الخليج العربى - الجزء الأول - ١٩٧٥ - ص ٣٣٨.

(*) بيانات غير متوفرة.

(٢) محمد متولى، المرجع السابق، ص ٣٣٧.



شكل رقم (٢٠) سهل الباطنة

والمدينة الرئيسية الأخرى فى إقليم الباطنة هى مدينة الخابورة التى يربو سكانها على ٨٠٠٠ نسمة وتقع على بعد ستين كيلومتراً إلى الجنوب الشرقى من صحار، وفى قسم من هذه المدينة تبنى المنازل من الحجارة والطين، أما فى بقية المدينة فالمنازل جميعها عبارة عن عشش من حصير النخيل..

وعند الطرف الجنوبى لساحل الباطنة تقوم مدينة السيب وتعد من المحلات العمرانية الصغيرة (حوالى ٢٠٠٠ نسمة) وتقع عند نهاية وادى سمايل، ولها أهمية لدى سكان مسقط حيث يلجأون إليها للاصطياف فى فصل الحرارة الشديدة.

وتعد مدينة مسقط أهم المدن العمانية على الساحل، ورغم ضيق موضعها الذى لايسمح بالتوسع بسهولة (شكل ٣-٥) إلا أنها شهدت توسعاً فى رقعتها

المبنية، وهى تعد نموذجا واضحاً على مدى التغير الحضرى الذى واكب التغير الاقتصادى منذ السبعينيات، فقد تعدت رقعة المدينة الموضع الأصلى الذى تحده المرتفعات غرباً وزحف عمرانها نحو مقدمات هذه المرتفعات، كما أمتد على طول الساحل فيما بين مطرح – وهى المدينة التوأم لمسقط – وحتى السيب، وقد شهدت مدينة مطرح هى الأخرى تغيراً كبيراً فى المظهر العمرانى لعل من أبرز ملامحه إقامة ميناء قابوس، وأصبحت بذلك المدينة التجارية الرئيسية فى السلطنة وقد ساعدت ظروف موضعها على تطوير مينائها الذى يقع على خليج يلى خليج مدينة مسقط مباشرة، كذلك فإن الوصول إليها سهل، وتتبادل الحركة التجارية مع موانئ الخليج العربى والمحيط الهندى.

وترجع الطفرة العمرانية التى شهدتها العاصمة مسقط وتوأمها مطرح إلى عهد قريب جداً – وهى فى ذلك مثل يتكرر فى الدول البترولية التى تكون عواصمها– فى أغلب الأحيان– أول مدنها تطوراً ونمواً حتى يمكن القول بأن الارتباط القوى للغاية بين استغلال موارد البترولية والتنمية الاقتصادية ينعكس أول ما ينعكس على مدن العواصم حيث ينمو سكانها بمعدل كبير جداً وفى فترة تطول أو تقصر حسبما تحدده ظروف كل دولة وخططها التى تعمل على تركيز الوظائف فى العاصمة ومن ثم اتساع رقعتها اتساعاً شرهاً على حساب المدن المحلية الأخرى.

ومما سبق يبدو أن هناك نمطين رئيسيين لتوزيع السكان فى عمان: أحدهما نمط التوزيع الساحلى والآخر هو التركز السكانى والسكنى فى الأودية الجبلية، وتلك سمة رئيسية مميزة لعمان، ويبدو النمط الأول ممثلا فى ساحل الباطنة وساحل منطقة صور التى تمتد من مدينة مسقط حتى رأس الحد، وتبدو المراكز العمرانية الواقعة على الساحل على هيئة سلسلة متعاقبة من المدن والقرى التى تتفاوت فى أحجامها وأهميتها، وتشترك فى معظمها فى وقوعها عند نهايات الأودية المنصرفة من مرتفعات الحجر الغربى والحجر الشرقى نحو خليج عمان

ويعمل سكانها بالزراعة والصيد والتجارة اعتماداً على توجيهها البحرى.

أما سكان الأودية فيتوزعون فى المرتفعات الجبلية سواء الحجر الغربى أو الشرقى أو المنطقة الظاهرة وظفار ويشتهر الكثير من هذه الأودية فى أهميته العمرانية والانتاجية وتعتمد الزراعة فيها على مياه باطنية وتتركز فى مصاطب أو مدرجات يمكن ريها فى هذه الأودية، ومن ثم قامت القرى العديدة وبعض المدن الهامة فى الداخل مثل ضنك فى وادى ضنك وعبرى فى وادى العين، فى مدى ست سنوات فقط، والناظر إلى النمط العمرانى العمانى الحديث يجد زن التغير الاقتصادى الذى شهدته البلاد أدى إلى تحويل العاصمة إلى مركز جذب سكانى رئيسى واتجهت إليها هجرة وافدة تمثلت فى عودة عدد كبير من العمانيين الذين كانوا بالخارج، كذلك تعرضت لهجرة دولية تمثلت فى القوى العاملة التى وفدت إلى عمان للإسهام فى خطط التنمية بها، وقد كان معظم هؤلاء الوافدين -كما سبق القول- من الهند والباكستان، ويضاف إلى ذلك كله أن العاصمة أصبحت مركز جذب للأيدى العاملة المحلية التى وفدت من المناطق الريفية بالداخل وكذلك من سهل الباطنة.

والواقع أن الهجرة العمانية العائدة تعد من المؤثرات الرئيسية فى النمو الحضرى للعاصمة مسقط وتوأمها مطرح، ذلك لأن العائدين وفدوا من منطقتين رئيسيتين هما: أقطار البترول الخليجية، ومن شرق أفريقيا خاصة من زنجبار، وفضل معظم هؤلاء الإقامة فى العاصمة التى تحظى بالخدمات الأكثر، كما أن مستواهم الاقتصادى المرتفع نسبياً أسهم فى زيادة الطلب على الأراضى لتعميرها وكذلك انشاء مشروعات خاصة متنوعة توفرت لها رؤوس الأموال الفردية.

وتعطى الحكومة العمانية اهتماماً كبيراً لتطوير الخدمات الأساسية للبنية التحتية فى منطقة العاصمة - والتى تمتد فى التخطيط العمرانى لتشمل مسقط ومطرح وساحل الباطنة حتى السيب شمالاً، وقد استعانت فى ذلك بخبرة اجنبية خاصة

المخطط الفرنسى ايكوشار M. Echochard، وقدر أن سكان منطقة مسقط الكبرى سيتراوح عددهم بين ١٢٠٫٠٠٠ نسمة إلى ١٤٠٫٠٠٠ نسمة «فى المستقبل القريب».

ويعد وادى السمائل واحدا من أهم الوديان فى توزيع السكان فى عمان، وهو يقطع منطقة الحجر الجبلية بأنحناءة واضحة من شرق الجبل الأخضر وجبل نخل ويسير فى اتجاه الشرق ويصل إلى الساحل بمصبات عديدة بجوار مدينة السيب وبطول يصل إلى نحو ٨٠ كيلومترا، ويتركز السكان فى هذا الوادى حيث يعملون بالزراعة اعتماداً على المياه الوفيرة به، وتبدو المراكز العمرانية فيه على هيئة سلسلة متعاقبة أهم مراكزها المغبرية والسرور والبدبد والفنجة (شكل رقم ٣-٣).

البترول والتغير الديموغرافى فى عمان

بدأ اقتصاد عمان منذ أوائل السبعينيات يعتمد اعتماداً يكاد يكون كلياً على البترول، وقد بدأ انتاجها منه فى سنة ١٩٦٧ وتزايد من نحو ٣ مليون طن فى تلك السنة إلى ١٤٫١ مليون طن سنة ١٩٧٢ ثم إلى ١٨٫٣ مليون طن سنة ١٩٧٦، وقد ارتفعت عائدات البترول التى حصلت عليها عمان من ١٫٩ مليون ريال عمانى سنة ١٩٦٧ إلى ٤٤٫٤ مليون سنة ١٩٧٠ ثم إلى ٦٠٫٦ مليون سنة ١٩٧٣، ثم حدثت الطفرة بعد ذلك حيث وصلت العائدات الحكومية إلى ٢٩١٫٥ مليون ريال سنة ١٩٧٤ ثم إلى ٣٦٩٫٨ مليون سنة ١٩٧٥[1] ومن المعروف أن الزيادة الكبيرة التى طرأت على عوائد النفط ترجع إلى أرتفاع أسعاره بعد حرب اكتوبر ١٩٧٣ - وكذلك حصول السلطنة على ٦٠٪ من أسهم شركة انتاج النفط الوحيدة فى عمان (شركة تنمية نفط عمان المحدودة)[2].

---

(١) الريال العمانى = ٢٫٨ دولار أمريكى تقريبا سنة ١٩٨١.

(٢) بيركس وسنكلير، المرجع السابق، ص ٣٢٧.

وقد أنعكس انتاج البترول وتزايد عوائده على خطط التنمية المحلية الاجتماعية والاقتصادية بشكل واضح، وتجلى ذلك فى توسيع قاعدة الخدمات العديدة، إلا أن التنمية تواجه العديد من المشكلات بسبب حالة التخلف الشديد الذى كانت تتصف به البلاد - فيما قبل عهد التحول منذ السبعينيات حتى أن كل المشروعات والخطط تبدأ تقريبا من نقطة الصفر.

ولاشك أن أبرز مظاهر التنمية الاجتماعية فى عمان والتى بدأت مواكبة للتطور الكبير فى عوائد البترول - تتجلى فى التعليم والصحة بالدرجة الأولى، وهما مظهران رئيسيان يرتبطان بالتغير الديموغرافى فى المجتمع.

التعليم

لم يكن بعمان كلها حتى سنة ١٩٧٠ سوى ثلاث مدارس ابتدائية لتعليم البنين فقط، كما كان هناك نوع من التعليم الثانوى فى مسقط ومطرح وصلالة، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك أيضا مدرسة البعثة الأمريكية التى كانت تقدم تعليماً ابتدائيا محدودا ولم تضم كل هذه المدارس سوى ٨٠٠ تليمذاً وهى نسبة لاتكاد تذكر فى مجتمع كهذا.

وكانت الأغلبية العظمى من الأطفال العمانيين يتلقون تعليماً تقليدياً للغاية يتمثل فى نظام «الكتاب» حيث يتلقى الصنبية دروساً فى الدين ويحفظون القرآن الكريم ويلمون بالقراءة والكتابة الماماً أولياً، وقد اتجهت الحكومة إلى إنشاء المدارس الابتدائية الحديثة لتكون أساساً لبناء قاعدة تعليمية أفضل ولتحل محل هذه الكتاتيب الصغيرة.

وقد تزايد عدد المدارس بشكل كبير للغاية من ثلاث مدارس ابتدائية سنة ١٩٧٠ إلى ٣٥٢ مدرسة سنة ١٩٧٩/٧٨ منها ٢٥٧ مدرسة ابتدائية و ٨٦ مدرسة اعدادية وتسع مدارس ثانوية، ومن الظاهرات المشجعة تزايد تعليم الاناث بشكل ملحوظ حيث أنشئت لهن ٧٢ مدرسة، وذلك بالإضافة إلى التعليم

المختلط فى المراحل الدنيا فى ١٣٤ مدرسة ابتدائية، ١١ مدرسة اعدادية، وترتب على ذلك تزايد كبير فى اعداد التلاميذ.

وتبين أرقام الجدول المذكور التطور السريع بمعدل كبير للغاية فى عدد المدارس والتلاميذ، فقد تضاعف عدد الأخيرين بحوالى إثنتى عشرة مرة فى ثمان سنوات فقط، وتدل الأرقام على تزايد الاهتمام بتعليم الفتيات بشكل واضح. ولاجدال فى أن التغير الاجتماعى فى المستقبل يعتمد فى كثير من جوانبه على تزايد التعليم بصفة عامة وتعليم الإناث على وجه الخصوص فى مجتمع تام كهذا المجتمع، وبالإضافة إلى ذلك فقد أنشئت فصول لمحو الأمية للكبار حققت نجاحاً كبيراً فى عديد من المناطق.

ورغم هذه الجهود التى بذلت لتوسيع قاعدة الخدمات التعليمية - فقد قدرت نسبة الأمية فى المجتمع العمانى بنحو ٨٠٪ فى سنة ١٩٧٤، كما قدر أن حوالى ربع عدد الأطفال فقط فى سن التعليم هم المسجلون فى التعليم الابتدائى، وتهدف الحكومة العمانية إلى التعميم هذا النوع من التعليم والتوسع فى التعليم الثانوى حتى سنة ١٩٨٥.

الصحة

شملت التنمية البشرية فى عمان تطوراً كبيراً فى الخدمات الصحية، فلم تكن تتوفر بالبلاد خدمات صحية من أى نوع قبل سنة ١٩٧٠ وذلك باستثناء مستشفى البعثة الأمريكية فى مطرح والتى كان المرضى يأتون إليها من مسافات بعيدة تبلغ مئات الكيلومترات طلباً للعلاج، كما كان هناك مستشفى أنشأته الحكومة البريطانية والسلطنة العمانية فى مسقط لم يكن يحوى سوى ١٩ سريراً فقط وذلك بالإضافة إلى بعض الخدمات الطبية الخاصة بالقوات المسلحة وشركات البترول.

وقد أعطيت للخدمات الصحية - مثل التعليمية - أولوية كبرى فى برنامج

التنمية في عمان، فقد بدأت الحكومة برنامجاً طموحاً بانشاء مستشفيات حديثة فى مسقط ومطرح وصلالة وتنعم وصور بالإضافة إلى امتداد بعض الخدمات الصحية لمدن صغيرة أخرى.

ويبدو مدى التزايد فى عدد المستشفيات والمراكز الصحية وعدد الأسرة بها، ففى ثمان سنوات فقط أنشئت ثلاث عشرة مستشفى وتضاعف عدد المراكز الصحية ومستوصفات ثلاث مرات والأطباء ست عشرة مرة والأسرة أكثر من مائة مرة. ولاشك أن هذه الخدمات الطبية ستسهم فى تحسين الظروف الصحية للمجتمع العمانى فى ضوء الحقيقة الهامة والتى تتمثل فى أن المستوى الصحى الحالى منخفض، وتنتشر كثير من الأمراض خاصة أمراض العيون (يعد مرض التراكوما أكثرها انتشاراً) والدوسنتريا والملاريا والدرن، ومن المتوقع أن تشهد السنوات القليلة القادمة انخفاضا حاداً فى معدلاتِ الوفيات الخام ووفيات الأطفال الرضع على وجه الخصوص، ما سيعكسه ذلك من تزايد طبيعى فى المجتمع العمانى.

الخلاصة

وهكذا يبدو أن عمان نموذج فريد فى التغير الديموغرافى المرتبط بالبترول، ورغم أنها تشبه فى ذلك بعض دول الخليج العربى الأخرى، إلا أنها ذات شخصية جغرافية مميزة عن تلك الدول فهى - باستثناء السعودية - أكبر دول الخليج مساحة - وربما سكاناً - وتتعدد فيها البيئات بين سهول ساحلية تسود فيها الزراعة إلى مناطق جبلية ينتشر العمران بها فى أوديتها العديدة اعتماداً على مياه الأفلاج، ومناطق رعوية فى مقدمات المرتفعات غرباً وجنوباً، وبالإضافة إلى ذلك كله خلق الموقع البحرى حرفاً عديدة للمراكز العمرانية الساحلية لعل من أهمها التجارة وصيد الأسماك.

على أن أبرز سمة ميزت عمان هو توجيهها البحرى المبكر والذى يفوق

بكثير أيه دولة أخرى فى منطقة الخليج وقد انعكس ذلك على امتداد نفوذها ليصل إلى مسافات أبعد حتى السواحل الشرقية لأفريقيا - غرباً ومناطق من جنوب آسيا - شرقا، وكان لذلك أثر كبير فى اختلاط العمانيين بغيرهم من الشعوب مبكراً ويبدو ذلك بوضوح فى النسيج البشرى للسلطنة خاصة فى السهول الساحلية والمراكز العمرانية بها.

كذلك - فإن عمان أحدث الدول النفطية فى منطقة الخليج - ورغم أنها تعد منتجاً متواضعاً للبترول - فقد بدأت فى تبنى خطط للتنمية الاجتماعية والاقتصادية بإيقاع سريع انعكس على مظاهر عديدة بها كالتعليم والصحة وغيرها، ورغم أنها أسهمت مبكراً فى إمداد الدول المجاورة بالقوى العاملة إلا أنها تعد سوقا - وإن كان محدوداً - للأيدى العاملة الأجنبية الوافدة إليها - ومن ثم فهى مثل فريد فى المشرق العربى لدولة تصدر القوى العاملة وتستوردها فى آن معاً.

وقد عاشت عمان ردحاً طويلاً من الزمن فى اطار مرحلة النمو السكانى البدائى - بل لا يستبعد أن تكون قد تعرضت لنقص طبيعى فى سكانها فى بعض الفترات فى عهد ما قبل النفط، وذلك بسبب تزايد معدلات الوفيات بها خاصة وفيات الأطفال الرضع، كما كانت الهجرة الخارجة منها إلى الدول الأخرى خاصة الدول البترولية فى منطقة الخليج - سبباً من أسباب تناقص السكان على الأرجح، وعلى ذلك فيمكن القول بأن الثبات الديموغرافى فى عمان ما قبل السبعينيات كان ملازماً للركود الاقتصادى والتخلف الاجتماعى فى هذا المجتمع التقليدى.

وقد دخلت عمان مرحلة ديموغرافية هامة منذ أوائل السبعينيات، حيث استغلت عوائد النفط فى أحداث تغيير جذرى فى البنية التحتية والخدمات التعليمية والاقتصادية العديدة، وأدى ذلك إلى تغيرات ملموسة فى الموقف

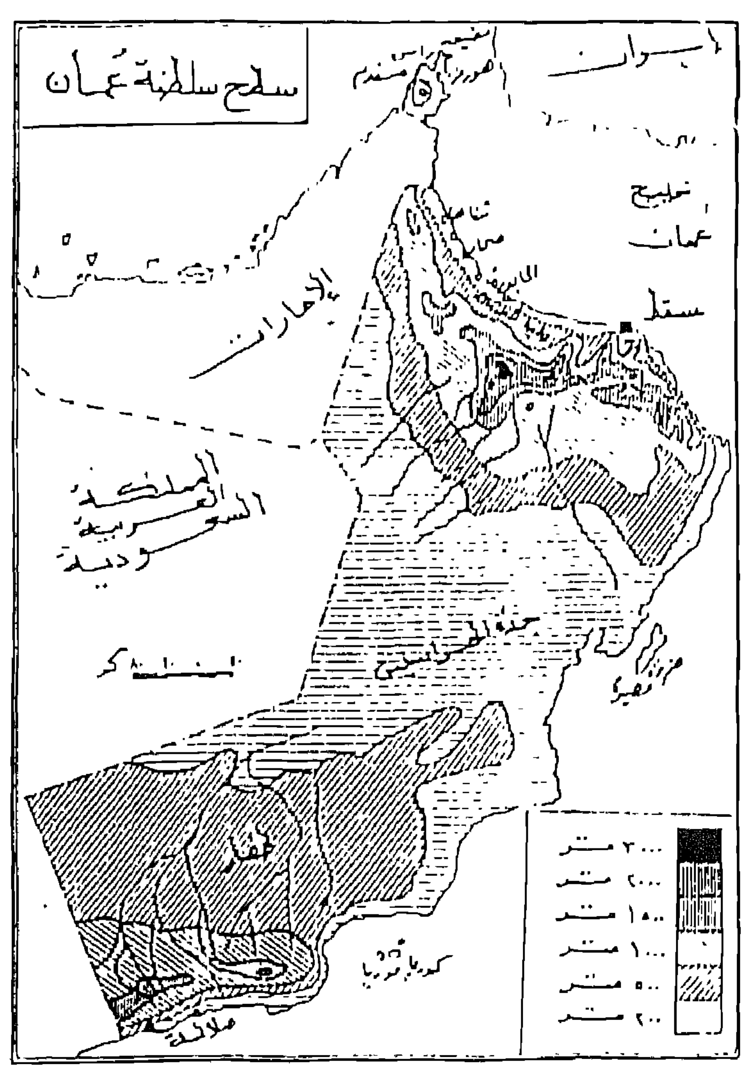
الديموغرافى كما أبرزها خلق تيارات هجرة وافدة سواء عودة العمانيين من الخارج أو وفود أيد عاملة أجنبية للاسهام فى خطط التنمية بالبلاد.

وقد أدى ذلك إلى بعض مظاهر التغير فى توزيع السكان على رقعة الدولة، فقد تزايدت الهجرة إلى منطقة العاصمة على وجه الخصوص، وانعكس ذلك على تضخم سكانها واتساع رقعتها واتجاهها الحتمى نحو الهيمنة الحضرية على المستوى القومى، ورغم ذلك فما زال سهل الباطنة والمرتفعات الجبلية الداخلية تحظى بالنسبة الأكبر فى توزيع السكان فى عمان.

وقد توسعت السلطنة فى الخدمات التعليمية والصحية حيث بدأت خطط التنمية من مستوى الصفر تقريباً فى كل المجالات، ولكن من السابق لأوانه الوقوف على نتائج هذا التغير السريع فى مكونات التحول الديموغرافى فى هذا المجتمع التقليدى، ولكن المرجح أن مظاهر التحديث ستحقق نتائج هامة على المدى الطويل فى تقليل معدلات الوفيات ومعدلات الأمية وانعكاسها على تنمية الموارد البشرية، وإن كان من الصعب التكهن بتأثير هذا التغير على مستويات الخصوبة السائدة والتى تستغرق وقتاً طويلاً حتى يمكن أن تنخفض عما هى عليه فى الوقت الحاضر، ومن هنا فمن المحتمل أن يتزايد معدل النمو الطبيعى للسكان زيادة كبيرة وكذلك استمرار الهجرة الوافدة وإن كانت معدلات وفودها تتوقف على عوامل كثيرة لعل من أهمها مدى التشجيع أو التقييد – الذى تقوم به الدولة نحوها، وعمان فى ذلك لاتختلف عن دول البترول الخليجية الأخرى وإن كان الاختلاف يكمن فى أن احتمالات المستقبل لاتنبئ بزيادة القوى العاملة الأجنبية زيادة كبيرة تفوق حجم السكان الوطنيين بها، بعكس الحال فى دولة أخرى كالإمارات العربية وقطر والكويت على سبيل المثال، وذلك كله رغم أن العمالة الأجنبية تسهم حالياً بنحو ثلثى العمالة فى القطاع الخاص.

ومن الملاحظة أن إمكانيات التنمية الاقتصادية عديدة فى عمان وتتمثل فى

التنمية الزراعية فى السهول الساحلية – وفى بعض المناطق الجبلية، أو فى ظفار – وفى تنمية موارد الأسماك والتصنيع والنقل، وهذه الأمكانيات فى ضوء حجم السكان تعد إمكانيات كبيرة، ويمكن أن تسهم بدور هام فى تزايد الدخل القومى – الذى يعتمد فى معظمة حالياً على عوائد البترول – وهو مورد قابل للنفاذ – بل أن من المقدر – فى ضوء الاحتياطى المؤكد حالياً أنه سينفد بانتهاء هذا القرن.



شكل رقم (٢١)



الفصل الخامس
الإمارات العربية المتحدة

تبلغ مساحة دولة الامارات العربية المتحدة ٨٣٦٠٠ كيلو مترا مربعا وسكانها قدروا بنحو ١,٣ مليون نسمة (سنة ١٩٨٤) وارتفع هذا العدد إلى ٢,٤ مليون سنة ١٩٩١. وهى من دول الخليج العربى ذات الحجم السكانى والمساحى الصغير وتتشابه فى ذلك مع دول الخليج الأخرى مثل عمان وقطر والبحرين والكويت.

وتنقسم هذه الدولة الفتية إلى سبع إمارات هى أبو ظبى ودبى والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة والفجيرة، تتفاوت هذه الامارات فى مساحتها وسكانها تفاوتا كبيرا، فتشغل امارة أبو ظبى وحدها نحو ٨٥٪ من جملة المساحة الكلية وإن كان سكانها يزيدون قليلا على ربع سكان البلاد، أما امارة دبى، فرغم أن مساحتها لا تتعدى ٥٪ من المساحة الكلية. إلا أن عدد سكانها يصلون إلى ثلث سكان البلاد. وتعد مدينة أبو ظبى مدينة حديثة للغاية فى مظهرها العمرانى حيث تعكس صورة التقدم الذى شهدته الإمارات منذ نحو عقدين من الزمان، وقد بلغ عدد سكان هذه المدينة ٧٢٢٠٠٠ نسمة وتليها دبى كمدينة حديثة نشطة بلغ سكانها ٢٦٦٠٠٠ نسمة (تقدير ١٩٩٠) أما بقية المدن فى الامارات الأخرى فهى صغيرة الحجم وإن كانت فى معظمها تعكس ماطرأ على الدولة من تقدم وازدهار.

موارد الثروة الاقتصادية:

البترول:

يعد النفط عماد الثروة الاقتصادية فى دولة الإمارات العربية، وقد بدأت عمليات البحث عنه فى أبو ظبى سنة ١٩٤٨، إلا أن البترول لم يكتشف إلا فى سبتمبر سنة ١٩٥٨ فى منطقة أم الشيف التى تبعد بنحو ٣٢كم عن جزيرة

داس فى مياه الخليج وبدأ أول انتاج تجارى للتصدير سنة ١٩٦٢ ومن خط من الأنابيب بين الحقل البحرى والجزيرة التى أعدت بالأرصفة والصهاريج لامكان تصديره وبدأ انتاج أبو ظبى فى القفز بسرعة من ٧٧٩٠٠٠ طن سنة ١٩٦٢، إلى ٢ ١/٤ مليون طن سنة ١٩٦٣ ثم الى ٢٣ مليون سنة ١٩٦٩ وبعد الاكتشافات الأخرى سواء فى البحر الاقليمى أو فى اليابس والتى أهمها حقل مربان، تزايد الانتاج ليصل الى ٥٠ مليون طن سنة ١٩٧٢ ثم ٨١ مليون سنة ١٩٧٤. وهبط بعد ذلك إلى ٤٩ مليون سنة ١٩٨٦.

كذلك اكتشف النفط فى بعض الامارات الأخرى وبالتحديد فى دبى والشارقة، وفى سنة ١٩٨٦ بلغ الانتاج فيها كمايلى:

أبوظبى	٤٩,٥٨٤,٠٠٠	طن
دبى	١٦,٨١٧,٠٠٠	طن
الشارقة	٣,١٢٣,٠٠٠	طن
الجملة	٦٩,٥٢٤,٠٠٠	طن

أما أوجه النشاط الأخرى فتتمثل فى التجارة التى تشتهر بها دبى (بندقية الخليج) شهرة كبيرة حيث تتنقل سفنها بين موانى الخليج العربى والهند وساحل افريقيا الشرقية، كما تقوم بدور الوسيط المستودع التجارى للامارات حيث تستورد البضائع المختلفة لها.

كذلك تسود الزراعة على المياه الجوفية فى رأس الخيمة وأم القيوين والشارقة والفجيرة، وإن كانت الامارة الأخيرة تشتهر بصيد الاسماك من خليج عمان ولاتزيد مساحة الاراضى الزراعية عن واحد فى المائة من مساحة البلاد.

السكان

أولاً- نمو السكان

يرتبط نمو السكان في دولة الإمارات العربية المتحدة – مثلها في ذلك مثل باقي دول الخليج العربي – بالتغير الإقتصادي الذي تمثل في التحول من الإعتماد على إقتصاد تقليدي أساسه التجارة والزراعة والصيد إلى إقتصاد حديث يعتمد بالدرجة الأولى على البترول المستخرج وعوائده، وكان لهذا التغير في نمط الحياة آثاره الديموغرافية البارزة، فحتى سنة ١٩٤٥ كان سكان الخليج العامة قليلي العدد يعيشون في مستوى اقتصادي منخفض، وقد نتج عن التجارة البحرية وصيد اللؤلؤ وتجارة الرقيق في الماضي مؤثرات عرقية شملت منطقة الخليج كله، ولم يكن للهجرة الوافدة أو للزيادة الطبيعية دور كبير في الزيادة السكانية(١).

إلا أن الانقلاب الاقتصادي الديموغرافي قد حدث في دول الخليج بعد الحرب العالمية الثانية، وكان مرجع ذلك ومازال تدفق النفط في هذه الدول وما أعقب ذلك من تدفق للمهاجرين من داخل منطقة الخليج أو من خارجها على المنطقة بحثاً عن العمل، خاصة أن معظم الدخل الذي نتج عن عوائد النفط بدأ استثماره في تحقيق نهضة عمرانية وتوفير الخدمات الصحية والتعليمية للسكان، وكان لذلك أثر كبير في خفض معدلات الوفيات وبخاصة وفيات الأطفال الرضع، في الوقت الذي ظلت فيه معدلات المواليد مرتفعة بدرجة ملحوظة مما أدى إلى أرتفاع معدل الزيادة الطبيعية – وهي الفرق بين المواليد والوفيات – سواء بين السكان الأصليين أو المهاجرين الوافدين.

ورغم أن الأرتباط بين التدفق وارتفاع معدلات النمو الطبيعي للسكان – يعد سمة ديموغرافية عامة في منطقة الخليج العربي، فإن هناك اختلافات محلية بين أقطاره سواء في توقيت التغير الإقتصادي وبالتالي التغير الديموغرافي، أو في تفاوت

(1) Hill, A.G., The Gulf States: Petroleum and Population Growth in "Populations of the Middle East and North Africa" by Clarke, J. I., a, d, Fisher, W.B., (eds) London, 1972, P. 243.

حجم العوامل الديموغرافية من مواليد ووفيات وهجرة ودورها فى النمو السكانى بها، وتعد دول الكويت والبحرين والإمارات العربية المتحدة من أبرز الأمثلة على مواكبة التغير الديموغرافى للنمو الاقتصادى القائم على استخراج النفط واستغلال عوائده.

وقد كان النمو السكانى الكبير الذى شهدته دولة الإمارات منذ أوائل الستينيات ناجماً عن تدفق النفط بها كما سبق القول، ورغم أن العلاقة بين نمو السكان واستخراج النفط ليست علاقة طردية باستمرار إلا أنها تكون واضحة تماماً فى السنوات الأولى التى تشهد تدفقاً بترولياً كبيراً يجذب إليه هجرة وافدة بحجم كبير، ثم ماتلبث الدولة أن تصل إلى مرحلة استقرار سكانى إذا تحققت أهداف خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية التى تستحوذ على الأيدى العاملة الوافدة فى مراحلها الأولى، وقد لوحظ ذلك فى دولة البحرين مثلاً حيث بدأت الهجرة تمثل نسبة ضئيلة من مكونات النمو بعد أن كانت تسهم فى ذلك بنسبة كبيرة.

وعلى ذلك فإن النمو المرتفع لسكان الإمارات والذى ارتبط بالتدفق النفطى الكبير يرتبط بالدرجة الأولى بالهجرة الوافدة إليها، وإذا أدركنا أن معدل النمو الطبيعى للسكان يصل إلى ٣ر١٪ سنوياً فإن معدل الهجرة الوافدة يصل إلى ٦ر١٣٪ سنوياً، وبمعنى آخر فإنه فى الوقت الذى تكون فيه الزيادة الطبيعية خمس الزيادة الكلية للسكان بالإمارات تكون الهجرة أربعة أخماس هذه الزيادة سنوياً، وهى نسبة عالية جداً لها ما يبررها فى أولى مراحل النمو الاقتصادى الذى تشهده الإمارات فى الوقت الحاضر.

وعموماً فإن دورة النمو السكانى المرتبطة بإنتاج النفط دورة واضحة المعالم فى دول النفط فى الخليج العربى، وقد بدأتها البحرين ثم الكويت منذ ما يزيد قليلا على عقدين من الزمن، ولكن دولة الإمارات بدأت هذه الدورة حديثاً جداً ومنذ قرابة عشر سنوات فقط، ومن أهم ملامح تلك الدورة أن معدل النمو السكانى

التقليدى يكون منخفضا حتى إذا ما تدفق النفط وبدأت الدولة فى الأخذ بناصية التطور الاقتصادى يقفز هذا المعدل بسبب الهجرة الوافدة، ويظل مرتفعاً عن معدل النمو الطبيعي بصورة ملفتة، ويبقى هذا الأرتفاع مرهوناً بسياسة الدولة نحو تشجيع الهجرة أو تحديدها بعد ذلك.

ويبدو من أرقام الجدول رقم (٩) أن حجم سكان الإمارات قدر بنحو ٩٥,٠٠٠ نسمة سنة ١٩٤٨، وبعد ذلك بعشر سنوات قدر بنحو ٨٦,٠٠٠ نسمة، ومعنى ذلك أن السكان تناقصوا بمعدل مايقرب من ١٪ سنوياً بين هذين

جدول رقم (٩)

النمو العددى لسكان دولة الإمارات العربية المتحدة

فى الفترة ١٩٤٨ — ١٩٨٠

السنة	المصدر	عدد السكان	معدل الزيادة السنوية ٪
منتصف ١٩٤٨	تقدير States man's year book (١)	٩٥,٠٠٠	
منتصف ١٩٥٨	تقدير الأمم المتحدة (٢)	٨٦,٠٠٠	-٠,٩٥
منتصف ١٩٦٣	تقدير States man's year book (٣)	٩٥,٠٠٠	٠,٩٥
منتصف ١٩٦٥	تقدير الأمم المتحدة (٤)	١١١,٠٠٠	٨,٠٠
أبريل ١٩٦٨	تعداد السكان الرسمى (٥)	١٨٠,٠٠٠	٢٠,٦٠
ديسمبر ١٩٧٢	تقدير فينيلون (٦)	٣٢٠,٠٠٠	١٦,٧٠
١٩٧٦	تعداد السكان الرسمى	٦٥٥,٩٣٧	٢٤,٥٠
١٩٨٠	تعداد السكان الرسمى	١,٠٤٣,٢٢٥	١٦,٠٠

(1) Steinberg, S.H., (ed), The States Man's Year book, 1948. P 691.
(2) United Nations: Statistical Year book, 1966, Table 17, P.82.
(3) Steinberg, S.H. (ed), Op. Cit., 1963.
(4) United Nations: Op. Cit., 1966, P. 82.
(٥) دولة الإمارات العربية المتحدة – تعداد السكان – مارس – أبريل ١٩٦٨.
(6) Fenelon, K.G., The United Arab Emirates, Longman, London, 1973, P.6.

التاريخين، ويمكن النظر إلى ذلك التناقص من زوايتين:

إما أنه تناقص صحيح نتج عن هجرة خارجة من الإمارات إلى دول البترول الأخرى مثل البحرين والكويت اللتين ظهر بهما النفط مبكراً وجذب إليهما أيد عاملة كثيرة من دول الخليج وخارجها، وإما أن هذا التناقص غير صحيح ويرجع إلى التضارب فى التقديرات السكانية فى هذين التاريخين، إلا أن الاحتمال الأول أقرب إلى الصحة ذلك لأن المهاجرين من الإمارات كانوا من العناصر المهاجرة التى سجلها تعداد البحرين والكويت مبكراً، كما أن ظروف الاقتصاد التقليدى فيما قبل عهد النفط بالإمارات كانت تحفز الكثيرين للهجرة نحو أقطار النفط الأخرى المجاورة.

ويبدو من الجدول السالف الذكر أيضا أن عدد السكان فى الإمارات قد تضاعف ثلاث مرات ونصف مرة تقريباً خلال ربع قرن، ورغم إرتفاع معدل الزيادة الطبيعية للسكان، فإن العامل الرئيسى للزيادة يكمن فى الهجرة الوافدة بحجم كبير خاصة فيما بعد سنة ١٩٦٣، مما يدل على الارتباط القوى بين الهجرة والتطور الاقتصادى فى البلاد الذى أعتمد بدوره على عوائد النفط المستخرج منها.

التباين الإقليمى لنمو السكان فى الإمارات:

تتكون دولة الإمارات العربية المتحدة من سبع إمارات هى: دبى وأبو ظبى والشارقة ورأس الخيمة والفجيرة وعجمان وأم القيوين وقد بلغ عدد سكانها حسب تعداد سنة ١٩٨٠ مليون نسمة يتركز ٥٨٪ منهم فى إمارتين اثنتين هما أبو ظبى ودبى، وتنتج كلتاهما النفط وإن كان قد ظهر مبكراً فى إمارة أبوظبى وبالتحديد فى سنة ١٩٦٢ ووصل إنتاجها منه إلى ٣٠ مليون طن سنة ١٩٦٩ ثم إلى نحو ٥٠ مليون طن سنة ١٩٨٦، أما دبى فقد بدأ إنتاجها سنة ١٩٦٩

بنحو نصف مليون طن فقط ومالبث أن تزايد إلى ٦٫٥ مليون طن سنة ١٩٧٢ . ثم إلى ١٧ مليون طن سنة ١٩٨٦ .

وقد أدى ذلك الانتاج النفطى إلى تغير اقتصادى كبير فى إمارة أبو ظبى قبل أن تتكون دولة الإمارات العربية المتحدة فى ديسمبر سنة ١٩٧١ فقد وضعت بهذه الإمارة مشروعات طموحة للإنشاء والتعمير والتنمية الاقتصادية وتبعتها بعد ذلك إمارة دبى - رغم الدور الكبير الذى لعبته هذه الإمارة فى اقتصاديات الإمارات الأخرى قبل إنتاج النفط - نظراً لمينائها التجارى الهام ونشاطها التجارى الذى استفادت منه المنطقة كلها.

أما الإمارات الخمس الأخرى فلم يظهر النفط بها بعد (باستثناء الشارقة التى ظهر بها وبلغ إنتاجها منه ٣٫١ مليون طن سنة ١٩٨٦)، ومع ذلك فقد تأثرت بانتاجه فى كل من أبوظبى ودبى حيث أصبحت كل منهما مركزاً هاماً لجذب السكان من الإمارات الخمس الأخرى التى تعيش فى مرحلة الاقتصاد التقليدى القائم على الزراعة والرعى والصيد.

وتبعاً لذلك الإختلاف فى النمو الاقتصادى بين الإمارات السبع، فقد تباينت فيما بينها فى معدل النمو السكانى، وقد بلغ هذا المعدل ٢٢٫١٪ سنويا فى إمارة أبوظبى، وهو معدل مرتفع للغاية يعكس مدى حجم الهجرة الوافدة إلى هذه الإمارة، ذلك أنه إذا إفترضنا أن معدل النمو الطبيعى السنوى بهذه الإمارة هو ٣٫٢٪ وهو متوسط معدل النمو الطبيعى فى الدولة ككل، فإن معدل الهجرة نحوها يكون حينئذ ١٨٫٩٪ سنويا، ومعنى ذلك أن حجم سكان هذه الإمارة سيتضاعف فى نحو خمس سنوات فقط، وهذه ظاهرة مثيرة فى إمارة صغيرة الحجم السكانى وتكون ثلث سكان الدولة ولها عواقب ديموغرافية خطيرة أهمها تحويل السكان الأصليين إلى أقلية فى بلدهم، وذلك إذا لم توضع ضوابط

للتحكم فى تيارات الهجرة الوافدة والسيطرة الحكومية على نوعيات المهاجرين حسب احتياجات خطة التنمية بالدولة.

عوامل النمو السكانى

(أ) الهجرة الوافدة:

تلعب الهجرة الوافدة دوراً هاماً للغاية فى نمو سكان دولة الإمارات العربية المتحدة، وقد بدأ هذا الدور يظهر بوضوح منذ توفرت عوامل الجذب القوية الكامنة فى تلك الدولة، وما قابلها من عوامل طرد سكانى فى البيئات الأصلية للمهاجرين خاصة الإيرانيين والهنود والباكستانيين والعمانيين الذين وفدوا بحثاً عن فرص العمل فى أبو ظبى الغنية بالنفط - وفى دبى - المركز التجارى الرئيسى ذات الميناء الهام، وقد أثرت الهجرة الوافدة على تركيب السكان فى هاتين الإماراتين تأثيراً كبيراً، بخلاف بقية الإمارات التى لم تجذب إليها مهاجرين إلا بأعداد ضئيلة للغاية لعدم توفر عوامل الجذب الهجرى بها.

وليست الهجرة الوافدة نحو الإمارات ظاهرة سكانية حديثة أو وليدة عهد النفط بها، بل إنها معروفة من قبل، ذلك لأن موقع الإمارات على الخليج العربى جعلها ملتقى للمؤثرات البشرية لكلا ساحليه الإيرانى والعربى منذ عهد بعيد، إلا أن مرحلة الهجرة الضخمة نحو الإمارات بدأت بعد تدفق النفط بها ودخلت بذلك مرحلة هامة فى التنمية الاقتصادية والاجتماعية وما تطلبته من أيد عاملة فنية وغير فنية ليست متوفرة فى المجتمع الأصلى.

وقد بلغ عدد المهاجرين إلى الإمارات ٧١٣٠٠٠ مهاجراً فى ١٩٨٥، أى بنسبة ٦٤٪ من جملة سكان الدولة، ويختلف توزيعهم اختلافاً كبيراً فى الإمارات السبع ولكنهم كقاعدة عامة يتركزون فى أبوظبى ودبى، حيث يكون

المهاجرون معظم سكان إمارة أبوظبى وإمارة دبى، أما باقى الإمارات فإن نسبة المهاجرين إلى جملة سكانها تقل قلة واضحة ويكون السكان الوطنيون الغالبية العظمى من السكان.

ولاتتوفر بيانات عن مواطن المهاجرين الحاليين إلا فى إمارة أبو ظبى التى يتركز بها ٤٠٪ من عدد المهاجرين وإن كان من المتوقع أن مصادر المهاجرين فى الإمارات الست الأخرى لن تختلف كثيراً عنها. ويأتى العرب والإيرانيون فى مقدمة المهاجرين يليهم الهنود والباكستانيون، وعموماً فإن الخلاف الواضح فى الهجرة نحو الإمارات عنها فى دول الخليج العربى الأخرى أن ثلاثة أرباع المهاجرين من إيران والهند والباكستان بينما معظم المهاجرين إلى الكويت والبحرين مثلاً من الأقطار العربية.

وقد أدى الموقع كما ذكرنا - والعلاقات التاريخية مع إيران - بالإضافة إلى الطلب على الأيدى العاملة للإسهام فى مشروعات التنمية المختلفة - أدى ذلك كله إلى تدفق أعداد كبيرة منها ومن الباكستان والهند، فيما قبل عهد البترول بالإمارات، ومن المتوقع أنه بنمو اقتصاديات البلاد وتطورها فإن نسبة المهاجرين العرب ستتزايد كثيراً عما كانت عليه من قبل.

ولايتوزع المهاجرون داخل الإمارات توزيعاً منتظماً بل أنهم يتركزون فى المدن خاصة مدينتى أبوظبى ودبى، ويتركز كثير من الأسيويين غير العرب (خاصة الإيرانيين والباكستانيين الذى يتركزون فى واحة العين)، ومن الواضح أن توزيع الإيرانيين يرتبط بتركز المشروعات الإنشائية الرئيسية فى البلاد، تماماً كما يرتبط توزيع الأوروبين والأمريكيين بوجود حقول النفط وفى جزيرة أبو ظبى وذلك لإسهامهم فى الكثير من الأعمال التصنيعية بهذه الحقول.

ويبدو أن وجود مجموعة من مهاجرة وافدة فى أجزاء من الإمارات له تأثير

واضح على تركيب السكان، ذلك لأنه حتى وقت قريب كانت الهجرة الخارجة أكثر شيوعاً من الهجرة الوافدة، ففى سنة ١٩٦٥ مثلاً كانت هناك ١١٠٥ نسمة من الإمارات سجلهم تعداد الكويت، وكان معظم هؤلاء من الذكور فى سن الإنتاج.

ويعد المهاجرون بجنسياتهم المختلفة عصب الحياة الاقتصادية فى الإمارات شأنها فى ذلك شأن دول الخليج العربى الأخرى، حيث يقع على عاتقها تنفيذ مشروعات التنمية بجوانبها المتعددة سواء بمجهودهم الذهنى أو العضلى.

وعلى العكس من إمارتى أبو ظبى ودبى - بما يكمن فيهما من فرص عمل متعددة تجذب إليها المهاجرين الأجانب - فإن الإمارات الخمس الأخرى لاتتوفر بها عوامل الجذب الهجرى المماثلة، ولذلك تقل بها نسبة الأجانب إلى جملة السكان قلة ملحوظة.

ومن الظاهرات المرتبطة بالهجرة فى دولة الإمارات سيادة مبدأ تقسيم العمل بين المهاجرين حسب أوطانهم، فالإيرانيون والعمانيون يمثلون العمال اليدويين، والباكستانيون من أصحاب الحرف المهرة نسبياً مثل النجارين ومن على شاكلتهم، والهنود يمارسون الأعمال الكتابية والمساعدين فى الحوانيت والفلسطينيون يعملون فى معظمهم كمسؤولين حكوميين ومدرسى التعليم الإبتدائى والمتوسط، والمصريون فى المهن المتقدمة ومدرسى المدارس الثانوية وكبار الخبراء الحكوميين(١) ... وهكذا.

وصفوة القول أن الهجرة الوافدة إلى دولة الإمارات أدت إلى تناقضات ديموغرافية قوية، وقد أظهرت أرقام تعداد ١٩٦٨ أول مقياس كمى لتأثير النفط على هذا المجتمع التقليدى الصغير الذى بلغت فيه نسبة الأجانب ٦٤٪ من جملة سكانه فى تلك السنة، ومن المتوقع أن هذه النسبة قد تزايدت بدرجة كبيرة فى السنوات الأخيرة.

---

(1) Fenelon, K.G., Op. Cit., P.7.

ولايختلف نمط الهجرة فى الإمارات عن مثيله فى دول الخليج العربى الأخرى مثل البحرين والكويت، حيث أن المهاجرين يمثلون مجتمعاً متقلباً باستمرار، فالأفراد يغدون للعمل لفترة زمنية محدودة ومايلبثوا أن يعودوا إلى أوطانهم الأصلية بعد ذلك ويكون معظمهم بطبيعة الحال فى سن العمل والإنتاج، كما أن الكثير منهم غير متزوج وبعضهم ترك أسرته فى موطنه الأصلى ويرسل لها جزءاً من مدخراته فى المهجر، ومعنى ذلك أن هجرة الأيدى العاملة الوافدة تدخل ضمن ما يعرف بهجرة عمال الأهداف (المهاجرين المؤقتين) Target Workers الذين يفدون لفترة محدودة بهدف العمل بأجور عالية وزيادة دخولهم والعودة بعد ذلك إلى أوطانهم وليس بقصد الاستيطان الدائم وتلك سمة مشتركة فى مناطق الجذب الهجرى المفاجئ الناجمة عن ظهور مورد مفاجئ للثروة مايلبث أن تتحول إليه تيارات الهجرة التى يزداد حجمها وتتباين نوعيات المهاجرين فيها بمرور السنين.

(ب) الزيادة الطبيعية:

الزيادة الطبيعية هى الفرق بين المواليد والوفيات، وهى تعد العامل الرئيسى فى نمو السكان فى كل المجتمعات، باستثناء تلك التى تتدفق عليها أعداد كبيرة من المهاجرين مثل دول الخليج العربى التى تعد من أبرز الأمثلة فى العالم تقريباً على أثر الهجرة الوافدة فى نمو السكان أكثر من الزيادة الطبيعية.

ودولة الإمارات العربية المتحدة من الدول النفطية الحديثة، التى كانت الزيادة الطبيعية بها - فيما قبل عهد النفط - العامل الرئيسى لنمو السكان كما كانت تتعرض لهجرة خارجة نحو البلاد المجاورة بحثاً عن فرص العمل المتوفرة بها، وما أن تدفق النفط ببعض إماراتها فى أواخر الستينات حتى بدأ مد الهجرة الخارجة فى الإنحسار وتحولت تياراتها إلى هجرة وافدة بمعدل كبير يندر أن يوجد له مثيل فى

دول العالم الأخرى فى الوقت الحاضر.

ولاتتوفر بدولة الإمارات احصاءات حيوية يمكن على أساسها تقدير معدلات المواليد والوفيات، ومن ثم الوقوف على بيانات التعداد الطبيعية وتطورها، وقد قدرت هيئة الأمم المتحدة معدل المواليد بها بنحو ٣٠ فى الألف سنة ١٩٩١، وأغلب الظن أنه يصل لدى المواطنين إلى نحو ٤٥-٥٠ فى الألف، بينما يصل معدل الوفيات إلى ٤ فى الألف وإن كان يقدر بضعف ذلك أو أكثر لدى المواطنين وقد تطور أمد الحياة تطوراً كبيراً حتى قدر فى سنة ١٩٩١ بنحو ٦٩ سنة للذكور و٧٤ سنة للأناث.

ثانياً : توزيع السكان فى دولة الإمارات العربية

تبلغ مساحة دولة الإمارات العربية المتحدة ٨٣٫٦٠٠ كيلومتراً مربعاً، وتنقسم إلى سبع إمارات تتفاوت مساحتها تفاوتاً كبيراً حيث تشغل إمارة أبو ظبى وحدها ٨٥٪ من جملة المساحة وإن كان سكانها يزيدون قليلاً على ثلث عدد سكان البلاد، وعموماً فإن دولة الإمارات تعد قليلة السكان منخفضة الكثافة تشبه فى ذلك الدول العربية فى منطقة الخليج باستثناء الكويت والبحرين.

ويتميز توزيع السكان فى الإمارات بأنه هامشى إلى حد كبير شأنه فى ذلك شأن كثير من دول الخليج والمشرق العربى، فيتركز السكان فى النطاق الساحلى الشمالى، وفى الأودية والواحات الداخلية، ويتحدد توزيعهم ببعض العوامل الجغرافية أبرزها على الإطلاق توفر المياه الجوفية أو الجارية التى تساعد على قيام الزراعة والاستقرار البشرى.

جدول رقم (١٠)

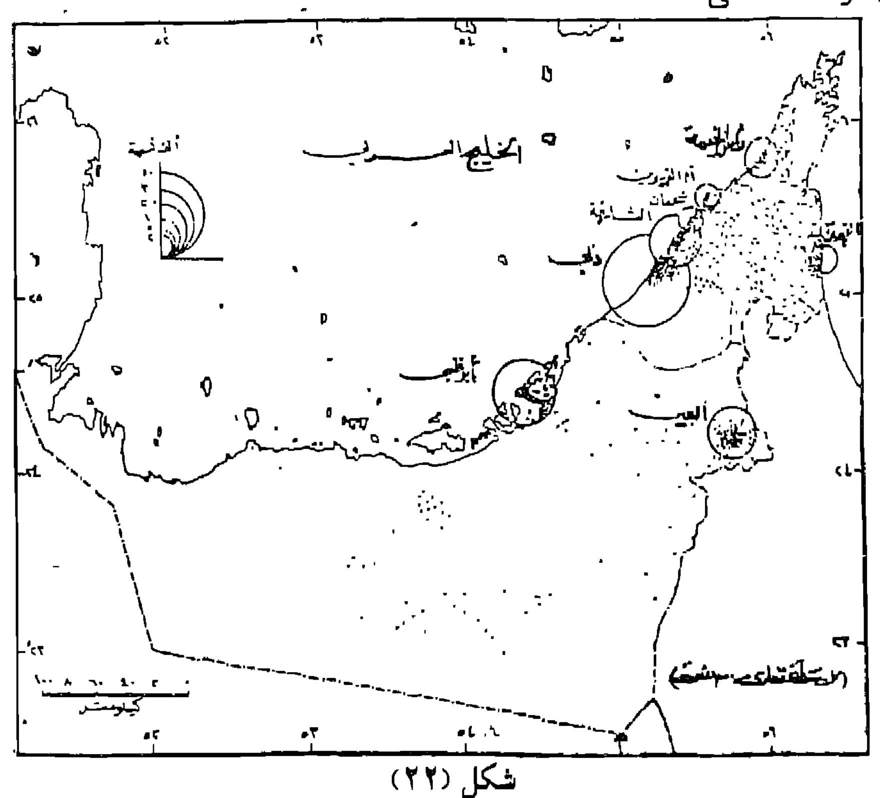
درجة التركز السكانى فى دولة الإمارات العربية المتحدة سنة ١٩٧٦

الإمارة	٪ من المساحة	٪ من السكان
أبو ظبى	٦٨٫٦	٣٦
دبى	٥٫٠	٣٢
الشارقة	٣٫٣	١٣
عجمان	٠٫٣	٣
أم القيوين	٠٫٩	٣
رأس الخيمة	٢٫٢	٩
الفجيرة	١٫٥	٤
الجملة	١٠٠٫٠	١٠٠

أى أن توزيع السكان يميل نحو التركز الواضح وليس التبعثر على رقعة الدولة، وتبين الأرقام أن هناك تبايناً كبيراً بين مساحات الإمارات ونسبة سكان كل منها (جدول رقم ١٠) ولعل أبرز تباين يظهر فى حالة أبو ظبى ودبى. فبينما تصل مساحة الأولى إلى أكثر من أربعة أخماس مساحة الدولة ويقطنها أكثر من ثلث السكان، تتضاءل مساحة دبى إلى ١/٢٠ فقط من مساحة الدولة فى الوقت الذى يقطنها ثلث عدد السكان أيضا وتتكرر نفس الظاهرة، وإن كانت بدرجة أقل فى إمارتى الشارقة ورأس الخيمة بنسبة مساحية تصل إلى ٣٫٣٪، ٢٫٥ مقابل نسبة سكانية تبلغ ١٧٫٧٪، و ١٣٫٧٪ على الترتيب أما الإمارات الثلاث الباقية وهى عجمان وأم القيوين والفجيرة فتبلغ مساحتها مجتمعة ٢٫٧٪ من مساحة الدولة ويقطنها نحو ١٠٪ من جملة السكان، وهى بذلك أصغر الإمارات مساحة وسكاناً.

والكثافة الخام منخفضة للغاية على مستوى الدولة ككل حيث تصل إلى شخصين فى كل كيلو متر مربع، وهذاهو شأن الدول الصحراوية عموماً خاصة فى دولة كالإمارات العربية ظلت قروناً عديدة منطقة هامشية قليلة السكان على أطراف شبه الجزيرة العربية، ولم تشهد تدفقاً سكانياً إلا فى العقد أو العقدين الأخيرين فقط. شكل (٢٢)

والواقع أن الحجم السكانى والمساحى لكل إمارة لايكون أساساً متيناً لقيام كيان سياسى قوى يمكنه من مواجهة تحديات العصر الحديث، ولعل فى الإمارات القزمية مثل عجمان وأم القيوين والفجيرة مثل واضح على ذلك، ولذا كان انضمامها مع بقية الإمارات لتكون دولة واحدة خطوة صائبة لتجميع هذه الكيانات المبعثرة مساحياً وسكانياً - واقتصادياً - كما أنه يعد تصحيحاً للواقع البشرى السائد فى تلك المنطقة.



شكل (٢٢)

توزيع السكان وحجم المدن فى دولة الإمارات العربية المتحدة

كذلك يتضح أن الكثافة الخام تتفاوت تفاوتاً شديداً بين الإمارات بعضها وبعض وتصل أقصاها فى إمارة عجمان حيث تبلغ ثمانية أمثال متوسط الكثافة القومية، ويليها فى ذلك إمارتا دبى ثم رأس الخيمة والشارقة، بينما تقل فى الفجيرة وأم القيوين، أما أبو ظبى فتقل بها الكثافة السكانية الخام قلة واضحة لتصل إلى شخصين فقط فى كل ثلاثة كيلومترات مربعة وذلك لاتساع المساحة غير المأهولة بالسكان والتى تتمثل فى النطاق الصحراوى فى الغرب والجنوب بأقسامه المختلفة مثل بينونة والظفرة والرباض والبطين.

وقد يكون من المفيد مقارنة الكثافة الخام بالكثافة الفزيولوجيه وهى جملة عدد السكان فى المساحة المنزرعة فى الدولة، وتبدو من هذه المقارنة عدة حقائق أبرزها أن الكثافة الفزيولوجية تصل أقصاها فى إمارة عجمان ودبى، وهما يتمتعان أيضا بأعلى متوسط فى الكثافة الخام، مما يجعلهما أكثر الإمارات فى الكثافة السكانية بنوعيها، وتليها إمارة أبوظبى بفارق كبير ثم أم القيوين والشارقة، أما رأس الخيمة والفجيرة فتقل بهما الكثافة الفزيولوجية قلة واضحة مما يعكس اتساع الأرض المأهولة مع قلة حجم السكان بها.

وأول الحقائق التى تبرزها أرقام التعدادات أن السكان يتركزون فى نويات مركزية تكون قلب كل إمارة فى الواقع، ويعيش فى هذه النويات النسبة العالية من السكان بينما تتبعثر النسبة القليلة الباقية على رقعة الإمارة.

وتبدو نويات التركز السكانى بوضوح شديد فى إمارات دبى (٩٧٫٣٪ من سكانها فى مدينة دبى) وأم القيوين (٧٨٫٣٪ من سكانها فى مدينة أم القيوين) والشارقة (٦٥٫٥٪ فى مدينة الشارقة) وعجمان (٨٧٫٧٪ فى مدينة عجمان)، أما الإمارات الأخرى فتختلف عن هذا النمط السائد، ففى إمارة أبوظبى يتركز ٤٧٫٥٪ من سكانها فى جزيرة أبو ظبى و ٢٧٫٨٪ فى مدينة العين و ١٧٫٣٪

فى الصحراء و ٣ر٥ ٪ فى حقول النفط، وتعد إمارة الفجيرة أكثر الإمارات السبع فى تناسق توزيع السكان على رقعتها حيث ينتظم توزيعهم فى مناطقها الثلاث مع زيادة قليلة فى نصيبها للساحل الجنوبى عن بقية المناطق، وكذلك الحال فى إمارة رأس الخيمة، وإن كانت المنطقة الحضرية والمنطقة الشمالية تحظيان بأعلى نسبة فى توزيع السكان بهذه الإمارة.

مؤثرات توزيع السكان

سبق القول بأن سكان الإمارات العربية - رغم بيئتهم الصحراوية - يميلون نحو التركز فى إقليمين رئيسيين هما الإقليم الساحلى الشمالى حيث المراكز العمرانية الرئيسية متمثلة فى النويات الحضرية التى نمت حولها الإمارات وأسهمت ظروف الموقع فى هذا النمو، والإقليم الداخلى الذى يتمثل فى الواحات الداخلية ومناطق تجمع السكان حيثما توفرت موارد المياه، وأبرز أمثلتها واحات الأودية وواحات ليوا والتى تتكون من أثنين قرية، وواحة العين الجبلية عند مقدمات جبال عمان معتمدة على المياه المتوفرة بها، وفيما بين هذين النطاقين - الساحل بنوياته العمرانية المركزية والداخل بواحاته العديدة المبعثرة - توجد منطقة خالية من السكان المستقرين تتمثل فى صحراء الظفرة والرباض ومنادر الرباض والبطين وبينونة وسبخة مطى والجن ويندر تركز السكان بهذا النطاق الصحراوى الواسع إلا حيثما توجد حقول النفط مثل العصب وبوحصا وحبشان وشامس فى إمارة أبوظبى(١).

ويتأثر توزيع السكان فى الإمارات العربية بالعوامل الطبيعية تأثراً جوهرياً حيث تلعب هذه العوامل دوراً هاماً فى حياة السكان ونشاطهم وتطورهم، ومن أبرز هذه

---

(١) راجع خريطة دولة الإمارات العربية المتحدة من إعداد مركز الوثائق والدراسات بوزارة شئون الرئاسة- أبوظبى - ١٩٧٤.

العوامل الطبيعية عاملان رئيسيان هما طبيعة خط الساحل خاصة فى قطاعه الشرقى وما يتميز به من أخوار وجزر ساحلية، والعامل الأخر الحاسم فى التوزيع السكانى هو توفر المياه العذبة سواء الجوفية أو الجارية فى النطاق الساحلى أو المناطق الداخلية.

الأخوار والجزر الساحلية

رغم أن سواحل الإمارات العربية صحراوية مجدبة وذات تكوينات رملية منخفضة فإنها ذات امتداد منبسط، وقد جذبت قطاعات هذه السواحل - خاصة جزئها الشرقى - السكان منذ وقت مبكر حيث تركزوا بها نتيجة عوامل متشابكة منها كثرة الأخوار على خط الساحل والموقع الملائم والعلاقات التجارية المبكرة بين هذا الإقليم وحوض الخليج العربى وسواحل شبه الجزيرة العربية.

وقد لعبت الأخوار التى يتميز بها ساحل الإمارات دوراً رئيسياً فى حياة السكان وفى تاريخ هذه المنطقة من الخليج[1] فعلى رؤوسها البارزة فى مياه الخليج قامت مراكز العمران المختلفة التى استقرت بها جماعات الصيادين، وفى مياهها الضحلة وجد هؤلاء السكان الحماية سواء من أمواج البحر العاتية أو من غارات القبائل البدوية، ومنها شنت جموع القراصنة هجماتهم العنيفة على السفن التجارية التى كانت تجوب مياه الخليج فى الفترة التى نشطت فيها القرصنة[2]، ومن المراكز الرئيسية التى تدين بنشأتها ثم ازدهارها إلى هذه الحماية الطبيعية - مدن دبى والشارقة وعجمان وأم القيوين ورأس الخيمة، وهى النوى التى نمت حولها الوحدات السياسية المختلفة فى هذه المنطقة[3].

(١) الأخوار: ألسنة من البحر تتوغل فى الأرض اليابسة لبضعة كيلومترات وتتعمق فى الأرض اليابسة بصورة لامثيل لها فى أية جهة أخرى فى العالم العربى.

(٢) محمد متولى : حوض الخليج العربى - الجزء الأول - القاهرة ١٩٧٠ - ص ٢٢.

(٣) المرجع السابق - نفس الصفحة وراجع أيضا الخريطة رقم (٢١) بالمرجع المذكور.

أما السواحل الغربية للإمارات وبالتحديد سواحل إمارة أبو ظبى فتتميز بمساحات واسعة من السبخات (أهمها سبخة مطى) وإلى الجنوب منها تمتد أراضى صحراوية شاسعة تغطيها كثبان رملية، وتخلو هذه المساحات من السكان، فيما عدا واحة ليوا فى الجنوب الغربى وتقع فى وسط الكثبان الرملية، وفى الجهات المنخفضة التى تنحصر بينها.

وبالإضافة إلى الأخوار التى يتميز بها ساحل الإمارات والتى كان لها أثر فى توزيع السكان وتركزهم على الساحل، يوجد عدد كبير من الجزر الساحلية يربو على المائتين وتتفاوت فى مساحتها ومنسوبها عن سطح البحر، غير أن معظمها قاحل، والقليل هو الذى تنمو به بعض الحشائش الموسمية التى كانت كافية لجذب رعاة الأغنام والإبل من اليابس المجاور، كذلك فإن بعض الجزر يسكنه الصيادون لفترة من السنة، وقد تبين من حصر حديث لهؤلاء السكان فى إمارة أبوظبى أن عددهم يصل إلى قرابة المائتين(١).

وقد حظيت بعض الجزر الساحلية بأهمية كبرى فى جذب السكان ولعل فى جزيرة أبوظبى المثلثة الشكل خير مثال على ذلك حيث نشأت فوقها مدينة أبوظبى والتى يتركز فيها قرابة نصف سكان الإمارة (أو ما يعادل ثمن سكان الدولة)، وشبهها فى ذلك جزيرة داس والتى اكتسبت أهميتها حديثا عندما بدأ استغلال النفط فى الإمارات حيث أصبحت محطة بحرية لشركة أدما "ADAMA" للنفط، كذلك فإن جزيرة المبرّز قد استغلت لغرض مماثل لشركة نفط يابانية، أما جزيرة دلما فقد استخدمت فى العهود السابقة كمحطة لأسطول الغوص لاستخراج اللؤلؤ، ولكنها الآن جزيرة مهملة لايقطنها سوى مائة نسمة تقريباً يعملون أساساً فى صيد الأسماك(٢).

---

(1) Fenelon, K.G., Op. Cit., P. 3.
(2) Ibid., P. 3.

وعلى بعد نحو ستة كيلومترات من الساحل تظهر جزيرة صير نبى ياس (وفى مقابل نتوء جبل الظنة)، وتوجد بها قريتان إحداهما دائمة وبيوتها مبنية من الطين والأخرى مؤقتة ومساكنها عبارة عن عشش وخيام ويؤمها صيادو الأسماك فى فصل الشتاء.

المياه العذبة وتوزيع السكان

من الحقائق الهامة فى جغرافية السكان فى دولة الإمارات العربية – شأنها فى ذلك شأن الأقطار الصحراوية الأخرى – تلك العلاقة الطردية القوية بين توزيع السكان وتركزهم من ناحية وتوفر المياه العذبة فى أقاليمها المختلفة من ناحية أخرى، ولذلك تعتمد كثافة السكان وأحجام مراكز العمران على كميات المياه المتوفرة.

وتتمثل مصادر المياه العذبة فى الإمارات فى موردين رئيسيين هما:

المياه السطحية الجارية متمثلة فى مجموعة المسيلات والجداول المتقطعة التى تخترق جبال عمان وتنحدر على جوانبها الشرقية نحو خليج عدن، وعلى جوانبها الغربية نحو السهول الصحراوية داخل الإمارات، وتجرى المياه فى كثير من هذه الأودية لفترة محدودة من السنة هى فترة الشتاء فى أعقاب سقوط الأمطار مباشرة، ومنها يستمد السكان بعض حاجتهم من المياه، كما قام فيها عدد كبير من مراكز الاستقرار البشرى، وإن كانت هذه المجارى قليلة الأهمية بصفة عامة لأن مياهها غير دائمة ويستفيد منها السكان فى أحيان كثيرة إما بطريق مباشر أو بواسطة سدود ترابية يقيمونها فى عرض الأودية لكى تحول المياه إلى الأراضى الزراعية[١].

---

(١) محمد متولى : المرجع السابق ص ١٦٨-٢٠٥.

وقد تركز السكان فى نويات مبعثرة قليلة صغيرة الحجم فى هذه الأودية المتقطعة المياه فى مناطق جبال عمان فى شرق البلاد. وأمثلتها متعددة خاصة فى الجانب الشرقى من تلك الجبال مثل دبا وطيبان وعجيمة فى وادى عباد الله، والبثنة والفجيرة فى وادى حام، وكلبا فى وادى كلبا، ومصفوط فى وادى حتى، وفى الجانب الغربى من هذه الجبال مثل قرية الزيد فى وادى الزيد، وفلج المعلى فى وادى حارميا(1).

أما المورد الثانى للمياه فيتمثل فى المياه الجوفية ممثلة فى الآبار الضحلة الموجودة فى بطون الأودية المختلفة أو فى التكوينات الرملية السطحية، وفى الموارد الأرتوازية ممثلة فى العيون والآبار التى تستمد مياهها من الطبقات الحاملة للماء الباطنى فى الأعماق البعيدة كما تتمثل فى الأفلاج التى تستمد مياهها من الطبقات التى توجد عند قاعدة الجبل(2).

وتوجد المياه الجوفية السطحية فى رمال الكثبان التى تمتد على طول الساحل، وفى قاع المناطق الحوضية التى تنحدر إليها مياه الأمطار وفى بطون الأودية، والمصدر الذى يغذى هذه التكوينات جميعاً بالمياه المختزنة هو الأمطار القليلة التى تسقط فى حوض الخليج شتاءً، ومن ثم فهى موارد محدودة كثيراً ما تنفذ لكثرة الاستغلال، ولذا فإن مراكز العمران التى قامت بجانبها قليلة السكان صغيرة الحجم ومبعثرة التوزيع إلى حد كبير(3).

---

(1) راجع: أ- محمد متولى - المرجع السابق - ص ١٧٦.

ب- خريطة دولة الإمارات العربية المتحدة - إعداد مركز الوثائق والدراسات بوزارة شئون الرئاسة - أبوظبى- ١٩٧٤.

(2) محمد متولى : المرجع السابق - ص ١٧٢.

(3) المرجع السابق - ص ١٧٨.

وجدير بالذكر أن المراكز العمرانية الكبرى على ساحل الإمارات، اعتمدت فى مراحل نموها الأولى على المياه العذبة الداخلية التى كثيراً ما كانت تجمع عدد كبير من الآبار المتجاورة ثم تحمل إلى المدن لسد حاجة السكان المتزايدين، ومن أحسن الأمثلة على ذلك آبار منطقة الفلج التى تغذى مدينة الشارقة بحاجتها من المياه، كذلك فإن مدينة أبوظبى تأتيها المياه من منطقة تقع بالقرب من واحة العين وعلى بعد ١٦٠ كيلومتراً، كما أن مدينة دبى تأتيها المياه بالأنابيب من منطقة العوير على بعد نحو ٢٠ كيلومتراً، وقد نتج عن تضخم سكان بعض المدن مثل أبوظبى أن اتجه المسؤولون بها إلى تحلية مياه البحر لسد حاجة السكان منها.

وعموماً فقد أسهمت الآبار السطحية فى بطون الأودية فى خلق مراكز عمرانية عديدة تمتد على طول الأودية ولكنها فى العادة مراكز صغيرة يقيم فيها عدد قليل من السكان، وتوجد هذه المراكز عند نهاية الأودية المنحدرة من جبال عمان شرقاً نحو خليج عمان حيث تبدو فى سلسلة ساحلية متعاقبة من القرى أهمها دبا الحصن وضدنة وشرم وخورفكان ومدينة الفجيرة وقرى الغرفة وسور كلبا.

وكذلك يتركز السكان فى نهايات الأودية المنحدرة غرباً نحو الخليج العربى وخاصة فى إمارات رأس الخيمة ويتمثل هذا التركز السكانى فى مراكز عمرانية ساحلية هى الأخرى مثل قرى شعمم وغليلة والرمس ثم مدينة رأس الخيمة ذاتها، كذلك تتبعثر القرى فى نطاق الأرض المنبسطة الممتدة بين جبال عمان وبين منطقة الكثبان الرملية نحو الغرب عند مخارج الأودية، ومن أهم نقاط التركز السكانى هنا قرى فلية وخران والحيل ودقداقة وفلج المعلى والذيذ.

ومن أبرز الظاهرات التى تبدو فى ارتباط توزيع السكان بالمياه العذبة، ذلك

التركز السكاني الذى يوجد فى مناطق الأفلاج[1]، إذا يتجمع السكان فى مراكز عمرانية متباينة الأحجام والأهمية عند نهاية هذه الأفلاج حيث تتوفر المياه لرى الأرض الزراعية، ومن أوضح الأمثلة على ذلك فلاة واحة العين التى يعتمد عليها السكان اعتماداً يكاد يكون كاملاً فى الرى، وتتوزع هذه الأفلاج على قرى العين التسع، كذلك فإن هناك عدداً أخر من الأفلاج موزعة بين مختلف جهات الإمارات مثل فلج المعلى وفلج الذيذ، وهذه تقع فى النطاق الصحراوى الذى يمتد إلى الغرب من جبال عمان وحتى ساحل الخليج العربى.

والناظر إلى خريطة توزيع السكان وعلاقتها بالمياه العذبة فى دولة الإمارات[2] يلاحظ أن نطاق السهول الساحلية الغربية قليل الموارد المائية، ويتركز السكان فيه فى مدن ساحلية معتمدين على المياه القليلة المتوفرة محلياً وعلى جلب المياه من الداخل فى أنابيب، فالنطاق الغربى من إمارة أبوظبى والذى يتركز سكانه فى مدينة أبوظبى، كان طوال العصور ومازال ضعيف الموارد المائية، فالأمطار قليلة للغاية والآبار الضحلة التى تتزود بالمياه الجوفية من تلك الأمطار ذات مياه تميل إلى الملوحة، وكانت مدينة أبوظبى تعتمد على هذه المياه ولذا كانت طوال حياتها قروية صغيرة محدودة المساحة قليلة السكان، ثم مالبثت هذه القرية أن نمت وتطورت فى ظل ظروف اقتصادية مواتية معتمدة على إنتاج النفط، وساعدت الموارد التى توفرت من عوائده على حل مشكلة الحصول على المياه العذبة، وكانت أولى الخطوات فى هذا إنشاء محطتين لتحلية مياه البحر لكى تسد حاجة القرية التى أخذت تتطور وتتحول بالتدريج إلى مدينة كبيرة

(١) الفلج: عبارة عن نفق باطنى يمتد أفقيا فى الطبقات الصخرية بميل خفيف يساعد على انحدار الماء فيه، وتتجمع المياه الباطنية فيه بطريقة التسرب ثم تنحدر نحو نهايته حيث توجد الأراضى التى يراد ريها، وأكثر الظروف ملاءمة لحفر الفلج أن تكون المنطقة المراد ريها قريبة من قاعدة جبل من الجبال، وهى المصدر الذى يسد الفلج بالمياه.

(٢) راجع توزيع الآبار والأودية الشرقية فى خريطة دولة الإمارات العربية التى سبقت الإشارة إليها.

وقد تركز السكان فى جنوب غرب إمارة أبوظبى فى واحة ليوا التى تضم إثنتين وخمسين قرية على شكل هلال إلى الشمال من تلال البطين، ويجدر بالذكر أن سكان هذه القرى ليسوا مستقرين تماماً، كما هى الحال فى كثير من الأجزاء الأخرى من أبوظبى، ويتغير عدد السكان فى هذه الواحة حسب فصول السنة، ويهاجر القرويين مع قطعان أغنامهم وإبلهم سعياً وراء المراعى الشتوية ومايلبثوا أن يعودوا فى شهور الصيف عندما يصعب الرعى فى الصحراء، كذلك يتجه آخرون إلى الساحل أو إلى الجزر أثناء موسم الصيد، ويصل أقصى عدد سكان واحة ليوا إلى ٣٠٠٠ شخص، ولكن هذا العدد قد ينخفض إلى أقل من ٢٠٠٠ شخص[١]، والواقع أن حرفة الرعى تسود عند كثير من القبائل فى أبوظبى ولذا تقضى جزءاً من السنة بقطعانها سعياً وراء المرعى فى كثير من المناطق جيدة المرعى مثل الظفرة والبينونة والحمرة.

وتعد إمارتا عجمان وأم القيوين أشد الإمارات فقراً فى موارد المياه، ولذا كانت مراكز العمران محدودة بهما سواء فى أعداد السكان بها أو فى أحجامها، ذلك لأنها تعتمد على مياه مائلة للملوحة تحصل عليها من الآبار الضحلة فى المناطق الساحلية[١].

أما رأس الخيمة فهى أكثر الإمارات وفرة فى مياهها الجوفية سواء فى النطاق الساحلى أو الداخلى بها، ولذا فقد تركز السكان فى مناطق متعددة بها من أبرزها تلك المناطق الزراعية الممتدة من مدينة رأس الخيمة شمالاً - ونحو الجنوب على طول النطاق الذى يمتد بجوار رؤوس الجبال من ناحية الغرب، وتعتمد على مياه الأودية العديدة المنحدرة من تلك الجبال، كذلك يتركز السكان فى تلك المساحات المنبسطة الواسعة فى منطقة فلية وخران والحيل ودقداقة معتمدة على مياه الآبار الضحلة فى بطون الأودية كما سبق أن ذكرنا.

---

(1) Fenelon, K.G., Op. Cit., P. 46.

(٢) متولى: المرجع السابق - الجزء الأول - ص ٢٠٤.

وفى إمارة الفجيرة التى تقع على الجانب الشرقى من شبه جزيرة الإمارات العربية مطلة على خليج عمان، فإن السكان يتركزون بها فى نقاط استقرار رئيسية فى الدلتا المروحية لوادى حام أو على حوافها شمالا وجنوباً، معتمدين فى ذلك على مياه الآبار السطحية التى يحفرها السكان فى رواسب الدلتا، وأبرز مراكز التركز السكانى الفجيرة وسكمكم والغرقة.

وعموماً فإن التركز السكانى فى إمارة الفجيرة يرتبط بالسهل الساحلى وبالتحديد فى سهل الباطنة - الذى يعد إمتداداً لسهل الباطنة الرئيسى فى مسقط، والممتد نحو ١٧٥ ميلاً من الفجيرة حتى مسقط، ويقيم فى هذا السهل معظم السكان ويتركز فيه الإنتاج الزراعى ومراكز صيد الأسماك.

انماط التركيب الاقتصادى

يبدو من التوزيع العددى للعاملين فى دولة الإمارات العربية حسب أوجه النشاط الاقتصادى، أن الغالبية العظمى من القوة العاملة تعمل فى الصناعة والتجارة (٨٥٪) والخدمات الأخرى (١٠٪) والزراعة (٥٪) ومعنى ذلك أن الصناعة والتجارة تستوعب أكثر من ثلاثة أرباع العاملين بالدولة، وتأتى الزراعة والصيد فى مرتبة تالية من حيث الأهمية العددية على مستوى الدولة - حيث يعمل بها ٥٪ من القوة العاملة.

وتتباين صورة البنيان الإقتصادى الديموغرافى فى الإمارات السبع تباينا كبيراً - ويرجع هذا التباين إلى عوامل هامة أبرزها استخراج النفط فى بعض الإمارات مثل أبو ظبى والدور التجارى لبعضها الآخر مثل دبى، وسيادة الحرف التقليدية كالزراعة والصيد فى بقية الإمارات الآخرى، والواقع أن تباين توزيع السكان حسب أوجه النشاط الإقتصادية فى دولة الإمارات يرتبط فى المقام الأول بانتاج النفط، ذلك لأن الإمارات التى لاتنتجه تتميز بزيادة نسبة العاملين فى الزراعة

والصيد مثل الفجيرة التى تستوعب الزراعة بها ثلاثة أرباع العاملين فى الإمارة، وتليها عجمان ورأس الخيمة ويعمل نصف سكانها بالزراعة والصيد، ثم إمارة أم القيوين التى يعمل ثلث السكان بها الزراعة، ومن الواضح أن توفر المياه اللازمة لأغراض الرى وملاءمة التربة للزراعة فى هذه الإمارات أسهم فى ارتفاع نسبة العاملين بالزراعة والصيد ارتفاعا ملموساً.

وينبغى الإشارة إلى أن نسبة العاملين فى الزراعة والصيد تجمع فى ثناياها مهنتين رئيسيتين فى معظم الإمارات وإن كانت الزراعة وحدها لاتستحوز على قدر كبير من هذه النسبة لأن قطاع الصيد هو الذى يستوعب الجزء الأكبر منها نظراً لغنى المياه الإقليمية بالثروة السمكية(١).

ويجدر بالذكر هنا أن الإمارات العربية لها تاريخ طويل فى التجارة البحرية، فعلى امتداد العصور كان الخليج العربى معبراً للتجارة حتى أصبحت هذه الحرفة من أهم الحرف التى يمارسها السكان فى المدن الساحلية رغم شيوع القرصنة فى الماضى، ففيما بين شهرى ديسمبر ومارس كانت السفن المحملة بالبضائع تبحر نحو ممباسا وزنجبار ودار السلام تدفعها الرياح الموسمية الشمالية الشرقية، ثم تعود بعد ذلك فيما بين أبريل وسبتمبر تدفعها الرياح الموسمية الجنوبية الغربية.

وفى القرن العشرين – ونتيجة لمنافسة السفن البخارية، وتدهور استخراج اللؤلؤ شهدت التجارة بالإمارات ودول الخليج بعامة مرحلة عصيبة وأصبحت الحياة صعبة على السكان الذين بدأ الكثير منهم يهاجر للأقطار المجاورة، حتى قدر مثلا

---

(١) تجدر الإشارة هنا إلى أن استخراج اللؤلؤ كان من الحرف الرئيسية لسكان ساحل الخليج على امتداد عدة قرون. وقد وصلت هذه الحرفة إلى أقصى أزدهارها قبيل الحرب العالمية الأولى ولكن منذ الثلاثينات بدأت فى التدهور لمنافسة اللؤلؤ المزروع فى اليابان – والكساد العالمى آنذاك، ولم تنتعش هذه الحرفة بعد ذلك بل تدهورت تريجياً حتى اختفت تقريبا فى الوقت الحاضر.

أنه بين الثلاثينيات وحتى اكتشاف النفط بإمارة أبوظبى – هاجر حوالى ١٨٠٠٠ نسمة كلهم تقريباً من الذكور فى الأعمار المتوسطة من الإمارات إلى الدول المجاورة مثل قطر والبحرين والكويت والمملكة السعودية بحثاً عن عمل، ولم تكن تتوفر لديهم أدنى خبرة عن أعمال متطورة، ومن ثم عملوا فى الحرف الدنيا بأجور زهيدة وكانوا يرسلون ببعض مدخراتهم إلى ذويهم فى الإمارات، وكان الإستثناء الوحيد بين الإمارات هى إمارة دبى والتى استطاعت أن تستغل موقعها وتحولت إلى ميناء مستودع، وإلى مدينة تجارية هامة – بل أن السوق التجارية بها سوق عالمية فى الواقع حيث يعمل بها الهنود والإيرانيون والباكستانيون والعرب وغيرهم.

وتقل نسبة العاملين فى قطاع الصناعة قلة واضحة من جملة القوة العاملة بالإمارات، وتشمل هذه الحرفة قطاع الصناعة والتعدين والمحاجر وصناعة النفط، ورغم توفر خامات بعض المعادن فى معظم الإمارات – فإن نسبة العاملين فى قطاع التعدين قليلة للغاية، وربما كان مرجع ذلك أن الحاجة مازالت تدعو إلى مزيد من المسوح الجيولوجية ووسائل النقل كما تتطلب كفاءات خاصة لا تتوفر لدى السكان الأصليين فى الإمارات.

خاتمة

تعد دولة الإمارات العربية المتحدة من الدول ذات الحجم السكانى الصغير، فقد بلغ عدد سكانها ١٨٠,٠٠٠ نسمة سنة ١٩٦٨ وقدر عددهم ٢,٤ مليون نسمة سنة ١٩٩١، يعيشون فى سبع إمارات تصل مساحتها إلى ٨٣٦٠٠ كيلومتراً مربعاً.

وقد أظهرت الدراسة الديموغرافية لسكان الإمارات اضطراد نموهم العددى فى السنوات الأخيرة بمعدل كبير للغاية، فقد تضاعف عدد السكان ثلاث مرات ونصف مرة تقريباً خلال ربع قرن فقط (١٩٤٨-١٩٧٢)، ثم سبع مرات ويرجع ذلك النمو السكانى الكبير إلى تدفق المهاجرين عقب التطور الإقتصادى الجذرى الذى طرأ على الدولة منذ منتصف الستينيات بعد اكتشاف النفط بها واستغلال عوائده لتحقيق ذلك التطور، ويبدو دور الهجرة واضحاً فى أنها أسهمت بنحو أربعة أخماس الزيادة الكلية لسكان البلاد فى الفترة من ١٩٦٨-١٩٧٢، بينما أسهمت الزيادة الطبيعية بالنسبة القليلة الباقية فى هذه الفترة.

وقد وصل حجم الهجرة الوافدة إلى دولة الإمارات حتى سنة ١٩٨٥ إلى ٦٤٪ من جملة عدد سكان البلاد، وأسهم المهاجرون بنسبة عالية من جملة القوى العاملة فى الدولة، ولذا فمن المرجح الإستنتاج بأن البلاد ستستمر فى اعتمادها على الأيدى العاملة الأجنبية فى المستقبل لتنفيذ خطط التنمية الإقتصادية والاجتماعية بها.

ويتباين معدل النمو السكانى على رقعة الإمارات السبع المكونة لدولة الإمارات، فهو يرتفع ارتفاعاً كبيراً فى إمارتى أبوظبى ودبى، وذلك لأنهما أكثر إمارات الدولة فى إنتاج النفط والنشاط الاقتصادى ومن ثم فهما قطبا الهجرة الوافدة إلى البلاد ويتركز بهما أكثر من أربعة أخماس المهاجرين ولذلك يكون

المهاجرين ولذلك يكون المهاجرون أكثر من ٣/٤ سكان إمارة أبوظبى وقرابة نصف سكان إمارة دبى، أما الإمارات الخمس الأخرى فتقل بها نسبة الأجانب قلة واضحة لعدم توفر عوامل الجذب الهجرى بها ومن ثم فإن السكان الوطنيين يكونون الغالبية العظمى من سكان هذه الإمارات.

وتنخفض الكثافة السكانية فى دولة الإمارات العربية انخفاضاً بالمقارنة مع دول الخليج الأخرى، كما يتميز توزيع السكان بأنه هامشى إلى حد كبير حيث يتركز السكان فى النطاق الساحلى وفى الأودية الجبلية والواحات الداخلية ويتحدد توزيعهم ببعض العوامل الجغرافية أبرزها على الإطلاق توفر المياه العذبة - الجوفية أو الجارية - والتى تساعد على قيام الزراعة والاستيطان البشرى.

وتتباين إمارات الدولة السبع فى المساحة والسكان تبايناً كبيراً، ولعل فى إماراتى أبوظبى ودبى ما يدل على ذلك، فبينما تصل مساحة الأولى إلى أكثر من أربعة أخماس الدولة فإن سكانها يصلون إلى أكثر من ثلث جملة السكان، بينما تتضاءل مساحة دبى لتصل إلى ١/٢٠ من مساحة الدولة فى الوقت الذى يقطنها فيه ثلث جملة السكان، كذلك فقد أدت المساحة الصغيرة لبعض الإمارات الأخرى إلى أرتفاع متوسط الكثافة السكانية بها ارتفاعاً يصل إلى ثمانية أضعاف متوسط الكثافة على مستوى الدولة، مثل إمارة عجمان ودبى ورأس الخيمة والشارقة.

وعموماً فإن نمط التوزيع السكانى فى الإمارات يتميز بالتركز فى نويات مركزية ساحلية تكون قلب كل إمارة فى الواقع، ويعيش فى هذه النويات النسبة العالية من السكان، بينما تتبعثر النسبة القليلة الباقية على رقعة الإمارة فى الداخل.

ويتميز السكان الأصليون فى الإمارات بأنهم صغار السن ذلك لأنه قرابة خمسى عدد السكان تقل أعمارهم عن ١٥ سنة مما يعكس ارتفاع مستوى الخصوبة من ناحية وانخفاض معدلات وفيات الأطفال من ناحية أخرى.

ويختلف التركيب العمرى للسكان الأجانب عن الأصليين بطبيعة الحال ذلك لأن نسبة الصغار بين المهاجرين تصل إلى الخمس فقط بينما تصل نسبة السكان فى الأعمار الوسطى – وهى أعمار العمل والإنتاج – إلى قرابة ثلاثة أرباع جملة السكان الأجانب، وينعكس ذلك كله على الهرم العمرى النوعى للسكان والذى يوضح بدوره أثر الهجرة الوافدة حيث يكون الذكور – خاصة فى الأعمار الوسطى – معظمه – مما يؤكد ظاهرة الإنتقاء الهجرى العمرى النوعى بين المهاجرين فى الإمارات – شأنها فى ذلك شأن دول النفط الأخرى فى منطقة الخليج العربى.

وصفوة القول أن مشكلة السكان فى دولة الإمارات العربية المتحدة تكمن فى قلة عددهم بها حيث تعيش حالياً فى مرحلة السكان الأقل من الموارد رغم ارتفاع معدلات النمو الطبيعى بها ومن ثم فهى تعيش أيضا مرحلة التزايد السكانى السريع الذى سيؤدى إلى تضاعف حجم سكانها فى فترة قد لاتزيد على عقدين من الزمان، ويضاف إلى ذلك أن الدولة لم تأخذ بأساليب التنمية البشرية إلا حديثاً جداً بعد استغلال موارد النفط الكامنة بها ولذا فهى تعانى من نقص شديد فى الأيدى العاملة الوطنية المدربة التى يمكن أن تسهم فى مجالات التنمية المتعددة، ولذا ستظل فترة طويلة معتمدة على العمالة الأجنبية، وقد لوحظ ذلك فى أرتفاع معدلات الهجرة الوافدة فى السنوات الأخيرة، إلا أن هذه الهجرة ينبغى أن توضع لها القواعد والقوانين التى تنظمها وتقصرها على الأيدى العاملة اللازمة لخطط التنمية بالدولة حتى لايتحول السكان الأصليون فى النهاية إلى أقلية دائمة فى بلدهم مع مايترتب على ذلك من مشكلات عديدة فى المجالات الإجتماعية والاقتصادية والسياسية.

الفصل السادس

البحرين

تقع جزر البحرين فى الخليج الفاصل بين شبه جزيرة قطر وبين ساحل الاحساء، وهى دولة صغيرة الحجم المساحي والسكانى معا، فقد بلغ عدد سكانها ٥٣٦ الف نسمة حسب تقدير ١٩٩١ يعيشون فى مجموعة من الجزر تصل مساحتها الى ٦٦٢ كيلو مترا مربعا، وأكبر هذه الجزر، جزيرة البحرين التى يغلب عليها التكوينات الجيرية وأثرت فيها عوامل التعرية خاصة فى اجزائها الوسطى وكونت حوضاً منخفضا، وعلى اطرافها الشمالية تظهر الينابيع بكثرة، وتغطى الواحات أدغال النخيل الى جانب مساحات صغيرة من الحمضيات والحبوب، وكانت الأجزاء الداخلية غير مسكونة تقريبا حتى اكتشاف البترول وتعمير بعض المناطق الداخلية عندما بدأت تشهد استقرارا بشريا وإن كان أقل من مثيله فى شمال الجزيرة.

وكان سكان البحرين من صيادى اللؤلؤ – وكانت لهم فى البحرين أكثر من ألف سفينة لاستخراجه، ولكن هذه الحرفة تدهورت مثلما حدث فى مناطق الخليج الأخرى ولكن نشطت حرف أخرى مثل الزراعة التى تتمثل فى زراعة الفاكهة والتمور والخضر، بل والأعلاف الخضراء للحيوانات، وأصبحت هذه الجزر من أهم مناطق الزراعة فى الخليج حيث يوجد بها مايقرب من ١١ الف فدان من الاراضى الزراعية المعتمدة على الرى من المياه الجوفية.

والبحرين تنتج البترول، ولكن بكميات قليلة بالمقارنة مع جارتها العربيات ويستخرج من منطقة العوالى على بعد ٢٥ كيلومترا جنوب المنامة، العاصمة، وقد وصل الانتاج إلى ٢ مليون طن سنة ١٩٨٤، وقد أنشىء معمل لتكرير البترول فى سترة بطاقة تصل إلى ١٢ مليون طن سنويا، ويعتمد اعتمادا كبيرا

على بترول السعودية لتشغيله ويصل هذا البترول بواسطة خط أنابيب طوله ٢٦ كيلومترا تحت الماء.

سكان البحرين:

رغم أن حجم السكان فى البحرين يعد صغيرا، إلا أن هذا الحجم بالنسبة للمساحة الكلية يجعل من البحرين دولة كثيفة السكان وخاصة إذا قورنت بالدول المجاورة، وليست تلك ظاهرة حديثة، بل ترجع لسنوات طويلة أسهمت فيها عوامل السبق الجغرافى بالبحرين من قيام الزراعة وازدهار التجارة والصيد، مما ساعد على تركز السكان مبكرا بها أكثر من غيرها من الدول المجاورة، لذلك فان المجتمع البحرينى يعد من المجتمعات المستقرة فى بيئتها المحدودة، ولايتصف بوجود بدو أو أشباه بدو فى سكانه كما هى الحال فى دول الخليج العربى الأخرى.

ويتحدد توزيع السكان فى جزر البحرين ببعض العوامل أبرزها على الاطلاق توفر المياه الجوفية، التى تساعد على قيام الزراعة والاستقرار البشرى، ويتميز بذلك النطاق الشمالى من تلك الجزر وخاصة فى منطقة المنامة وجزيرة المحرق اللتان تضمان ثلثى عدد سكان البلاد، وتبدو صورة التوزيع السكانى فى تركز الغالبية العظمى من السكان فى نطاقات السواحل الشمالية والشمالية الشرقية والشمالية الغربية للجزيرة الكبرى، وشمال ووسط جزيرة سترة وأطراف جزيرة المحرق. ويكون السكان مع المناطق الزراعية هنا نطاقا بشريا اقتصاديا لامثيل له فى منطقة الخليج العربى ويقل عدد السكان بشدة ويتخلخل توزيعهم بالاتجاه جنوبا وغربا حتى يندر وجودهم فى جنوب الجزيرة الكبرى وباقى الجزر الأخرى، وفى كل ذلك تبرز العاصمة – المنامة بسكانها الذين قدر عددهم بنحو ١٥١٠٠٠ نسمة أكبر المدن والتجمعات السكانية فى البحرين.

نمو السكان:

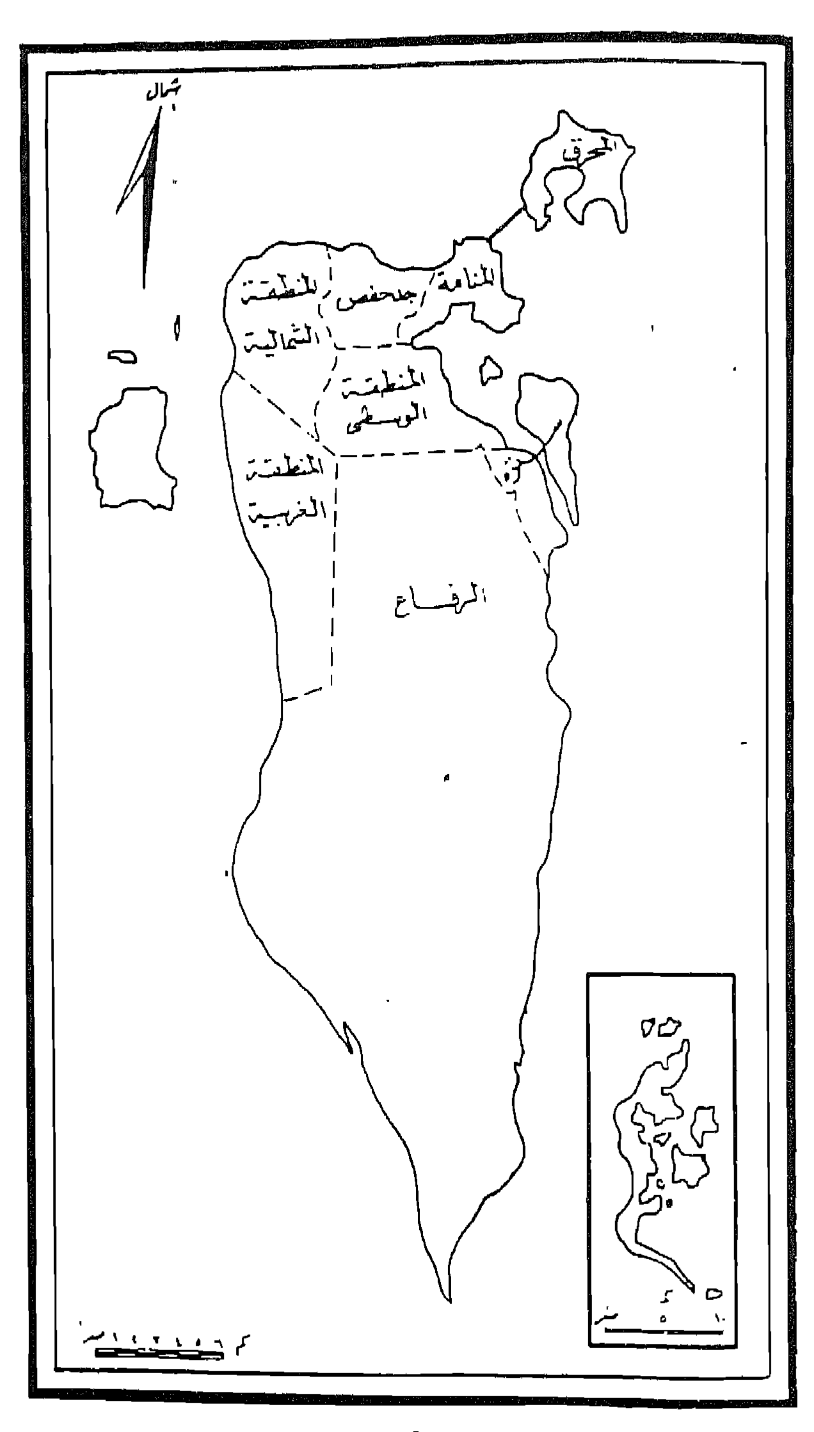
يرتبط نمو السكان فى البحرين -مثلها فى ذلك مثل معظم دول الخليج العربى- بالتغير الاقتصادى الذى تمثل فى التحول من الاعتماد على اقتصاد تقليدى -أساسه التجارة والزراعة والصيد- إلى اقتصاد حديث يعتمد بالدرجة الأولى على البترول المستخرج وعوائده، وكان لهذا التغير فى نمط الحياة آثاره الديموغرافية البارزة، فحتى سنة ١٩٤٥ كان سكان الخليج بعامة قليلى العدد، يعيشون على مستوى اقتصادى منخفض، وقد نتج عن التجارة البحرية وصيد اللؤلؤ، وتجارة الرقيق فى القرون الماضية، مؤثرات عرقية شملت منطقة الخيلج[١] كله، ولم يكن للهجرة الوافدة، أو للزيادة الطبيعية دور كبير فى الزيادة السكانية.

وعلى النقيض من ذلك فقد شهدت الفترة التى تلت سنة ١٩٤٥ نموا ديموغرافيا سريعاً، كان مرجعه الأساسى تدفق أعداد من المهاجرين على منطقة الخليج بحثاً عن العمل، خاصة وأن معظم الدخل الذى تدفق من عوائد البترول فى المنطقة بدأ استثماره فى تحقيق نهضة عمرانية، وتوفير الخدمات الصحية والتعليمية للسكان. وكان لذلك أثره الكبير فى خفض معدلات الوفيات وبخاصة وفيات الأطفال الرضع، فى الوقت الذى كانت فيه معدلات المواليد ما تزال مرتفعة بدرجة ملحوظة. مما أدى إلى أرتفاع معدلات الزيادة الطبيعية -وهى الفرق بين المواليد والوفيات- سواء بين السكان الأصليين، أو المهاجرين الوافدين.

وبالرغم من أن هذه سمات ديموغرافية عامة فى منطقة الخليج العربى، فإن هناك اختلافات محلية بين أقطاره، سواء فى توقيت التغيير الاقتصادى -وبالتالى

---

(1) Hill, A.G.: "The Gulf states: Petrolum and Population Growth", Population of the Middle East and North Africa, édited by Clarke, J.I. and Fisher, W.B., London, 1972, p. 243.



(شكل ١٤)
المناطق الجغرافية للبحرين

التغير الديموغرافى- أو فى تفاوت حجم العوامل الديموغرافية من مواليد ووفيات وهجرة ودورها فى النمو السكانى بها، وتعد البحرين من أبرز الأمثلة على مواكبة التغير الديموغرافى للنمو الاقتصادى.

وتتوافر البيانات السكانية التى يمكن الاستدلال منها على ذلك، فالبحرين دولة صغيرة المساحة، قليلة السكان، شأنها فى ذلك شأن أقطار الخليج العربى الأخرى، والتى لم يزد عدد السكان فى أى منها على مليون نسمة بعد.

وليس من السهل تتبع نمو السكان فى البحرين فيما قبل يناير سنة ١٩٤٢، وهو تاريخ أول تعداد اجرى فيها، وكان آخر تعداد هو الذى أجرى فى أبريل سنة ١٩٨١. ومن ثم فإن منحنى النمو السكانى سيقتصر على مدة زمنية محدودة، مداها أربعون عاماً فقط -ويوضح الجدول (رقم١٢) التطور العددى للسكان خلال هذه المدة.

جدول رقم (١٢)

التطور العددى لسكان البحرين فى المدة (١٩٤١-١٩٨١)

تاريخ التعداد	بحرينيون	غير بحرينيين	جملة السكان
يناير ١٩٤١	٧٤٠٤٠	١٥٩٣٠	٨٩٩٧٠
مارس ١٩٥٠	٩١١٧٩	١٨٤٧١	١٠٩٦٥٠
مايو ١٩٥٩	١١٨٧٣٤	٢٤٤٠١	١٤٣١٣٥
فبراير ١٩٦٥	١٤٣٨١٤	٣٨٣٨٩	١٨٢٢٠٣
أبريل ١٩٧١	١٧٨١٩٣	٣٧٨٨٥	٢١٦٠٧٨
أبريل ١٩٨١	–	–	٣٥٠٧٩٨

ويبين هذا الجدول أن عدد السكان في البحرين قد تضاعف نحو أربع مرات تقريباً خلال أربعين عاماً، وبالرغم من أن المهاجرين قد تزايد عددهم أكثر من الضعف أيضا خلال هذه المدة؛ فإن العامل الرئيسى فى نمو السكان هو الزيادة الطبيعية المرتفعة، ويدل تضاعفهم فى تلك المدة على معدلات نمو عالية. ويبين الجدول رقم (١٣) هذه المعدلات في الفترات التعدادية، سواء للسكان الأصليين، أو المهاجرين الوافدين، وهى تعد مؤشراً هاماً للارتباط الكبير بينها وبين التطور الاقتصادى فى البلاد.

جدول رقم (١٣)

معدل النمو السنوى للسكان فى البحرين فى الفترات التعدادية (١٩٤١-١٩٥٠) إلى (١٩٧١-١٩٨١) فى المائة

الفترة التعدادية	بحرينيون	غير بحرينيين	جملة السكان
١٩٤١-١٩٥٠	٢,٣	١,٦	٢,٢
١٩٥٠-١٩٥٩	٢,٩	٣,٠	٢,٩
١٩٥٩-١٩٦٥	٣,٣	٧,٩	٤,٢
١٩٦٥-١٩٧١	٣,٥	٠,٢	٢,٨
١٩٧١-١٩٨١	–	–	٤,٩

ويبدو معدل نمو سكان البحرين مرتفعاً بدرجة ملحوظة، كما أنه يتزايد باطراد فى الفترات التعدادية المذكورة، ويرجع هذا التزايد فى معدل النمو السكانى إلى ارتفاع مستوى خصوبة السكان الأصليين، ولاشك أن استمرار ارتفاع مستوى الخصوبة مع ميل معدلات الوفيات نحو الانخفاض نتيجة الخدمات الصحية المتاحة فى البلاد -يزيد الفارق بينها بما ينعكس بالتالي على ارتفاع الزيادة الطبيعية بين السكان، ويبدو ذلك واضحاً فى الفترة التالية لسنة ١٩٥٩، والتى شهدت زيادة

كبيرة فى معدل النمو، بلغ اقصاه فى الفترة التعدادية (١٩٧١-١٩٨١).

أما غير البحرينيين فيبدو أن معدل نموهم قد تزايد بدرجة تفوق البحرينيين، وخاصة فى الفترة (١٩٥٩-١٩٦٥)، وكان لتدفق اعداد كبيرة من الباحثين عن عمل فى البحرين فى اعقاب نموها الاقتصادى فى الستينات - أثر كبير فى رفع هذا المعدل، إلا أن أعدادهم تناقصت بعد ذلك فجأة، وبلغ معدل نقصهم السنوى ٢ر٠٪، ويرجع ذلك بالدرجة الأولى إلى القيود التى وضعت على الأيدى العاملة الأجنبية فى البحرين، كذلك فإن اعداداً من المهاجرين قد عادوا إلى بلادهم، خاصة العمانيين، والإيرانيين، والسعوديين، بعد التطور الانتاجى للبترول فى تلك البلاد.

التباين الإقليمى لنمو السكان فى البحرين

تنقسم دولة البحرين إلى ثمان مناطق جغرافية رئيسية، هى منطقة المنامة، وجزيرة المحرق، ومنطقة جد حفص، والمناطق الشمالية والغربية والوسطى، ثم منطقة سترة، ومنطقة الرفاع[1]، وتتباين معدلات النمو السكانى فى هذه المناطق تبايناً واضحاً.

ويمكن بوضوح تمييز مناطق النمو السكانى الرئيسية، والمتمثلة فى الجهات الشمالية بوجه عام، والتى تزايد سكانها بنسب تربو على ٢٥٪ خلال الفترة التعدادية (١٩٥٩-١٩٦٥)، بل إن المنطقة الشمالية إحدى أقاليم هذا النطاق تزايد سكانها بنسبة ٤٥٪ خلال هذه الفترة، وقد وصل معدل النمو السنوى بها إلى ٥ر٦٪، ويليها فى ذلك المنطقتان: الوسطى والغربية، حيث زاد معدل النمو

(١) تشمل كل منطقة من هذه المناطق عدداً من المدن والقرى توضحها مقدمة تعداد السكان ١٩٧١.
See: State of Bahrin, Statistics of the Population Census, 1971, page V.

بهما على ٥٪ سنوياً، وهذه المناطق الثلاث تميزت في الفترة التعدادية الأولى بزيادة معدل النمو بها على معدل النمو في البحرين ككل، وهي تعد منطقة امتداد عمراني، وتركز سكاني، ساعد عليه قربها من المنامة العاصمة.

بيد أن صورة النمو الإقليمي في البحرين تباينت بوضوح في الفترة التعدادية (١٩٦٥-١٩٧١)، وتبين الأرقام أن المنطقة الوسطى قد شهدت أعلى معدل للنمو السكاني على الإطلاق بالمقارنة مع باقي الأقاليم، حتى أنه وصل إلى ستة أمثال معدل النمو السكاني في البحرين ككل وإلى أكثر من ثلاثة أمثال معدل النمو التالي له مباشرة في منطقة جد حفص، ومرجع ذلك بالدرجة الأولى، هو إنشاء مدينة عيسى بهذا الإقليم، واستيعابها اعداداً من السكان وصلت في تعداد سنة ١٩٧١ إلى ٧٥٠١ نسمة، أي أكثر قليلاً من نصف سكان هذا الإقليم، ويلي المنطقة الوسطى في معدل النمو ثلاث مناطق تتشابه في هذا العدد، وهي جد حفص، والمنطقة الغربية، وسترة، حيث يربو معدل النمو السكاني بكل منها على ٤٪ سنوياً، وهو في هذا يزيد عن معدل النمو في البحرين ككل. أما المنطقة الشمالية التي كانت تحظى بأعلى معدل للنمو السكاني في الفترة التعدادية السابقة (١٩٥٩-١٩٦٥)- فقد جاء ترتيبها الرابعة في الفترة التالية حيث بلغ معدلها ٣ر٤ سنوياً، وهو في ذلك يصل إلى خمس معدل النمو في المنطقة الوسطى التي تميزت بأعلى معدل للنمو في الفترة التعدادية (١٩٦٥-١٩٧١) كما سبق القول.

والملاحظ على التباين الإقليمي لنمو السكان في البحرين أن هناك ثلاث مناطق، بالرغم من تزايد سكانها؛ فإن معدل هذا التزايد يقل بوضوح عن معدل النمو في الدولة، وهي مناطق المنامة وجزيرة المحرق والرفاع، وتعد منطقة الرفاع أقل المناطق في النمو السكاني في السنوات المذكورة، وهي تشغل جنوب جزيرة البحرين، وتتميز بقلة العمران البشري؛ لظروفها الجغرافية التي لاتساعد على

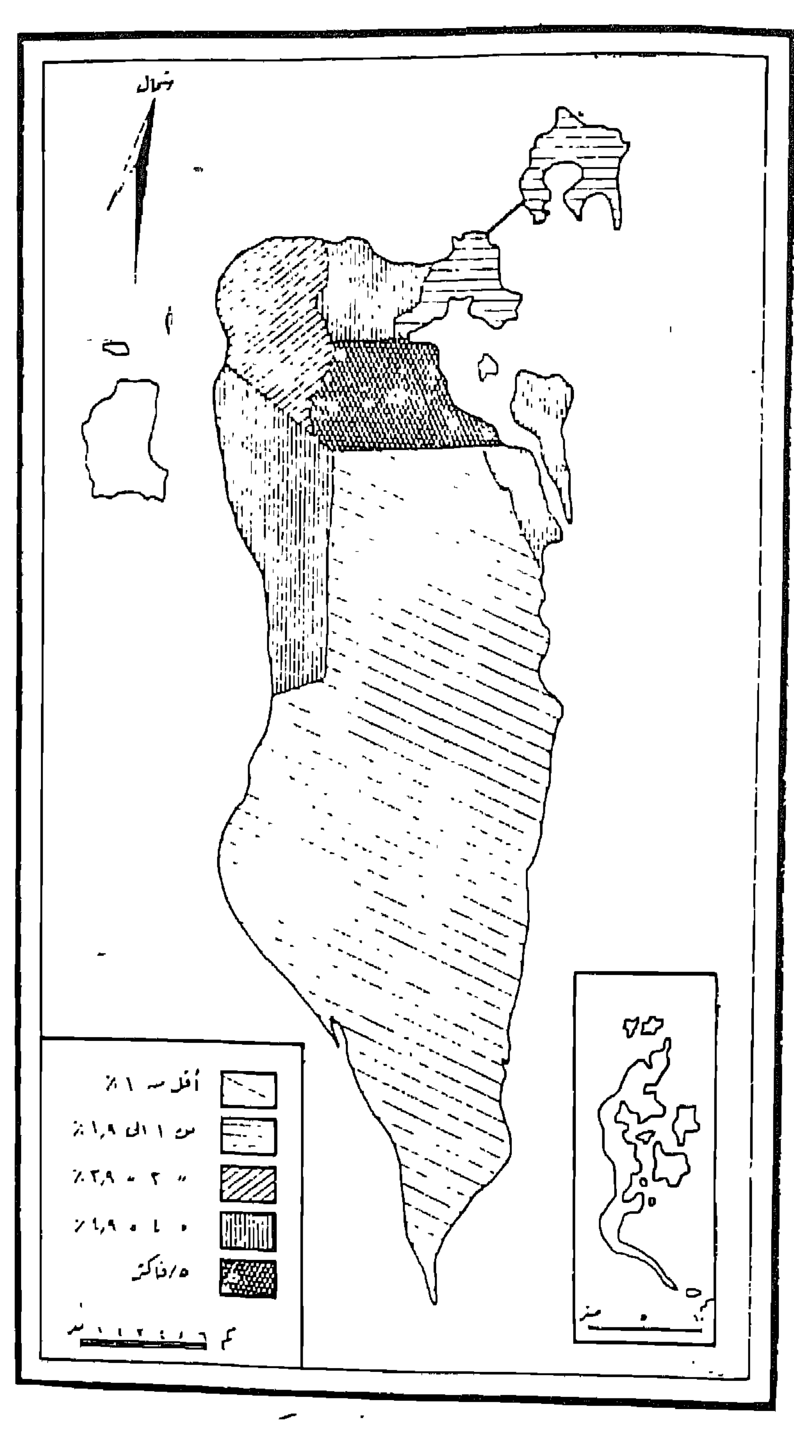
الاستقرار والتركز السكانى، وخاصة لعدم توفير المياه الجوفية بكميات كبيرة، وقد بلغ معدل نمو السكان بها ٩ر٠٪ سنوياً، وتركزت الزيادة السكانية فى مدينة الرفاع، والتى تزايد سكانها من ٦٦٢٣ نسمة، فى سنة ١٩٥٩ إلى ٩٤٠٣ نسمة فى سنة ١٩٦٥ ثم إلى ١٠٧٣١ نسمة فى سنة ١٩٧١، وقد أسهم وجود حقل، ومصفاة البترول فى هذه المنطقة بدور كبير فى تدفق الأيدى العاملة، من داخل البحرين ومن خارجها، والتركز فيها بدرجة ملحوظة.

عوامل النمو السكانى

أ- المواليد:

تعد الإحصاءات الحيوية الدقيقة الشاملة المصدر الرئيسى لدراسة العنصرين الرئيسيين المؤثرين فى النمو السكانى فى المجتمع، وهما المواليد والوفيات، ومن ثم معرفة الزيادة الطبيعية، ولكن احصاءات البحرين لايعتمد عليها للوصول إلى هذه الغاية، وذلك للنقص الواضح فى تسجيل الواقعات الحيوية بها، ومثال ذلك أنه فى الوقت الذى توضح فيه التعدادات نمواً مطرداً للسكان بمعدل مرتفع، فإن معدل المواليد المسجل يظهر عكس ذلك، حيث وصل فى سنة ١٩٧١ إلى ٥ر٣٠ فى الألف للبحرنيين ٥ر٢٥ فى الألف لغير البحرنيين، وبمتوسط قدره ٤ر٢٤ فى الألف لجملة السكان[١] وهذه المعدلات منخفضة جداً بدرجة لاتنتج زيادة طبيعية، كالمشاهد فى البحرين، والتى يعكسها معدل النمو السكانى الذى يبلغ ٣٥ فى الألف سنوياً للبحرينيين و٢٨ فى الألف لجملة السكان.

(١) وعلى سبيل المثال والمقارنة فقد بلغ متوسط معدل المواليد فى الكويت والتى تتميز بدقة تسجيل المواليد بها إلى ٣ر٤٣ فى الألف من ١٩٦٥-١٩٧٠.



(شكل ٢٥) معدل النمو للسكان فى مناطق البحرين
فى الفترة (١٩٦٥-١٩٧١)

ب- الوفيات:

يعد النقص في الإحصاءات الحيوية الخاصة بالوفيات، كما هي الحال بالنسبة للخصوبة معوقاً للدراسة التحليلية الدقيقة لتطور الوفيات، وتوزيعها العمرى النوعى فى البحرين، ولاتتوافر فى النشرات المتاحة بيانات كافية عن الوفيات سوى بعض الجداول التى تصدرها وزارة الصحة، والتى لاتتيح دراسة لتطور منحنى الوفيات بالبحرين، ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن معدلات الوفيات قد انخفضت فى السنوات الأخيرة، وبخاصة وفيات الأطفال الرضع لتصل إلى ١٧ فى الألف سنة ١٩٩١.

وبالرغم من أن هذا المعدل لايغنى عن معدل الوفيات العام، إلا أنه يمكن أن يكون مؤشراً لهبوط مستوى الوفيات فى البحرين فى السنين الأخيرة، نتيجة الأخذ بأساليب التقدم الطبى، وتوسيع قاعدة الخدمات الطبية للسكان.

وقد اشتق تعداد سنة ١٩٥٩ معدلاً للوفيات قدره ١٧٫٥ فى الألف -وفى ضوء الاستثمارات المتزايدة فى الخدمات الصحية فى البلاد- فان الاحتمال القوى هو هبوط هذا المعدل بعد ذلك، ويمكن الاستدلال على هذا الهبوط من بيانات التعدادات الأخيرة، التى تتيح دراسة مقارنة لجملة عدد الأطفال الذين تم انجابهم، والذين مازالوا على قيد الحياة منهم خلال حياة أمهاتهم، ويمكن الحصول على بعض مقاييس الوفيات حينئذ بحساب نسبة المتوفين من جملة المولودين خلال هذه المدة حسب فئات سن الأمهات، ويصل معدل الوفيات العام إلى ٤ فى الألف سنة ١٩٩١.

وصفوة القول فى العوامل الطبيعية وأثرها فى النمو السكانى فى البحرين أن الزيادة الطبيعية التى وصلت إلى ٣٥ فى الألف سنوياً للبحرينيين نتجت عن ارتفاع مستوى الخصوبة مع الهبوط الكبير الذى اعترى الوفيات، وخاصة فى

الأعمار المبكرة، وتلك سمة مميزة للدول النامية والبترولية منها بصفة خاصة، والتى ساعدتها مواردها على الاستفادة بالتقدم الطبى، وتوفير الخدمات الصحية لسكانها بدرجة أشمل من غيرها من المجتمعات النامية مما انعكس على الهبوط الكبير والمفاجئ فى معدلات الوفيات بها، وقد تم حساب المعدلات الحيوية للبحرنيين فى الفترة من ١٩٦٥-١٩٧١، فوجد أن معدل المواليد يبلغ ٤٤٫٦ فى الألف، والوفيات ٩٫٦ فى الألف، ومعدل التكاثر الإجمالى ٣٫٥، وفى ضوء هذه المعدلات فان السكان يمكن أن يتضاعف عددهم فى فترة تصل إلى ربع قرن، أو تقل عن ذلك بقليل، وذلك بافتراض ثبات المؤثرات الحيوية المذكورة.

جـ- الهجرة :

الهجرة إحدى الظاهرات الديموغرافية المميزة للبحرين، وهى فيما عدا الزيادة الطبيعية تعد المصدر الوحيد لتغير سكانها، وبالرغم من أن الهجرة يمكن تقسيمها إلى نوعين: هجرة داخلية (محلية) وهجرة خارجية (دولية)؛ فان البيانات المتاحة فى التعدادات السكانية البحرينية وسجلات العبور - لاتتيح دراسة النوع الأخير، ويرتبط بذلك مشكلة أخرى، وهى تعريف المهاجرين، ذلك لأن البحرين ليست مهجراً دائماً لكل الأجانب الوافدين إليها، حيث يرتبط وفود معظمهم بممارسة نشاط اقتصادى لفترة محددة، ثم لايلبثون أن يغادروا البحرين بعدها، ومن ثم فان ذلك يمكن إدخاله فى عداد الهجرة المؤقتة، وليست الهجرة الدائمة، وقد كان لصغر حجم البحرين وقلة إنتاج البترول بها -(٣٫٨ مليون طن سنة ١٩٧٠)- دور هام فى تحديد التطور الاقتصادى بها بدرجة كبيرة، وكان لذلك أثره فى حجم الهجرة الوافدة، حتى أنه فى سنة ١٩٧١ كان هناك ٣٧٨٨٥ أجنبياً فى البحرين بنسبة وصلت إلى ١٧٫٥٪ من جملة عدد السكان، وقد سبق تتبع معدل الزيادة السنوية للهجرة الوافدة إلى البحرين، وتبين أنها كانت فى تزايد مستمر، خاصة فى الفترة من ١٩٥٩-١٩٦٥، حيث بلغ المعدل قرابة ٨٪

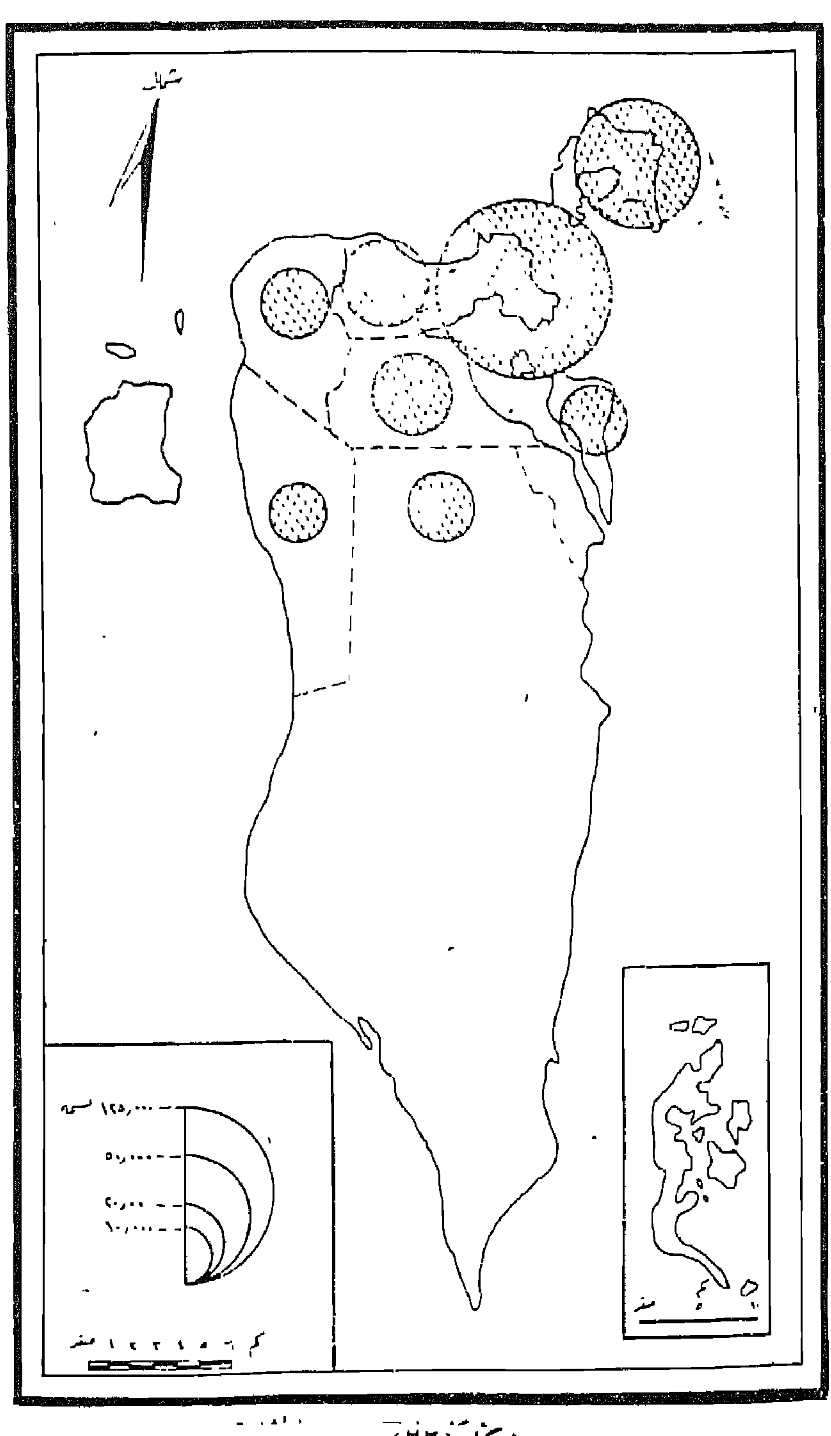
سنوياً، ثم أنخفض المعدل، لكى يبين هجرة خارجة من البحرين بمعدل ٢ر٠ ٪ سنوياً، بعد ذلك، وكان هذا الهبوط فى عدد الأجانب راجعاً إلى التطور الإنتاجى للبترول فى دولة الإمارات العربية المتحدة، وكذلك فى مسقط وعمان حيث استقبلت أعداداً من المهاجرين العائدين كما سبق القول، ويبدو واضحا أن العمانيين يأتون فى مقدمة الجماعات عدداً، وقد تزايدت أعدادهم حتى سنة ١٩٦٥ بالمقارنة مع المجموعة التالية وهم الإيرانيون، والذين كانوا فى تعداد ١٩٥٠ أكثر الجماعات الأجنبية عدداً. كذلك قد تزايدت أعداد الهنود والباكستانيين تزايداً ملموساً، وتضاعفت نسبتهم فى خلال إحدى وعشرين سنة من ٥ر١٦٪ سنة ١٩٥٠ إلى ٨ر٣١٪ سنة ١٩٧١، وذلك فى الوقت الذى قلت فيه نسبة الإيرانيين من ٥ر٣٧٪ إلى ٥ر١٣٪ فقط فى هاتين السنتين. ويأتى البريطانيون فى المركز الرابع، من حيث نسبتهم المئوية بين السكان الأجانب غير العرب فى البحرين، حيث تصل هذه النسبة إلى ٧ر٧ من جملة المهاجرين، وعموماً فان هذه الجنسيات الأربعة (الهنود والباكستانيون والإيرانيون والانجليز) يكونون أكثر من نصف عدد السكان الأجانب فى البحرين و ٣ر٩٪ من جملة عدد سكان البلاد، أما عن العرب غير البحرنيين، فالبرغم من تزايد نسبهم تزايداً واضحاً منذ سنة ١٩٥٠، إلا أن عددهم مازال يمثل أقل من نصف عدد المهاجرين فى البحرين، ومعظم العرب من العمانيين (كما سبق القول) يليهم اليمنيون والأردنيون والفلسطينيون والسعوديون، وفى الوقت الذى بدأت تتناقص فيه أعداد العمانيين والسعوديين والقطريين فى الفترة التعدادية (١٩٦٥-١٩٧١) -بدأت أعداد بعض الجنسيات العربية الأخرى فى التزايد، وخاصة الأردنيين والفلسطينيين الذين تضاعف عددهم أكثر من مرتين ونصف مرة فى تلك الفترة، وتزايدت نسبتهم من ١٪ فقط سنة ١٩٦٥ إلى ٥ر٣٪ سنة ١٩٧١، وكذلك المصريون الذى تضاعف عددهم بين هاتين السنتين، وزادت نسبتهم من

٠٫٦ إلى ١٫٥ ٪ من جملة عدد السكان غير البحرينيين. ويسهم المهاجرون في البحرين دور بارز في النشاط الاقتصادى بها، حيث تصل نسبتهم إلى ٣٧ ٪ من جملة القوى العاملة، بالرغم من أن عددهم يمثل ١٧٫٥ ٪ فقط من جملة عدد السكان. كما وأنهم يختلفون اختلافاً جوهرياً عن السكان الأصليين فى الخصائص الديموغرافية، وخاصة فى التركيب النوعى العمرى، حيث أن ٧٠ ٪ منهم من الذكور و ٧٤ ٪ فى الأعمار الوسطى (١٥-٥٩)، وتلك سمة مميزة لمجتمعات المهاجرين، حيث تسود بينهم ظاهرة الانتقاء النوعى العمرى بوضوح، وعلى أى حال فان الهجرة إلى البحرين قد أسمهت فى الماضى بدور بارز فى الزديادةالسكانية.

إلا أن ذلك الوضع قد اختلف بعد سنة ١٩٦٥، حيث زاد عدد المغادرين على عدد الوافدين، مما انعكس على تناقص أعداد السكان الأجانب، وهبوط عددهم بنسبة ١٥ ٪ فى سنة ١٩٧١ عما كانوا عليه فى سنة ١٩٦٥، ولعل فى ذلك مايبرر القول بأن الهجرة الدولية التى تتميز بها البحرين تختلف عن أنماط الهجرة الدولية الأخرى؛ ذلك لأن معظم المهاجرين الوافدين ليسوا مهاجرين دائمين، بل أن أعداداً كبيرة منهم تفد لفترات مؤقتة، ثم ما تلبث أن تغادر البحرين بعدها.

ثانيا: توزيع السكان

تتكون البحرين من مجموعة من الجزر، يربو عددها على ٣٠ جزيرة، تتفاوت فى مساحتها، وفى عدد سكانها، حتى أن بعض هذه الجزر صغيرة للغاية، وغير مأهول بالسكان، وتعد جزيرة البحرين أكبرها مساحة (٨٥ ٪) من جملة المساحة الكلية للدولة. وأكثرها سكاناً (٧٢ ٪ من جملة السكان)، توجد بها مدينة المنامة - العاصمة وكذلك الميناء الرئيسى المعروف بميناء سلمان، وحقل البترول فى العوالى.



شكل (٢٦)

توزيع السكان حسب الحجم الكلى فى مناطق البحرين ١٩٧١

وبالرغم من أن حجم السكان فى البحرين يبدو صغيراً، إلا أن هذا الحجم بالنسبة لمساحة الدولة يجعل من البحرين دولة كثيفة السكان بصورة واضحة، وخاصة إذا ماقورنت بالدولة فى منطقة الخليج، كما تبين الأرقام التالية ١٩٩١ :

الدولة	الكثافة السكانية (نسمة / كم٢)
البحرين	٨٠٣
الكويت	٧٨
قطر	٤٤
عمان	٧
الإمارات االعربية	٢٩

ويبدو الفارق الكبير فى متوسط الكثافة بين البحرين والدول المذكورة، وليست هذه ظاهرة حديثة، بل ترجع إلى سنوات طويلة سابقة، وذلك لقيام الزراعة، وازدهار حرف التجارة، وصيد اللؤلؤ، وقيام كثير من الصناعات التقليدية بها.

ويتحدد توزيع السكان فى جزر البحرين ببعض العوامل الجغرافية، ابرزها على الإطلاق توافر المياه الجوفية التى تساعد على قيام الزراعة، والإستقرار البشرى، والتى يتميز بها النطاق الشمالى فى تلك الجزر. ويتباين هذا التوزيع تبايناً كبيراً، سواء بين الجزر المأهولة بعضها وبعض، أو فى داخل الجزيرة الكبرى ذاتها.

ويوضح الجدول رقم (١٤) التوزيع العددى والنسبى للسكان فى أقاليم البحرين الثمانية فى التعدادات الثلاثة الأخيرة. ومن هذا الجدول يبدو أن سكان البحرين يميلون نحو التركز الشديد فى منطقة المنامة، وجزيرة المحرق، حيث يضمان ثلثى عدد السكان، وقد ظل نصيبهما ثابتا فى تعدادى ١٩٥٩ ، ١٩٦٥ ، – ثم تناقص

جدول رقم (١٤)

التوزيع العددى والنسبى للسكان فى البحرين فى السنوات ١٩٥٩، ١٩٦٥، ١٩٧١[1]

المنطقة	العدد			٪		
	١٩٥٩	١٩٦٥	١٩٧١	١٩٥٩	١٩٦٥	١٩٧١
منطقة المنامة	٦٢٬٢٦٦	٧٩٬٧٠٥	٨٩٬٣٩٩	٤٣٫٥	٤٣٫٧	٤١٫٤
جزيرة المحرق	٣٦٬٧٤٢	٤٦٬٣٧٣	٤٩٬٥٤٠	٢٥٫٧	٢٥٫٤	٢٢٫٩
منطقة جد حفص	١١٬٥٧٩	١٤٬٥٧١	١٩٬٥٢١	٨٫١	٨٫٠	٩٫٠
المنطقة الشمالية	٥٬٩٣٣	٨٬٦١٠	١٠٬٦١٤	٤٫١	٤٫٧	٤٫٩
المنطقة الغربية	٥٬٠٤٤	٦٬٧٦٠	٨٬٦٨٨٩	٣٫٥	٣٫٧	٤٫٠
المنطقة الوسطى	٣٬٧٣٨	٥٬٢٣٠	١٤٬٢٢٨	٢٫٦	٢٫٩	٦٫٦
منطقة سترة	٧٬٣١٥	٨٬٨٧٢	١١٬٣٢٣	٥٫١	٤٫٩	٥٫٢
منطقة الرفاع	١٠٬٢٩٥	١١٬٩٧٠	١٢٬٦٣٣	٧٫٢	٦٫٦	٥٫٨
الجزر الأخرى	٢٢٣	١١٢	١٣١	٠٫٢	٠٫١	٠٫١
الجملة	١٤٣٬١٣٥	١٨٢٬٢٠٣	٢١٦٬٠٧٨	١٠٠٫٠	١٠٠٫٠	١٠٠٫٠

المصدر: دولة البحرين – المجموعة السنوية – ١٩٧٢ – المرجع السابق – ص ١٣.

قليلاً بعد ذلك (هبط بمقدار ٥ وحدات مئوية فى الفترة من ١٩٦٥–١٩٧١)، وذلك لنمو السكان فى مناطق أخرى، وخاصة المنطقة الوسطى التى تضاعف نصيبها من السكان بين التعدادين الآخرين: ١٩٦٥–١٩٧١.

وبالرغم من محاولة تقليل التركز السكانى فى المنامة والمحرق، بانشاء مدن جديدة مثل مدينة عيسى التى خطط لها أن تستوعب خمسة وثلاثين ألفاً من السكان البحرينيين، إلا أن عوامل الاستقرار البشرى، التى تتوفر بهاتين المنطقتين تساعد على استمرار هذا التركز، حتى أن المنامة تنمو بمعدل ١٫٧٪ سنويا،

وتتسع رقعتها العمرانية نحو الغرب على حساب القرى التى كانت تعرف من قبل بضواحي المنامة.

وفى الوقت الذى استمر فيه نمط التوزيع النسبى للسكان ثابتاً فى تعدادى ١٩٥٩، ١٩٦٥، فإن تعداد سنة ١٩٧١ قد شهد تغيراً فى نسب بعض المناطق التى بدأ نصيبها فى التزايد، مثل المنطقة الوسطى التى شهدت نمواً صناعياً فى السنوات الأخيرة، كان عامل جذب للسكان بها، وكذلك منطقة جد حفص التى تعد امتداداً لمنطقة المنامة نحو الغرب، والتى يرجع نموها الكبير إلى انتقال السكان إليها من المناطق الأكثر ازدحاماً.

وعلى العموم فإن المحصلة النهائية لتوزيع السكان فى البحرين تتلخص فى تركز الغالبية العظمى من السكان على السواحل الشمالية والشمالية الغربية، ثم الشماليةالشرقية للجزيرة الكبرى، وشمال ووسط جزيرة سترة، وأطراف جزيرة المحرق، ويكون السكان مع المناطق الزراعية هنا نطاقاً بشرياً اقتصادياً، لامثيل له فى منطقة الخليج العربى، وقد انعكس هذا التركيز السكانى على وجود نظام كثيف، ويدوى للزراعة منذ مئات السنين فى تلك المناطق والجزر[1]، بينما يقل عدد السكان بشدة، ويتخلخل توزيعهم بالاتجاه جنوباً وغرباً، حتى يندر وجودهم فى جنوب الجزيرة الكبرى، ومجموعة جزر حوار، وأم النعسان والمحمدية.

توزيع السكان بين الحضر والريف

كان التقسيم الذى ورد فى تعداد سنة ١٩٤١ (ريفى ومناطق أخرى)، يشمل كل الدولة فى الواقع، فيما عدا المنامة والمحرق وعوالى، أما فى التعدادات التالية فقد أصبح التقسيم إلى ريفى وحضرى أكثر وضوحاً فقد اشتملت المناطق

---

(١) شقلية – المرجع السابق – ص ١٠٧.

الريفية فى تعداد ١٩٦٥ مثلاً على ٥٤ قرية فى الوقت الذى اشتملت فيه «المناطق الأخرى» على جنوب الجزيرة الكبرى، والذى كان ولايزال قليل السكان للغاية كما سبق القول، وهو يشبه فى ذلك جزراً أخرى مثل جزيرة حوار ثانية الجزر مساحة والتى تدخل فى عداد الجزر غير المسكونة فى البحرين.

ويمكن تتبع تطور التوزيع العددى والنسبى فى الأقاليم الجغرافية بشقيها: الحضرى والريفى، وحسب حدودها سنة ١٩٧١؛ وأكثر من ٨٥٪ من السكان فى البحرين يقطنون مناطق حضرية، وقد استمرت هذه النسبة ثابتة تماماً فى التعدادات الأخيرة. وقد بلغ عدد سكان العاصمة وحدها ١٥١٠٠٠ نسمة فى سنة ١٩٨٨، وهى بذلك تعد المركز الحضرى الرئيسى فى البلاد، حيث تستوعب ثلث سكان الحضر، أو ٢٨٪ من جملة السكان فى البحرين، وإذا أضيف إليها سكان المحرق - والتى تعدُ امتداداً للعاصمة - فإن هذه النسب ترتفع إلى النصف أو أكثر.

وتعد «الحد» فى المحرق «وجد حفص» - فى جنوب غرب المنامة - مراكز حضرية آخذة فى النمو بدرجة كبيرة، وهما يعدان امتداداً عمرانياً لمنطقة العاصمة الكبرى: المنامة - المحرق، وكذلك الحال بالنسبة لسترة التى نمت بسرعة، وذلك نتيجة لتركز كثير من المشروعات الصناعية الجديدة قرب معمل تكرير البترول، وكذلك قرب منطقة الميناء.

ومن أوضح ملامح توزيع سكان الجزر ظهور مركز عمرانى حديث للغاية، هو مدينة عيسى، على امتداد ١١ كيلومتراً غرب المنامة، وهو مشروع عمرانى أنشئ على أساس تخطيطى حديث لاستيعاب ٣٥ألفى نسمة من البحرينيين، على امتداد السنوات القادمة، وقد افتتحت المرحلة الأولى فى نوفمبر ١٩٦٨، وقد سجل تعداد ١٩٧١ عدداً من السكان بها وصل إلى ٧٥٠١ نسمة، ومثل هذه

الضاحية ستؤدى إلى نوع من الفصل العمرانى للمواطنين البحرنيين فى ضواح حديثة عن المهاجرين فى قلب المنامة – العاصمة، وكما هى الحال فى الكويت.

أما المناطق الريفية فقد بلغ عدد سكانها ٩٦ ألف نسمة فى سنة ١٩٩١، بنسبة تصل إلى ٢٨ ٪ من جملة السكان، وتعد هذه النسبة منخفضة بالمقارنة مع نسبة سكان الحضر، وانخفاضها هذا يعكس فى حقيقته ذلك الدور الصغير الذى تلعبه الزراعة فى اقتصاد البحرين، ويتركز السكان الريفيون – كما هى الحال بالنسبة لسكان الجزر أيضا – فى النطاق الشمالى من البحرين، حيث تسهم المياه الجوفية والتربة فى قيام الزراعة بدرجة أفضل بكثير من الأجزاء الجنوبية التى لايقطنها سوى عدد ضئيل من السكان، يتركز فيها ٥٨٫٥ ٪ من جملة السكان الريفيين، أو ١٢٫٨ ٪ من جملة السكان البحرين، وتوزع النسبة الباقية بين قرى منطقة المحرق، والمنطقة الوسطى، ومنطقة سترة.

ويتباين توزيع السكان فى الحضر والريف حسب الجنسية، ومن الواضح أن البحرنيين يتوزعون فى المناطق الحضرية والريفية على السواء، بينما يتركز المهاجرون فى المناطق الحضرية فقط وبخاصة العاصمة والمدينة البترولية – عوالى، فى قلب جزيرة البحرين، وكذا فى المناطق الصناعة من مينائى سليمان وستره، وقد أوضح تعداد ١٩٧١ أن ٩٧٫١ ٪ من السكان غير البحرينيين يتركزون فى الحضر، وبالتحديد فى المنامة والمحرق، والرفاع وهى المراكز الحضرية الرئيسية التى تحظى بأهمية كبرى لدى المهاجرين فى البحرين حيث تتوفر فرص العمالة، ومن ثم يتركزون بها. وقد أدى ذلك إلى ارتفاع نسبة غير البحرينيين فى هذه المدن حتى وصلت ٣٣٫٤ ٪ من جملة سكان المنامة ٢٢٫٧ ٪ من سكان الرفاع، ٧٫٦ ٪ من سكان المحرق.

ثالثا: تركيب السكان

(١) التركيب العمري - النوعي

١- فئات السن:

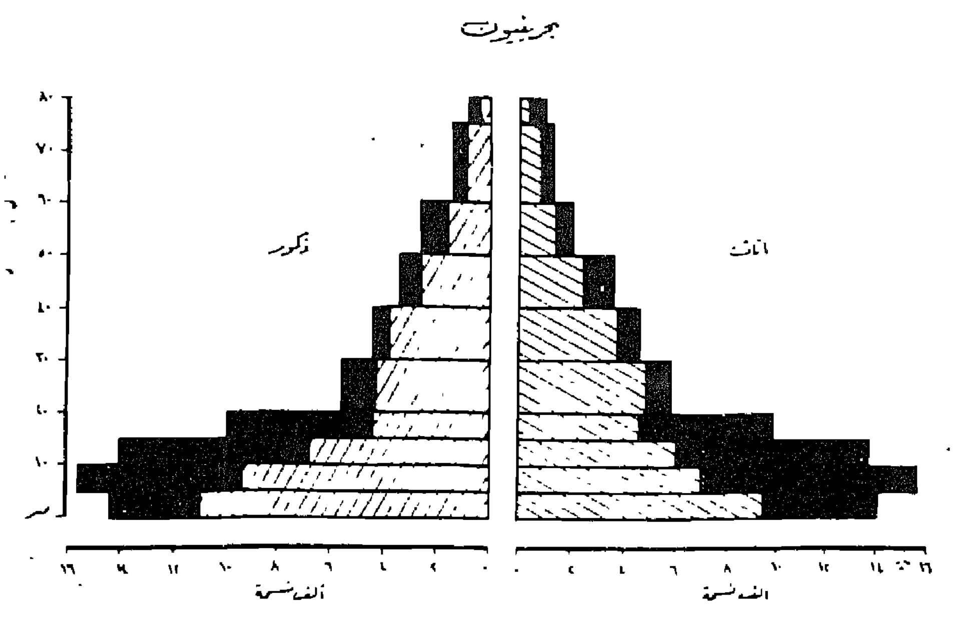
تعد بيانات السن كما أوردتها تعدادات السكان، المصدر الرئيسى لدراسة التركيب العمرى، غير أن هذه البيانات لاتمثل الحقيقة كاملة، وذلك راجع إلى الخطأ فى ذكر الأعمار بدقة عند إجراء التعداد؛ نتيجة عدة عوامل، أبرزها أن شهادات الميلاد، أو أى دليل مكتوب عن الأعمار ليس مطلوباً بعد فى البحرين بالإضافة إلى عوامل أخرى ترتبط بعملية التعداد ذاتها، ومنها جاذبية بعض الأرقام فى ذكر الأعمار، مثل الأرقام الزوجية، أو المنتهية بالصفر أو بالخمسة فى الغالب، وكذلك محاولة التقريب فى الأعمار مما يؤدى إلى مايعرف بالتراكم فى فئة عمرية معينة، أو تضخمها أكثر من الواقع بالمقارنة مع الفئات السابقة لها، أو اللاحقة عليها، ولعل أكبر دليل على ذلك أن نسبة الذكور بالبحرين الذين تنتهى سنهم بالصفر بلغت ١٨٫٧٪ فى تعداد سنة ١٩٧١، والذين تنتهى سنهم بالخمسة بلغت ١٧٫٨٪ وكذلك الحال فى الإناث؛ إذ كانت نسبة اللاتى تنتهى أعمارهن بالصفر ١٧٫٦٪ وبالخمسة ١٧٫٤.

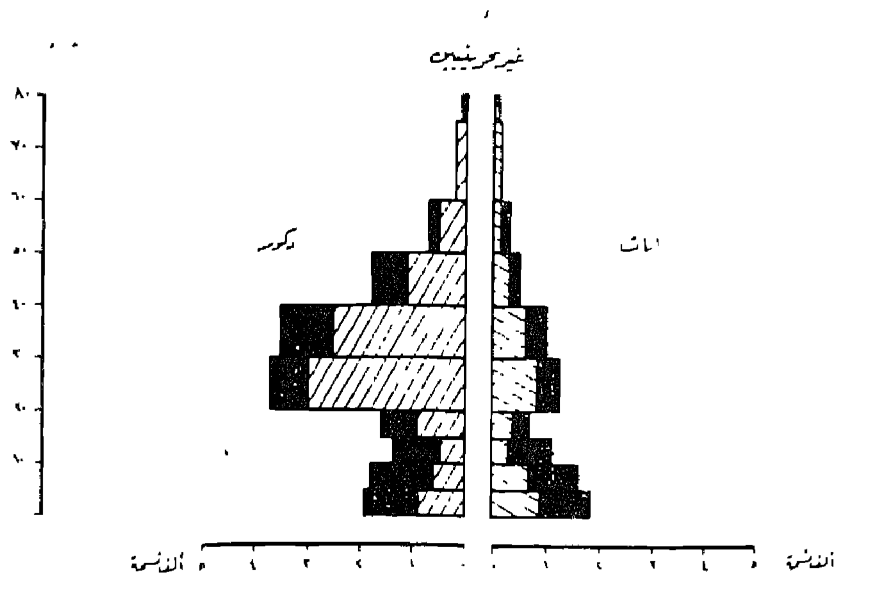
ومعنى ذلك أن بيانات السن فى تعدادات البحرين لاتخلو من أخطاء فى تحديد العمر، وينبغى أن تعامل بشئ كثير من الحذر وإن كان ذلك لا يحول دون تحليل تلك البيانات، حيث تحتوى على حقائق هامة، ويمكن تجنب أخطاء ذكر العمر إذا قسمت فئات السن إلى فئات عريضة، تختفى فى ثناياها أخطاء تحديد العمر الحقيقى، وقد تكون هذه الفئات خمسية أو عشرية أو أكثر، حسب طبيعة العنصر الديموغرافى المراد دراسته.

وقد تم تصنيف السكان فى البحرين حسب السن للمرة الأولى فى تعداد ١٩٥٩ وكذلك ١٩٧١، وتبدو منها حقائق بارزة، أهمها ذلك التباين الكبير فى التركيب العمرى بين السكان البحرينيين وغير البحرينيين، حيث تظهر بوضوح ظاهرة الانتخاب الهجرى العمرى بين غير البحرنيين، والتى يعكس ارتفاع نسب السكان فى الأعمار المنتجة (١٥-٥٩) ارتفاعاً كبيراً وصل إلى ٧٣٪، فى تعداد سنة ١٩٧١، مقابل ٤٧٪ من السكان البحرنيين، وتلك سمة مميزة لمجتمعات المهاجرين، وخاصة فى الدول التى لاتعد مهجراً دائماً؛ لمعظم الوافدين إليها والبحرين من بينها.

كذلك فإن دراسة هذه الأرقام ممثلة فى الهرم العمرى النوعى للسكان شكل رقم ٢٧) تؤكد أن المجتمع الأصلى فى البحرين مجتمع فتى بدرجة كبيرة، يدل على ذلك الارتفاع الكبير فى نسبة الصغار (٠-١٤سنة)، والتى تصل إلى ٤٨٫٥٪ من مجموع السكان البحرينيين، وهى نسبة عالية بصورة لافتة، وتدل على ارتفاع معدل النمو السكانى، نتيجة تزايد مستوى الخصوبة[١]، وقد ارتفعت نسبة الصغار من ٤٥٫٢٪ سنة ١٩٥٩ إلى ٤٨٫٥٪ سنة ١٩٧١، ومرد ذلك بصفة أساسية إلى انخفاض معدل الوفيات، وخاصة فى الأعمار المبكرة، والتى تشكل وفياتها نسبة كبيرة من جملة الوفيات.

والهرم العمرى النوعى للسكان فى البحرين عريض فى قاعدته، ثم يتدرج إلى الداخل كلما ارتفع لأعلى، تبعاً للأعداد السابقة من المواليد والوفيات التى أسهمت فى تحديد شكله، وهو عريض عند القاعدة، نتيجة أعداد الأطفال التى تحل على المجتمع كل عام، مما يؤدى إلى التجديد المستمر لقاعدته، وبالتالى قلة نسبة الأعمار الوسطى والكبيرة، ولذلك قد انخفضت نسبة متوسطى السن البحرينيين من ٤٩٫٧٪ سنة ١٩٥٩ إلى ٤٦٫٥٪ سنة ١٩٧١، وكذلك نسبة كبار السن من ٥٫١٪ إلى ٥٪ من العامين المذكورين.





(شكل رقم ٢٧)

الهرم العمرى النوعى لسكان البحرين فى تعداد (١٩٥٩-١٩٧١)

٢- الحالة التعليمية

لاتوضح التعدادات السكانية فى البحرين سوى بيانات قليلة عن التعليم فيما عدا التعدادين الأخيرين، ففى تعداد ١٩٥٩ كانت البيانات التى جمعت عن التعليم تتعلق بالالتحاق بالمدراس، ومدى الألمام بالقراءة والكتابة، حيث سئل السكان من سن ٧ إلى ١٥ سنة عما إذا كانوا ملتحقين بالمدارس أم لا، وقد اختيرت هذه الفئة العمرية؛ لأنها الفئة التى كانت تشملها السياسة التعليمية لحكومة البحرين آنذاك، أما السكان أكثر من ١٥ سنة فقد سئلوا عما إذا كانوا قادرين على القراءة والكتابة، إلا أنه لم يجر أى اختبار للتأكد من ذلك؛ ولذا فإن الإجابات ربما كانت معرضة لبعض المبالغة؛ وفى آخر تعدادين بالبحرين (١٩٦٥ و١٩٧١) جمعت بيانات أكثر تفصيلاً وشمولاً عن الحالة التعليمية، حيث اشتملت الجداول على التركيب العمرى والتعليم، وكذلك مدى الإلتحاق بالمدارس بالنسبة للذكور والإناث، وغير ذلك.

ويوضح الجدول رقم (١٥) تطور نسبة الملمين بالقراءة والكتابة بين السكان فى البحرين، ويبدو من هذا الجدول مدى التطور الذى طرأ على الحالةِ التعليمية للبحرنيين، حيث أرتفعت نسبة الذكور القادرين على القراءة والكتابة من ٣١٪ إلى ٥٤٪ فى اثنتى عشرة سنة من ١٩٥٩ إلى سنة ١٩٧١، وكذلك الإناث اللائى أرتفعت النسبة بينهن من ٨٫٥٪ إلى ٢٤٪، أى تضاعفت ثلاث مرات تقريباً خلال هذه الفترة، ممايدل على تزايد الاهتمام بتعليم الفتيات فى البحرين، وتبين هذه الأرقام مدى التغير السريع الذى طرأ، ويطرأ على المجتمع البحرينى معتمداً على التوسع فى الخدمات التعليمية، وتزايد نسب السكان القادرين على القراءة والكتابة، ولهذا التطور مدلوله الكبير فى جميع الجوانب الديموغرافية، وخاصة دوره فى رفع متوسط سن الزواج عند الإناث، وبالتالى تقليل معدلات الخصوبة لديهن على المدى الطويل.

ويختلف الأمر بالنسبة لغير البحرينيين الذى يشكلون مجتمعاً مختلفاً فى تركيبه العمرى بدرجة كبيرة كما سبق القول، فلم تتطور نسبة المتعلمين الذكور، بل أعتراها هبوط ليس كبيراً فى الوقت الذى ارتفعت فيه نسبة الإناث المتعلمات، ولاتخضع هذه النسب - كما هى الحال فى معظم الجوانب الديموغرافية الأخرى - لنمط ثابت، أو تطور ملحوظ نحو التزايد أو الهبوط، وذلك لما سبق ذكره من أن غير البحرنيين لايمثلون مجتمعاً متجانساً فى تركيبه الديموغرافى، ومن أبرز ملامحه التعليمية مثلاً أن نسبة الإناث المتعلمات فيه تفوق مثيلتها لدى الذكور بشكل ملحوظ، بعكس الحال فى المجتمع الأصلى، ويرجع ذلك إلى أن معظم الإناث الوافدات للعمل فى البحرين يمارسن أعمالاً تتطلب مستويات تعليمية معينة.

وقد قدرت نسبة القادرين على القراءة والكتابة ٧٧٪ من مجموع السكان سنة ١٩٩١.

جدول رقم (١٥)

تطور النسبة المئوية للقادرين على القراءة والكتابة بين سكان البحرينيين
(السكان ١٥ سنة فأكثر)

السنة	ذكور	إناث	النسبة
١٩٥٩	٣١٫٢	٨٫٥	٢٠٫٠
١٩٦٥	٨٣٫٨	١٢٫٩	٢٦٫٥
١٩٧١	٥٣٫٦	٢٣٫٩	٣٧٫٠
١٩٨٩	٤٨٫٠	٥٢٫٠	٧٠٫٠
١٩٩١	-	-	٧٧٫٠

١ - النشاط الاقتصادى

تختلف نسبة العاملين فى أوجه النشاط الاقتصادى بالبحرين، حسب النوع والجنسية، ويبدو واضحاً أن الحرف الرئيسية للسكان هى الخدمات الاجتماعية والشخصية، يليها البناء والتشييد، ثم الصناعات الاستخراجية والتحويلية، وهذه المجالات الاقتصادية فى مجموعها تشمل عدد ثلثى عدد العاملين، وتأتى الخدمات فى مقدمة أوجه النشاط الاقتصادى فى البحرين، حيث يعمل بها ٣٠٫٥٪ من القوة العاملة (سنة ١٩٧١)، وهى نسبة عالية دون شك، يليها البناء والتشييد، ويعمل بهذا القطاع ١٧٫٢٪ من السكان العاملين، ثم بعد ذلك الصناعات الاستخراجية والتحويلية، ويعمل بها ١٤٪.

وتعد الخدمات الاجتماعية والشخصية المجال الرئيسى الذى يعمل به غير البحرينيين، حيث تصل نسبة الذكور العاملين منهم بهذا القطاع إلى ٣٠٫٣٪، والإناث إلى ٨٢٪، ويعد قطاع البناء والتشييد ثانى المجالات أهمية للعاملين غير البحرينيين، والذى يعمل به ٢٣٪ منهم ويختلف الوضع بالنسبة للبحرينيين الذى يتوزعون بنسب متقاربة، فى الصناعات الاستخراجية والتحويلية والبناء والتشييد والتجارة والنقل، وإن كانت الخدمات تحظى بالأولوية، كمجال عمل للبحرينيين، مثلهم فى ذلك مثل غير البحرينيين.

خاتمة

البحرين، دولة صغيرة الحجم المساحي والسكاني معاً، فقد بلغ عدد سكانها فى آخر تعداد أجرى بها ٣٥١ ألف نسمة، يعيشون فى مجموعة من الجزر، تصل مساحتها إلى ٦٦٢ كيلومترا مربعاً، وقد أظهرت الدراسة الديموغرافية لسكانها اطراد نموهم العددى بمعدل كبير، حيث تضاعف عددهم أربع مرات تقريباً خلال أربعين عاماً فقط (١٩٤١-١٩٨١)، وقد نتج هذا النمو السكانى عن الزيادة الطبيعية والهجرة الوافدة،ن وقد ارتبطت تلك الزيادة بتطور معدل المواليد والوفيات؛ كذلك لأن البحرين من الدول التى تتميز بإرتفاع مستوى الخصوبة السكانية ارتفاعاً كبيراً، مؤكدة بعض المقاييس التى أشتقت من بياناتها الاحصائية، وذلك فى الوقت الذى هبط فيه مستوى الوفاة هبوطاً ملموساً فى خلال الخمس عشرة سنة الماضية، مما انعكس على التركيب العمرى للسكان، ونتج عنه تزايد طبيعى بمعدل عال بين السكان الأصليين وصل إلى ٣٫٥٪ سنوياً.

وفى ضوء المشاهد من ملامح التطور الديموغرافى للبحرين، فإنه يمكن الاستنتاج بأن سكانها قد مروا بالمرحلة الأولى من دورة النمو السكانى حتى وقت متأخر (أواخر الخمسينات)، والتى كان من أبرز سماتها ارتفاع كل من معدل المواليد والوفيات، ومنذ ذلك الحين وهم يعيشون فى المرحلة الثانية، والتى يميزها هبوط تدريجى فى معدل الوفيات، مع ثبات معدل المواليد، وبالتالى ارتفاع نسبة الزيادة الطبيعية ارتفاعاً واضحاً، ومن المحتمل استمرار السكان فى هذه المرحلة ذات التزايد السريع فى عددهم فترة ليست بالقصيرة فى المستقبل.

أما عن الهجرة الوافدة فإن دورها فى النمو السكانى فى البحرين يختلف من فترة تعدادية لأخرى، فقد ارتفع نصيبها فى الزيادة الكلية للسكان من ١٣٪ فى الفترة (١٩٤١-١٩٥٠) إلى ١٨٪، فى الفترة (١٩٥٠-١٩٥٩)، ثم إلى

٣٦٪ فى الفترة (١٩٥٩-١٩٧٥) وقد ارتبط هذا التزايد فى نصيب الهجرة فى النمو السكانى بالتطور الاقتصادى الذى شهدته البحرين فى الخمسينات والستينات، واعتمادها على الأيدى العاملة الأجنبية، إلا أن دور الهجرة فى نمو السكان أصبح دوراً سالباً فى الفترة التعدادية الأخيرة (١٩٦٥-١٩٧١)، حيث أصبحت نسبتها -٥ر١٪ من الزيادة الكلية فى هذه الفترة، مما يدل على أن المجتمع البحرينى يتجه نحو التزايد السكانى الطبيعى فى المستقبل، بعد تراجع الهجرة عن الإسهام فى النمو بدرجة كبيرة، كما كان عليه الحال فى الماضى.

وبالرغم من أن حجم السكان فى البحرين يعد صغيراً، إلا أن هذا الحجم بالنسبة للمساحة الكلية يجعل من البحرين دولة كثيفة السكان، وخاصة إذا ماقورنت بالدول المجاورة، وليست تلك ظاهرة حديثة، بل ترجع لسنوات طويلة أسهمت فيها عوامل السبق الجغرافى بالبحرين من قيام الزراعة، وازدهار التجارة والصيد، بما يساعد على تركز السكان مبكراً بها أكثر من غيرها من الدول المجاورة؛ لذلك فإن المجتمع البحرينى يعد من المجتمعات المستقرة فى بيئتها المحدودة، ولايتصف بوجود بدو، أو أشباه بدو فى سكانه؛ كما هي الحال فى دول الخليج العربى الأخرى.

ويتحدد توزيع السكان بجزر البحرين ببعض العوامل، أبرزها على الاطلاق توفر المياه الجوفية، والتى تساعد على قيام الزراعة والاستقرار البشرى. ويتميز بذلك النطاق الشمالى من تلك الجزر، وخاصة فى منطقة المنامة وجزيرة المحرق اللتان تضمان ثلثى عدد سكان البلاد، وتبدو صورة التوزيع السكانى فى تركز الغالبية العظمى من السكان فى نطاقات السواحل الشمالية الشرقية، والشمالية الغربية، للجزيرة الكبرى، وشمال ووسط جزيرة سترة، واطراف جزيرة المحرق، ويكون السكان مع المناطق الزراعية هنا نطاقاً بشرياً اقتصادياً لامثيل له فى منطقة الخليج العربى، ويقل عدد السكان بشدة، ويتخلخل توزيعهم بالاتجاه جنوباً وغرباً، حتى

يندر وجودهم فى جنوب الجزيرة الكبرى، ومجموعة جزر حوار وباقى الجزر الصغيرة.

ويتميز سكان البحرين بأنهم صغار السن، حيث تتسع قاعدة الهرم السكانى العمرى النوعى لهم اتساعاً واضحاً، نتيجة اعداد المواليد التى تحل على المجتمع كل عام، ويختلف التركيب العمرى للسكان البحرينيين عن مثيله لدى غير البحرينيين اختلافاً كبيراً، حوالى نصف عدد السكان البحرينيين تقل أعمارهم عن ١٥ سنة، مقابل ربع عدد السكان غير البحرينيين، وذلك بعكس الحال فى الأعمار الوسطى التى تصل نسبتها لدى السكان الأصليين إلى ٤٦ ٪، مقابل ٧٣ ٪ للأجانب، ويؤكد ذلك بوضوح ظاهرة الانتقاء الهجرى العمرى بين المهاجرين فى البحرين الذين يكون معظمهم فى سن الانتاج.

ويعمل حوالى ثلث سكان البحرين الداخلين فى قوة العمل بها فى مجال الخدمات الاجتماعية والشخصية يليها فى ذلك قطاع البناء والتشيد، ثم الصناعات الاستخراجية والتعدين فالنقل والمواصلات والتجارة، وهذه القطاعات الخمسة من النشاط الاقتصادى تستوعب قرابة ٩٠ ٪ من القوى العاملة فى البلاد. أما النسبة الباقية فتتوزع بين الزراعة والصيد والكهرباء والتأمين وغير ذلك.

وبالرغم من أن عدد الأجانب فى البحرين يشكل حوالى سدس عدد السكان بها، إلا أنهم يمثلون أكثر من ثلث القوى العاملة (٣٧ ٪)، بل إن هناك قطاعات معينة من المهن تزيد فيها نسبة غير البحرينيين عن السكان الأصليين، مثل المهن الطبية والهندسية وعمال الانتاج، والعاملون بالخدمات والترفيه، ويبدو أن البحرين ستستمر فى اعتمادها على الأيدى العاملة الأجنبية فترة ليست قصيرة فى المستقبل، فى الوقت الذى تتجه فيه سياسة الحكومة البحرينية إلى إحلال السكان البحرينيين محل الأجانب فى قطاعات العمل المختلفة.

واستكمالا للدراسة الديموغرافية لسكان البحرين فقد تم تقدير حجم السكان في المستقبل، اعتماداً على استمرار معدل النمو السكاني للبحرينيين دون تغير في الخمس عشرة سنة القادمة، وكذلك استمرار تراجع الهجرة بنفس معدل هبوطها في الفترة التعدادية الأخيرة، وقد قدر أن عدد السكان سيزيد من ٥٣٦,٠٠٠ نسمة سنة ١٩٩١ إلى نحو مليون نسمة سنة ٢٠٢٥م.









